خالد طحطح

الكتابة التاريخية



امتد تأثير الأستغرافيا الفرنسية خلال الفترة المعاصرة إلى أبعد الحدود. فمدرسة «الحوليات»، ومن بعدها «التاريخ الجديد»، فرنسية النشأة والتطور بالدرجة الأولى. استطاعت من خلال إشعاعها أن تمتد إلى باقي دول أوربا وأمريكا وبنسبة أقل إلى الدول العربية. وبرز في أواخر الثمانينيات جيل من المؤرخين الباحثين الذين ينتمون إلى دول أوربية مجاورة، نخص بالذكر منها دول ايطاليا وألمانيا وبولونيا، ساهموا إلى جانب بعض المؤرخين الفرنسيين في ضخ دماء جديدة في حقل الأستغرافيا من خلال تجاوز مقاربات التاريخ الجديد وتأثيرات التيار البنيوي.

من هذا المنطلق ارتأينا التركيز على هذه التجربة المتميزة في الكتابة التاريخية، من خلال تتبع دقيق لخصائصها ورصد تغيراتها وتحولاتها، مع الانفتاح على تأثير التيارات الألمانية والأنجلوسكسونية والإيطالية التي ظلت حاضرة في سياقات أخرى إما بشكل مواز أو مختلف حسب الفترات التاريخية.

بهذا يفتح هذا الكتاب صفحة من صفحات خصائص تاريخ الكتابة التاريخية في الفترة المعاصرة بأوربا عامة وفرنسا خصوصاً. فمن سيطرة المدرسة المنهجية في القرن التاسع عشر، إلى نشأة «الحوليات» في عشرينيات القرن الماضي، إلى اللحظة التي وسمها الباحثون بالأزمة مع جيل التاريخ الجديد. وقد تتبعنا تتبعاً تاريخياً خصائص كل مرحلة من هذه المراحل بالدراسة والتحليل، وأبرزنا الأشياء التي تغيرت بين الأمس واليوم في الكتابة التاريخية خلال المرحلة المعاصرة.

الثمن 65 درهما


9 789954 511428

الكتابة التاريخية

صدر للمؤلف

نظريات في فلسفة التاريخ، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 1994م

في فلسفة التاريخ، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، 2009م

خالد طحطح

الكتابة التاريخية

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار

بلفيدر، الدار البيضاء 20300- المغرب

الهاتف / الفاكس: 522.34.23.23 (212) - 522.40.40.38 (212)

الموقع: www.toubkal.ma - البريد الإلكتروني: contact@toubkal.ma

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
المعرفة التاريخية

الطبعة الأولى 2012

صورة الغلاف عمل الفنان
مهدي قطبي

المعرفة التاريخية : ردمد 2028-9235
الإيداع القانوني رقم : 2012 MO 2656
ردمك : 978-9954-511-42-8

مقدمة

المؤرخ في نظر ايمانويل لوروا لادوري مثله مثل عامل المناجم الذي يعمل في عمق الأرض، إنه يستخرج المعطيات إلى السطح ليستغلها مختص آخر مثل عالم الاقتصاد أو عالم المناخ أو عالم الاجتماع. لقد اعتبر فرانسوا دُوسْ أن هذا الوصف يعبر عن استقالة المؤرخ عن رسالته وتخليه عما هو أساس لخصوصيته. إننا اليوم في نظره أصبحنا بعيدين عن معارك من أجل التاريخ للوسيّانِ فيفر أو الدفاع عن التاريخ لمارك بلوك.

هل فقد المؤرخ اليوم فعلا عصاه كرئيس للجوقة في حقل العلوم الاجتماعية؟ وماذا بقي من خصوصية للتاريخ بعد انفتاحه على مناهج العلوم الاجتماعية والانتروبولوجية والسوسيولوجيا؟ وماذا بعد تكسير الحدود بين التاريخ وباقي التخصصات الأخرى؟ إنها أسئلة القلق بخصوص مستقبل الكتابة التاريخية في سياق موجة ما بعد البنيوية و التاريخ الجديد.

حققت مهنة التاريخ طفرات متعددة أثناء مسيرتها، تكيفت خلالها مع الأوضاع المتغيرة واستطاعت أن تبلور خطابات ونماذج جديدة في كل مرحلة وإلى غاية أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، لقد مرت المدرسة التاريخية الفرنسية «الحوليات» منذ تأسيسها وإلى الآن بمراحل كبرى عرف فيها التاريخ لحظات قوية حتى العصر الذي أطلق عليه المراقبون من مؤرخين وغيرهم إسم «الأزمة»، مما جعل الحديث يدور عن «تاريخ مجزءِ» بل عن «تاريخ مفتت».

تمت إزاحة الحدث إلى المركز الأخير بعد البنية والظرف، وكان هناك رفض شامل للتفرد، تفرد الحدث، تفرد الأفراد، لذلك تمثل عودة هذه المواضيع اليوم إلى الواجهة معاكسة ضمنية لكتابة التاريخ كما كانت سائدة في العصر الذهبي للحوليات و تحديا أمام جيل التاريخ الجديد.

لقد عاشت مهنة المؤرخ سنوات من«التشظي» و«التفتت» وجد خلالها الجيل الجديد من المؤرخين أنفسهم أمام أزمة حقيقية، إنها أزمة الهوية و الممارسة التي بدأ يشعر بها فريق إدارة الحوليات، والتي نلمسها بوضوح في المناقشات الحادة التي برزت للوجود من أجل إعادة صياغة مجالات التاريخ و توجهاته الجديدة في ظل صعوبة تحديد هوية مستقرة للتاريخ. إنه «زمن الشكوك» و«الفوضى الابستمولوجية» التي عرفتها الكتابة التاريخية في ما بين سنوات 1980-1990م بفرنسا، والتي أدت لاحقا إلى تطعيم هيئة مجلة الحوليات بأعضاء جدد، بالإضافة إلى تغيير العنوان الفرعي للمجلة سنة 1994م قصد التكيف مع الوضع المتغير.

يُقِرُّ ميشيل دو سيرتو و بول ريكور و بيير نُورَا و جُورْجْ دُوبي و بول فاين وجَاك رُوفيل وغيرهم بوجود هذا التغيير في التوجهات والمواضيع مقارنة بالأمس، لقد أصبحت تتشكل في الأفق سحابة قاتمة بخصوص حرفة المؤرخ. في ظل هذه الوضعية الحرجة ظهرت كتابات جديدة متعددة وخصبة حاولت العودة بالتاريخ إلى ما كان يُشَكِّلُ أساسه وأصله. إن عودة الخطاب التاريخي إلى قوته كما كان لن يتحقق إلا بإبراز ما كان منبوذا منذ البداية من مدرسة الحوليات: الحدث، التاريخ السياسي، البيوغرافيا، وأيضا من خلال تجاوز القطيعة بين الماضي والحاضر، وجعل التاريخ مهنة التغيير كما كان عليه الأمر في السابق.

حققت الكتابة التاريخية في مسارها إنجازات هائلة في ميدان المعرفة التاريخية، ولعل المساهمة الفرنسية في هذا المضمار منذ القرن التاسع عشر و إلى الآن، ستبقى الأكثر تميزا في هذا المجال، لقد عرفت المدرسة التاريخية الفرنسية ثورتين على مستوى المنهج، الأولى تمت مباشرة بعد هزيمة فرنسا في المواجهة العسكرية أمام ألمانيا سنة 1871م، إذ أطلق أساتذة جامعيون تأثروا بشكل كبير بالمدرسة التاريخية الألمانية المجلة التاريخية سنة 1876م. أما الثورة الثانية فقد قادها من جامعة ستراسبورغ سنة 1929م المؤرخان مارك بلوك ولوسيان فيفر اللذان دشنا قطيعة نهائية مع النموذج الألماني الذي مثلته المدرسة المنهجية.

امتد تأثير الاسطوغرافيا الفرنسية خلال الفترة المعاصرة إلى أبعد الحدود، فمدرسة «الحوليات» و من بعدها «التاريخ الجديد» هي مدرسة فرنسية النشأة والتطور بالدرجة الأولى، استطاعت من خلال إشعاعها الامتداد إلى باقي دول أوربا وأمريكا، وبنسبة أقل إلى الدول العربية. لقد برز في أواخر الثمانينيات جيل من المؤرخين الباحثين ينتمون إلى دول أوربية مجاورة، ونخص بالذكر دول ايطاليا وألمانيا وبولونيا، ساهموا إلى جانب بعض المؤرخين الفرنسيين في ضخ نفَس جديد

في حقل الاسطوغرافيا من خلال تجاوز مقاربات التاريخ الجديد وتأثيرات التيار البنيوي.

من هذا المنطلق ارتأينا التركيز على هذه التجربة المتميزة في الكتابة التاريخية من خلال تتبع دقيق لخصائصها ورصد لتغيراتها وتحولاتها، مع الانفتاح على تأثير التيارات الألمانية و الانجلوساكسونية و الايطالية التي ظلت حاضرة في سياقات أخرى إما بشكل مواز أو مختلف حسب الفترات التاريخية.

الباب الأول في الكتاب يتناول في فصله الأول نماذج من فلسفات التاريخ الكبرى التي انتعشت بالخصوص في نهاية القرن التاسع عشر وطيلة مرحلة القرن العشرين. في حين يعرج الفصل الثاني على الكتابات المشككة في أفكارها ونظرياتها. فقد انْتُقِدَتْ فكرة غائية التاريخ و موضوعية المؤرخ و فلسفات التاريخ و التاريخانية بصفة عامة، و أصبحت فكرة علمية التاريخ و قوانين التاريخ و القدرة على المعرفة العلمية للوقائع مصدر قلق و إزعاج للكثير من المؤرخين الذين ابتعدوا عن كرونوزوفيات فلسفات التاريخ الموروثة عن عصر الأنوار بمقدار ما ابتعدوا عن الأصنام الثلاثة لقبيلة المؤرخين المنهجيين.

الباب الثاني: تتبع خصائص الكتابة التاريخية لدى المدرسة التاريخية المنهجية في فرنسا، والتي تأثرت بمفاهيم المدرسة التاريخية الألمانية الرانكية التي لم تتخلص بشكل نهائي من الآثار السلبية لكرونوزوفيات فلسفات التاريخ[1]. إن هذه المدرسة المنهجية التي رعتها الجمهورية الثالثة في فرنسا (1870-1940م) فرضت نفسها على الساحة الأكاديمية من خلال المجلة التاريخية التي أنشأتها سنة 1876م ومن خلال كتاب المدخل إلى الدراسات التاريخية الذي ألفه المؤرخان شارل لانغلوا و شارل سينوبوس لفائدة الطلبة الجامعيين، و لقد استمر تأثير هذه المدرسة التي ربطت الحقيقة التاريخية بالوثائق المكتوبة إلى أواخر الأربعينيات من القرن الماضي.

الباب الثالث من الكتاب تطرق إلى التطورات الاسطوغرافيا الجديدة التي عرفتها الكتابة التاريخية مع صعود نجم مدرسة الحوليات. ما سيميز أعمال مؤرخي هذه المدرسة الرائدة منذ نشأتها في ثلاثينيات القرن العشرين هو رفض التاريخ الحدثي والسياسي و العسكري و الفردي، و سيتعزز هذا الرفض أكثر فأكثر مع الجيل الثاني والثالث لهذه المدرسة التاريخية. وقد واكب هذا الرفض للتاريخ السياسي

1. كرونوزوفيا Chronosophie مصطلح جديد راج استخدامه في الكتابات التاريخية الجديدة، استخدمه لأول مرة المؤرخ كريستوف بوميان في كتابه نظام الزمان، استعاره فرانسوا هارتوغ في كتابه تدابير التاريخانية وفرانسوا دوس في كتابه انبعاث الحدث. تتطلع الكرونوزوفيات إلى التحكم في المجرى العام للمسار أو للتاريخ أو للصيرورة أو للزمان. و قد وُسِمَتْ التاريخانيات التقليدية بالكرونوزوفيات.

رفض للتاريخ الوطني بمفهومه الضيق، وتم الإعلان عن إفلاس التاريخ العسكري وتاريخ الحروب خصوصا بعد صدمة الحرب العالمية الأولى التي خلفت استياء كبيرا لدى الفلاسفة و المفكرين، لوحشيتها و نتائجها السيئة، ولأضرارها الوخيمة على البشرية اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا.

إنه اتجاه جديد في الكتابة التاريخية تَخلَّصَ مِنْ وِصَايَةِ التاريخ الرسمي الذي فرضته الحكومات والدول على البرامج والمقررات في المدارس والجامعات، وتَمَرَّدَ على اللعبة السياسية وعلى الأحزاب السياسية بإيديولوجياتها المختلفة، إنه اختيار مختلف انحاز بشكل واضح نحو قضايا الاقتصاد والمجتمع.

مع مدرسة الحوليات توسع حقل التاريخ الذي انفتح على اختصاصات الجغرافيا و علم الاجتماع و الاقتصاد و الديموغرافيا قبل أن يتحول إلى انتربولوجيا تاريخية مع المؤرخ الفرنسي جاك لوغوف.

في عام 1978م صدر في فرنسا كتاب جماعي بعنوان التاريخ الجديد أشرف عليه المؤرخ جاك لوغوف[2]. يشمل الكتاب عشر مقالات بأقلام مختلفة أغلبها ينتمي إلى الجيل الثالث من مدرسة الحوليات، ركزت المقالات على تعريف معنى التاريخ الجديد و شرح مبادئه و اتجاهاته البحثية و توضيح حقوله المعرفية، و في العام 1988م، و في إطار رد الفعل على صدور كتاب التاريخ المفتت لفرانسوا دوس سنة 1987م، صدرت الطبعة الثانية لقاموس التاريخ الجديد مع مقدمة جديدة خصصها جاك لوغوف للرد بشكل لاذع على منتقدي التاريخ الجديد و خص بالذكر ضمنيا صاحب أطروحة «التاريخ المفتت»[3]، مستهجنا في الوقت ذاته الأحاديث التي طفت على واجهة النقاش بخصوص أزمة الكتابة التاريخية التي بدأت تبرز مع الجيل الثالث لمدرسة الحوليات، وهي القضايا التي يعالجها الفصل الثاني من الباب الثالث، فمع أواخر ثمانينيات القرن الماضي دخل التاريخ منعطفا خطيرا، لقد أصبح مهددا في هويته ومعالمه، إنها مرحلة «أزمة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي» في سياق التغيرات المعاصرة. فماذا بقي من التاريخ بعد انفتاحه على باقي العلوم الإنسانية الأخرى

2. تَرْجَمَ هذا الكتاب إلى اللغة العربية د. محمد الطاهر المنصوري، و قد صدر عن المنظمة العربية للترجمة في بيروت سنة 2007.

3. تناول فرانسوا دوس في أطروحته لنيل دكتوراه السلك الثالث التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد موضوع تاريخ مدرسة الحوليات ومؤرخيها من الميلاد إلى الازدهار إلى الانفجار والتفتت. وقد ترجم هذا الكتاب أيضا محمد الطاهر المنصوري سنة 2009م ، وصدر عن المنظمة العربية للترجمة، أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة في صفوف رواد مدرسة الحوليات عندما صدر لأول مرة سنة 1987م لدرجة أن المؤلف جاك لوغوف خصص مقدمة الطبعة الثانية من كتاب التاريخ الجديد للرد عليه دون الإشارة إليه بالإسم.

إلى درجة الذوبان؟ ألم يحن الوقت بعد ليسترجع التاريخ استقلاليته وينقذ نفسه من مصير التشتت الذي ينتظره ؟. لقد وجد المؤرخون الجدد أنفسهم وجها لوجه مع بداية انبعاث ما كان مرفوضا منذ نشأة الحوليات: عودة الحدث، عودة التاريخ السياسي، عودة البيوغرافيا، عودة السرد.

هل هذه العودات تشكل بداية مرحلة جديدة مختلفة عن السابق أم أنها لا تعدو أن تكون عودة بسيطة إلى مواضيع تقليدية متجاوزة ؟ هل هو تكييف جديد للتاريخ مع المتغيرات الحالية أم أن الأمر مجرد موضة عابرة؟

إن هذه الأزمة التي مازال يعيشها التاريخ إلى اليوم تكشف لنا بوضوح أن التاريخ البنيوي و تاريخ الزمن الطويل فشلا في إزاحة ما كان مقدسا في حقل التاريخ لدى المدرسة المنهجية لسينوبوس و لانغلوا. فهل أصبح التاريخ اليوم مع الجيل الثالث لمدرسة الحوليات بدون هوية ؟ هل أصبحت الحوليات بالفعل تاريخانية جديدة؟

يفتح هذا الكتاب صفحة من صفحات خصائص تاريخ الكتابة التاريخية في الفترة المعاصرة بأوربا عامة وفرنسا خصوصا، فمن سيطرة المدرسة المنهجية في القرن التاسع عشر إلى نشأة الحوليات في عشرينيات القرن الماضي إلى اللحظة التي وسمها الباحثون بالأزمة مع جيل التاريخ الجديد. تتبعنا كرنولوجيا خصائص كل مرحلة من هذه المراحل بالدراسة و التحليل، و أبرزنا الأشياء التي تغيرت ما بين الأمس و اليوم في الكتابة التاريخية خلال المرحلة المعاصرة.

الباب الأول

فلسفةُ التاريخ

الفصل الأول

نظريات فلسفة التاريخ

1 . فلسفة التاريخ

يصعب وضع تعريف دقيق لما تعنيه عبارة فلسفة التاريخ تحديدا، فإذا كان التاريخ بمفهومه الكلاسيكي يُعْنَى بدراسة أحوال الإنسان في الماضي، فإن كل مؤرخ يميل إلى تناول أحداث ووقائع الماضي لابد وأن يستند إلى وثائق مختلفة ومنهج محدد، لكنه لايستطيع بالمقابل أن يتجرد بشكل نهائي من أفكاره الفلسفية وتصوراته الإيديولوجية، لذلك فمن الطبيعي أن يكون لهذه الأفكار المسبقة أثرها الكبير في رؤيته التاريخية.

اسْتَخْدَم تعبير «فلسفة التاريخ» لأول مرة في القرن الثامن عشر الميلادي الفيلسوف الفرنسي فولتير، غير أن التفلسف في التاريخ بدأ بالفعل قبل ابتكار هذا التعبير بمدة طويلة[4]. فَجُذور هذا النوع من التفسير للتاريخ يعود إلى المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون الذي وسمه البعض بأنه «أب التاريخ الحقيقي»، ونعته البعض الآخر دون مبالغة بـ«مؤسس علم التاريخ». ذكر روبرت فلينت في كتبه أن مقدمة ابن خلدون تعتبر مؤسسة[5]. لقد أعجب هذا الكاتب كثيرا بابن خلدون وأشاد به في كُتُبُه، فقد عده منقطع النظير حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلاثمائة عام، ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس اوغسطينوس بأنداد له، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه[6]. إن ابن خلدون حسب عبد الله العروي اسم جامع تختفي تحته شخصيات عدة، فهو راو مثل غيره من الرواة عندما يتحدث عن أصول العرب والبربر والترك،

---

4. ساطع الحصري. دراسات في مقدمة ابن خلدون. بيروت، الطبعة الثالثة، 1967، ص171.

5. نقصد بذلك كتابيه. فلسفة التاريخ في فرنسا وألمانيا. وتاريخ فلسفة التاريخ. وهما من الكتب المهمة في مجال التعريف بنظريات فلسفة التاريخ.

6. محمد جلال شرف و علي عبد المعطي محمد. الفكر في الإسلام شخصيات ومذاهب. 1978م، الإسكندرية، ص580.

مشاهدا بل صحفيا عندما يتكلم عن نفسه وعن سلاطين بني مرين، مؤرخا يزاحم في الإتقان والنباهة والاطلاع المسعودي و البيروني، منظرا لقواعد الكتابة التاريخية مبدعا لعلم العمران في مستوى فلاسفة عهد التنوير.[7]

لقد تغيرت آراء العديد من الغربيين الذين ذكروا أن الايطالي باتيستا فيكو هو أول من فكر في فلسفة التاريخ، ولكنهم علموا بعدئذ أن ابن خلدون سبقه إلى ذلك بمدة تزيد عن ثلاثة قرون ونصف القرن[8]، فإذا كان كتاب فيكو يعتبر بمثابة تفلسف في تاريخ الإغريق والرومان، فإن مقدمة ابن خلدون تفلسف في تاريخ العرب والمسلمين. ورغم أن ابن خلدون لم يستعمل مصطلح فلسفة التاريخ صراحة فإن مقدمته تعتبر من نوع المؤلفات التي عرفت في أوربا باسم فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر، وباسم علم التاريخ في القرن التاسع عشر. ذلك أنه حدد في مقدمته مبادئ النقد التاريخي[9].

تدافع فلسفة التاريخ عن علمية التاريخ باعتباره علم الوقائع والأحداث، فالتاريخ لا يسير اعتباطا وإنما حسب خطوط مرسومة، وهذه الخطوط هي المنطق الذي يربط بين الأحداث والوقائع التاريخية أي: فلسفة تمتزج بالتاريخ وتصبغه بنظرتها، إن التاريخ البشري بهذا المعنى لا يتحرك من غير هدف وإنما تحكمه نواميس وسنن كتلك التي تحكم الكون، فالوقائع التاريخية لا تقع بالصدفة ولا تخضع للاحتمال وإنما هي موجهة نحو هذا الاتجاه أو ذاك المسار.

تسعى فلسفة التاريخ إلى معرفة الروابط التي توجد بين الأحداث والوقائع المتفرقة، غايتها وضع اليد على المجموعات النمطية من المؤثرات التي تتحكم في سير الحركة التاريخية، هدفها استخلاص السنن و النواميس التي تحكمها، والاعتبار بنتائجها، وأخذ الدروس والعبر منها، هذه مرحلة تأتي بعد الدراسة النقدية للوثائق والأحداث، فالذي ثبت من الوقائع هو الذي يفسر ويحلل ويتعرف على دلالته وآثاره الراهنة والمستقبلية، وذلك بهدف تفسير القوانين التي تتحكم في صناعة التاريخ بأحداثه المتعددة والمتداخلة.

فلسفة التاريخ هي التي تبحث في الوقائع التاريخية، فتسعى لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثر في سير هذه الوقائع، و تعمل على استنباط الأحكام العامة التي

7. عبد الله العروي .مفهوم التاريخ 1 ـ الألفاظ والمذاهب 2ـ المفاهيم والأصول، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005، ص18.

8.عفت الشرقاوي. في فلسفة الحضارة الإسلامية. دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الرابعة، 1985م، ص408.

9.ساطع الحصري. دراسات في مقدمة ابن خلدون. م.س، ص195.

تتطور بموجبها الدول والحضارات، أي تهتم بتفسير وفهم مجرى التاريخ في ضوء نظرية فلسفية معينة، وتضع لعلم التاريخ أساسا فلسفيا بحيث لا يبقى التاريخ مجرد سرد وتفسير للوقائع فقط، وإنما التعمق في دراسة الأسباب والقوانين الثابتة التي تتخطى الزمان والمكان، فمهمة فلسفة التاريخ ترتقي إلى مهمة الكشف عن هذه القوانين التي تفسر تاريخ البشرية منذ الأزل وفق تحليل دقيق للمصادر والوثائق التاريخية اعتمادا على مفاهيم مثل العلية و القانون و الحتمية و غيرها.

تستند فلسفة التاريخ الى فكرة وجود قوانين تتحكم في مصير الحركة التاريخية، وهذه القوانين يجب اكتشافها والتعامل معها، من هذا المنظور يصبح التفسير التاريخي للحوادث اجتهادا بشريا يحتمل الخطأ والصواب لأنه يدخل ضمن ميدان الدراسات النظرية.

لقد تطور مفهوم فلسفة التاريخ في الدراسات الحديثة فأصبح يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ. الجانب الأول منه دراسة للمناهج و الطرق والأساليب المستخدمة للتحقق من الوقائع التاريخية[10]. ما هي المناهج التي يعتمدها المؤرخ ؟ وما أنواع الوثائق والمصادر التي يرتكز عليها في أبحاثه؟ وما مدى موضوعية وحيادية المؤرخ اتجاه الأحداث التي يتناولها ؟ هذا النوع يطلق عليه «الفلسفة النقدية للتاريخ». أما الجانب الثاني فيتمثل في تقديم وجهة نظر عن مسار التاريخ بشكل شمولي و هو ما يسمى «الفلسفة التأملية للتاريخ» التي تدعي القدرة على اكتشاف القوانين المتحكمة في سير الأحداث والتنبؤ بالمصير. عندما يتم تناول التاريخ كمصير نتحدث عن فلسفة التاريخ التأملية. يجتمع تحت هذا المسمى عدة مؤرخين وفلاسفة يتباينون في منطلقاتهم أشد التباين ويختلفون في تصوراتهم وأساليبهم لكنهم يتفقون جميعا على أن للتاريخ قصدا و غاية و هدفا، إن هؤلاء المؤلفين الذين كتبوا في موضوع فلسفة التاريخ إنما كتبوا تأملات حول الأحداث و الوقائع و لم يكتبوا تاريخا. يجتمع تحت هذا المسمى اوغسطينوس وفيكو و هيغل وماركس ورانكة وبوسيه وميشليه واشبنجلر وتوينبي وغيرهم، التاريخ بالنسبة إليهم مُسَيَّر يتجه إلى غاية حتمية، إنهم فلاسفة التاريخ و ليسوا مؤرخين محترفين. المؤرخ المحترف لا يعترف بامكانية وجود لا فلسفة تاريخ و لا تاريخ فلسفي[11].

هذه النظرة التأملية تمثل الدراسة التي يقوم بها فيلسوف التاريخ للعصور السالفة بهدف استخلاص القوانين التي تحكم سير الحياة و الإنسان والمجتمع

10. فريديريك هيغل. محاضرات في فلسفة التاريخ-العقل في التاريخ- الجزء الأول، الطبعة الثانية، لبنان ص30.

11. عبد الله العروي. مفهوم التاريخ. 1. الألفاظ و المذاهب. م.س.ص 51.

والدولة والحضارة. في هذا الفصل الأول من البحث سنركز على المفهوم الثاني لفلسفة التاريخ المتعلق بقضية التأمل في التاريخ بهدف استنباط نظريات تاريخية تفسيرية يتم تعميمها على وضعيات مشابهة من خلال نماذج سيأتي تفصيل الحديث عنها لاحقا[12].

إن فلسفة التاريخ إذن هي نوع من المعرفة الاجتماعية التي تبحث في الاتجاه العام لسير البشرية، تحاول إيجاد قانون شامل يحكم التاريخ الإنساني، و بهذا تكون المهمة الأساسية الأولى لفلسفة التاريخ إبراز النظريات التي تقوم بتأويل الأحداث التاريخية و كذا الكشف عن القوانين التي تتحكم فيها[13]. مارس هذا النوع من التفكير الفلاسفة الكبار الذين اتجهوا إلى البحث في الحقيقة التاريخية، وَتقمصوا دور مؤرخين حقيقيين وأبرزوا بشكل فلسفي الشيء الذي يستحق أن يطلق عليه اسم «الحقيقي». اهتم الفلاسفة بمسألة المفاهيم التاريخية أكثر من المؤرخين أنفسهم، فأنتجوا فلسفة للتاريخ ماتزال شاهدة على نوع التبادل المضبب وغَيْر المتقطع الذي جمع الفيلسوف بالتاريخ.[14]

2. فلاسفة التاريخ

2.1.العودة إلى ابن خلدون

ولد عبد الرحمان ابن خلدون (1332م - 1406م) بتونس في فترة تميزت بتفكك الإمبراطورية الموحدية في المغرب و الأندلس و تراجع المسلمين أمام القوة الصاعدة للممالك الإسبانية.

بعد سقوط الدولة الموحدية انقسم الغرب الإسلامي إلى دويلات صغيرة ضعيفة متناحرة على رأسها دولة بنو مرين في المغرب الأقصى و دولة بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط و الدولة الحفصية في تونس، وَأصبحت كل دويلة من هذه الدويلات عدوة لجارتها. في هذه الظرفية الانتقالية المتسمة بالضعف السياسي ولد عبد الرحمان ابن خلدون، لقد رأى النور في زمن النكسة و الانحطاط.

عندما بلغ ابن خلدون سن التعلم بدأ حفظ القرآن وتجويده حسب المنهج الذي كان متبعا آنذاك بمسجد القبة بتونس، درس بعدها مختلف العلوم الإسلامية بالإضافة

12. للمزيد حول نظريات فلسفة التاريخ. يراجع:خالد طحطح. في فلسفة التاريخ. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009.

13. ناصف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون. الطبعة الأولى، 1987م، بيروت، ص178.

14. Bertrand Binoche. *Philosophie de l'histoire. Historiographies, I .Concepts et débats*. Folio histoire ..editions Gallimard, 2010.p561

إلى الفلسفة و الرياضيات، و قد تحدث ابن خلدون عن هذه المرحلة بنفسه في كتابه **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا.**

عندما بلغ سن السابعة عشر من عمره(739هـ) حدث الطاعون الكبير الذي عم مناطق شاسعة من آسيا إلى الأندلس، وبه مات والده و أكثر من كان يأخذ عنهم العلم، عكف ابن خلدون بعدئذ على طلب العلم إلى أن استدعاه الوزير أبو محمد بن فزاكين بتونس لكتابة رسائله الرسمية. وفي سنة 755هـ استقدمه السلطان المريني أبو عنان إلى فاس التي أمضى بها تسع سنوات في العمل ضمن سلك الكتَّاب، وخلال هذه الفترة اتجه إلى القراءة و المطالعة. سجن سنة 758هـ لاتهامه بالمشاركة في تدبير مؤامرة ضد السلطان المريني. و بعد خروجه من السجن اتجه صوب غرناطة بالأندلس إلى السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر باني مسجد الحمراء بغرناطة الذي أوكله سفارة إلى ملك قشتالة باشبيلية، وقد نجح في مهمته السفارية فَمَنَحهُ السلطان بسببها أراضي شاسعة. أعجبته الأندلس فاستقر بها و استقدم إليها أبناءه وأهله إليها، غير أن سعادته لم تكتمل إذ يبدو أن حُسَّادَه قد كثروا، فهو الغريب ذوالحظوة عند السلطان، وَسَعَوْا بالدسائس حتى حدثت الفجوة بينهما، أدرك ابن خلدون أن أيام الأندلس قد باتت قصيرة و أن لا مناص له من الرحيل، فكانت أوبته إلى المغرب ثانية. وفي هذه الفترة تقلد عدة مناصب في كل من المغرب و الجزائر وتونس حتى أصبح موضع ريبة وشك من الجميع. عَبَرَ مرة أخرى إلى الأندلس سنة 766هـ لينزل ضيفا عند السلطان ابن الأحمر، لكن المرينيين منعوا أولاده من الالتحاق به، فعاد إلى تلمسان معتزلا السياسة بصفة نهائية. لجأ إلى جبل كزول معتكفا بقلعة ابن سلامة بالجزائر حيث أقام بها أربع سنوات كتب خلالها مقدمته الشهيرة. وفي سنة 780 هـ عاد ابن خلدون إلى مسقط رأسه تونس، و عندما أحس بالخطورة على حياته بها تذرع بقضاء فريضة الحج فركب البحر في اتجاه مدينة الإسكندرية، و في مصر التي مكث فيها 25 سنة من عمره أتمّ كتابه في التاريخ المسمى **كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.** تولى خلال مدة إقامته بمصر أيضا مهمة التدريس بجامع الأزهر و تولى منصب القضاء بها. فُجِعَ ابن خلدون في أبنائه جميعا، فقد غرقت بهم السفينة التي قدموا على متنها من تونس، وعظم مصابه لدرجة اعتزاله القضاء من شدة الحزن على فراق أهله، توجه إلى مكة لقضاء فريضة الحج و في طريق العودة زار بيت المقدس ثم قفل عائدا إلى القاهرة التي توفي بها في 25 رمضان سنة 808هـ.

لابن خلدون كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، يتكون من مقدمة و ثلاثة كتب، المقدمة والكتاب الأول في موضوع العمران يشكلان معا ما يسمى الآن مقدمة ابن خلدون. أما الكتاب الثاني فيتناول تاريخ العرب إلى عصر المؤلف، أما الكتاب الثالث فموضوعه تاريخ البربر و ذكر أوليتهم و أجيالهم بالشمال الإفريقي، و ذيل المؤلف هذا الكتاب بخاتمة في سيرته الذاتية تسمى التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا وغربا.

ترجمت مقدمة ابن خلدون في القرن الثامن عشر إلى اللغة الفرنسية أولا، ثم ترجم جزء منها إلى اللغة الإنجليزية مطلع القرن العشرين، وإلى الألمانية أوائل ثلاثينيات القرن الماضي، إلى أن نشرت بشكل كامل سنة 1958 في بريطانيا. حظيت المقدمة بدراسات عالمية للتعريف بها قبل هذا التاريخ، ثم توالت طبعاتها مشمولة بتعليقات، منها ما قاله المؤرخ وفيلسوف التاريخ أرنولد توينبي من أن مقدمة ابن خلدون تعتبر «أعظم مؤلف من نوعه، لم يقم بإنجازه أي عقل من قبل في أي زمان ومكان».

أنشأ ابن خلدون في مقدمته علما جديدا، أطلق عليه اسم العمران البشري، يفتخر ابن خلدون في مقدمة كتابه بهذا العلم ويعتبر نفسه مبتكرا و مجددا في هذا التأليف و لم يكن مقلدا أو مقتبسا من أحد[15]. إن مقدمة ابن خلدون بما حوته من علم جديد هي التي أكسبته الشهرة الواسعة و خلدت اسمه بين علماء العالم، إنه مجدد في علم التاريخ، لذلك يرى كثيرون أنه مؤسس علم التاريخ.

إن المقدمة تكاد تكون المؤلف العربي الوحيد الذي نحس أثناء قراءاته أنه أكثر معاصرة منا لأنفسنا و واقعنا، إننا نشعر بأننا نقرأ ما لم نكتبه بعد و نسمع فعلا ما لم نقله بعد[16]، لن نبالغ إذا قلنا إن ابن خلدون شخصية سابقة لعصرهَا، ذلك العصر الذي بلغ فيه تفكك العالم الإسلامي مبلغه بين دويلات طائفية متناحرة. ولقد ظلت مقدمته مغمورة وضائعة وسط صخب صراع الدول الطائفية ووسط أمة خاملة إلى أن ترجمها الأوربيون.

اختلف التاريخ عِنْدَ ابن خلدون عن سابقيه من مؤرخي الاسلام، لقد كان

---

15. يقول ابن خلدون«سلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا»من المقدمة.م.س ص5.

16. عبد الحليم عويس.التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، الطبعة الأولى، كتاب الأمة، قطر، 1996م، ص112.

الأقدمون ينظرون إلى التاريخ نظرتهم إلى ديوان أخبار ولم يعدوه علما له قواعده وأصوله وأسسه ومناهجه. لم يهتم فقط بنقل أحداث الماضي وتسجيلها، وإنما كان يسأل أيضا عن كيفية حدوثها وأسباب وقوعها، حاول استجلاء أهم العوامل والأسس التي تتقدم من خلالها الدول وكذلك العوامل والأسباب التي تؤذن بخراب عمرانها. اعتبره العديد من الباحثين بأنه من أوائل فلاسفة التاريخ لأنه ولأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني يبتدع ابن خلدون علم الاجتماع البشري والقوانين المنظمة للحياة وتطور المجتمع[17].

خصص ابن خلدون في مقدمته فصلا كاملا قدم فيه أمثلة لكثير من الأخطاء والأوهام التي وقع فيها عدد من مؤرخي الاسلام، اعتبر أن هذه الأصناف من الأكاذيب دخلت إلى التاريخ إما بسبب التشيع للآراء والمذاهب أو بسبب الثقة العمياء بالناقلين، أو بسبب الجهل بطبائع العمران. فكثير من فحول المؤرخين في الإسلام حسب ابن خلدون جمعوا أخبار الأيام و دونوها كما سمعوها دون أن يراعوا أسباب الوقائع ويتحققوا من صحتها[18]. يقول الطبري «إنما أدينا ذلك حسب ما أدي إلينا». فلئن كان فضل المؤرخين القدامى في أمانة النقل و غزارة المادة التي صنعوا منها كتبهم فإن ابن خلدون قد أضاف إلى ذلك فضلا آخر، لقد أجرى تحقيقات هامة على تراث أسلافه من المؤرخين كابن هشام و ابن إسحاق و الواقدي و البلاذري و ابن عبد الحكم و الطبري و المسعودي و ابن الأثير، استبعد بعضها على أنها محض اختلاق غير ممكن الحدوث بسبب طبائع الأشياء وقوانين العمران، وشك في صحة كثير منها على أنه موضع ريبة، وقد بنى هذه التحقيقات على ما قرره في مقدمته بصدد الإجتماع الإنساني و مناهج البحث وقواعد التحري التاريخي[19]، فالفيصل الذي يميز الوقائع التاريخية الصحيحة من الدعاوى الكاذبة مرتبطة بمدى معرفة طبائع أحوال العمران، لذلك رمى ابن خلدون في مقدمته من وراء دراسة الظواهر الاجتماعية الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها وما يعرض لها من أحوال، فاستنبط قانون «المطابقة للنواميس الاجتماعية»[20].

استنبط ابن خلدون في مقدمته قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية فوضع

17. حسن الساعاتي. علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج. بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، 1974 .ص53،54./ عبد العليم خضر. المسلمون وكتابة التاريخ.م.س ص146/ سفيتلانا .علم العمران.م.س.ص5.

18. عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، م.س ص4.

19. عبد الواحد وافي. عبقريات ابن خلدون . القاهرة 1973م، ص109/110.

20. محمد الطالبي. منهجية ابن خلدون التاريخية.م.س ص28.

بذلك علم العمران، وهو علم مستقل بذاته، كان أهم سبب دعاه إلى إنشاء هذا العلم الجديد حرصه على تخليص الكتب التاريخية من الأخبار المزيفة، و إصلاح و تقويم ما وقع فيها من أوهام و تحريف.

إن تطبيقه لقانون المطابقة جره إلى الكشف عن القوانين الاجتماعية لِيَجعَلَ منها بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق و الصواب فيما ينقلونه، فبخلاف أهل الحديث الذين يركزون جهودهم على النقد الذاتي أعطى ابن خلدون الأهمية للنقد الباطني، فإذا كانت الشريعة جملة إنشاء فإن التاريخ محض خبر يحتاج إلى معيار خاص ومنهجية أليقه به، و بسبب هذا رفض ابن خلدون رفضا قاطعا كل الروايات غير الموافقة لأحوال العمران. وقد أورد نماذج من تطبيقه لقانون العمران الذي ابتكره وذلك في مقدمة كتابه الأول الذي خص به علم التاريخ وتحقيق مذهبه[21]، ومن الأمثلة التي ساقها لأخبار مستحيلة الحدوث ما ورد في كتب المؤرخين السابقين. فعند المسعودي وغيره أن جيوش موسى عليه السلام قد بلغت ستة آلاف مقاتل، وهذا لا يثبت عنده أمام النقد الباطني لأسباب جغرافية واستراتيجية. يقول ابن خلدون «إن المبالغة في هذا الرقم واضحة جدا، وإن تحديد الجيش بهذا العدد أمر غير معقول، وإن القوانين التي يخضع لها تزايد السكان تحكم بعدم إمكان صحته، وذلك أن ما بين موسى ويعقوب عليه السلام هو أربعة آباء، فموسى هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب.. فيستحيل في أربعة أجيال أن يكون هذا العدد الضخم يتماشى مع منطق التزايد في النوع البشري»[22]. إن كلام ابن خلدون اعتمد المنطق العقلي. «فلو تمعن المسعودي وغيره من المؤرخين في هذا العصر وعرفوا أن فرعون مصر كان يضطهد بني إسرائيل بقتل أبنائهم، لعرفوا أنه يستحيل أن يصل هذا العدد إلى أكثر من ستة آلاف».

اعتبر ابن خلدون أيضا دخول افريقش المغرب خرافة، وغزوات التبابعة ملوك اليمن لبلاد المغرب من الأخبار الواهية فندها بأدلة عقلية وجغرافية وسياسية[23]، يقول ابن خلدون «ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة من أخبار التبابعة ملوك اليمن و جزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية و البربر من بلاد المغرب (و أنهم هم من سموهم البربر لرطانتهم)، و هذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم و الغلط، أشبه بحديث القصص الموضوعة، وذلك أن مُلوك

21. نفسه ص27/28/43.

22. عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة م.س.

23. محمد الطالبي. منهجية ابن خلدون التاريخية.م.س .ص43.

التبابعة إنما كان بجزيرة العرب و قرارهم و كراسيهم بصنعاء باليمن، وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها، بحر الهند من الجنوب، وبحر فارس الهابط من البصرة من المشرق، وبحر السويس(يقصد البحر الأحمر) الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مُصَوَّر الجغرافيا»[24]. لا شك أن هذه الرواية تحمل في طياتها ما يهدمها من أساسها، فاليمن بعيد عن المغرب ويستحيل في تلك الفترة و بالوسائل المتوفرة أن يقطع جيش تلك المسافة دون أن يهلك.

ومن الأخبار المستحيلة عند ابن خلدون ما نقله المسعودي أيضا عن تمثال الزرزور الذي تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم، أمثال ذلك كثير و تمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه و أوثقها في تمحيص الأخبار، و تمييز صدقها من كذبها[25].

ويضيف أمثلة كثيرة منها قصة مدينة ارم ذات العماد، يقول:«وأعرق في الوهم ما ورد في شأن إرم ذات العماد تلك المدينة المزعومة التي لم يقع لها أحد على أثر»، فقد تناقل المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى (إرم ذات العماد)، فيجعلون إرم اسما لمدينة وُصفت بأنها ذات أساطين. وقد رُوي أن شداد بن عاد مَلَك الدنيا ودَانت له مُلوكها، فسمع بذكر الجنة فقال سأبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحاري عدن في 300 سنة وكان عمره 900 سنة، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة و أساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف من الأشجار و الأنهار، ولِما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم و ليلة بعث الله عَلَيْهِمْ صيحة فماتوا، وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها، فَحمل ما قدر عليه، وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خالة يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر بن قلابة و قال هذا و الله ذاك الرجل. وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض »[26].

وبالإضافة إلى انتقاده للروايات التي تناقلتها كتب التاريخ دون تمحيص، ابتدع نظرية التعاقب الدوري للدول في تاريخ الفكر الإنساني من حيث بعدها الاجتماعي والفلسفي العام، وقد توصل إلى الاقتناع بفكرة التعاقب في الحضارة (الدولة عنده)

24. عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة. م.س ص11/12.

25. نفسه ص 38.

26. اعتبر ابن خلدون الحكايات بشأن مدينة إرم أقاصيص موضوعة وأكاذيب واهية مضحكة. فالعماد هي عماد الأخبية أي الخيام راجع للمزيد مقدمة ابن خلدون.

وقارن في دائرية التغيير بين الإنسان والمجتمع. فللمجتمع في نظره عمر يمر به كعمر المرء الذي يولد ثم يكتمل نموه ثم يهرم فيموت، و على هذا الأساس تمر الدولة بالمراحل التالية: بداوة، ازدهار ، تدهور[27].

إن الدولة كانت المحور الذي تدور حوله أبحاث ابن خلدون، قاسها قياسا تاما على عمر الفرد و مراحل تطوره، وجعل للدولة أعمارا كما للأشخاص، وهي النظرية التي تمثل جوهر فكره في الدورة العضوية للدولة. يقول في المقدمة إن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، ويرى أنها «لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته»[28].

إن حركة التاريخ عند ابن خلدون هي حركة انتقال مستمرة من البداوة إلى الحضارة على شكل دورة متجددة، و هذا الانتقال يتم عبر الدولة على مراحل خمسة. المرحلة الأولى تنشأ الدولة على أنقاض دولة سابقة لها. في المرحلة الثانية ينفرد صاحب السلطان بالحكم بعد أن يكون قد تخلص ممن اشتركوا معه في تأسيس الدولة (الثورة تقتل أصحابها)، وتتميز هذه الفترة بالبطش والجبروت. المرحلة الثالثة تسود في الدولة مظاهر البذخ و الطمأنينة، وتتحول نحو الراحة والدَّعة لتحصيل ثمرات الملك، و يتمتع الحاكم وحاشيته بملذات الدنيا مما تنزع إليه طباع البشر من تخليد الأثر و تحصيل المال و الإسراف في الشهوات. و في المرحلة الرابعة تتحول الراحة والطمأنينة إلى قناعة وسكون ومسالمة، يقتنع صاحب الدولة خلالها بما حقق سابقوه و ما أنجزوه من أعمال، فيتتبع آثارهم حذو النعل بالنعل. وتأتي المرحلة الخامسة التي يقابلها طور الاسراف والتبذير تتمة للمرحلة السابقة ونتيجة لها، حيث تفقد الدولة هيبتها فتتحلل وتزول لأن صاحب الدولة يتحول إلى مخرب لما كان سلفه يؤسسون، وهادما لما كانوا يبنون، و في هذا الطور تحصل في الدولة طبيعية الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تتخلص منه[29].

إذا كانت الدولة في فلسفة ابن خلدون تمر بأطوار خمسة، فإنها لا تعدو ثلاثة أجيال. جيل البداوة و جيل الحضارة و جيل الترف الذي تسقط في عهده الدولة.

---

27. محمد عابد الجابري. فكر ابن خلدون-العصبية والدولة- معالم نظرينة خلدونية في التاريخ الإسلامي. م.س ص209/ عبد المنعم نور. الحضارة و التحضر - دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري. القاهرة، 1978م، ص175.

28. استشهد ابن خلدون في مسألة الأجيال بنص قرآني. قال الله تعالى (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) سورة الأحقاف، الآية 16.

29. عن هذه الأطوار: تراجع مقدمة ابن خلدون. م.س صص45-43.

الجيل الأول: جيل البداوة المقتصر على الضروري من العيش[30]، يتميز السكان فيه بخشونة و شظف العيش و البسالة والافتراس و التماسك و الاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم، ولكن البدو سرعان ما يتطورون إذ يتحول حالهم من البداوة إلى الحضارة و العمران بفعل الحكم.

الجيل الثاني: جيل الحضارة المتفنن في الترف و الملذات وأحكام الصنائع المستعملة، المنهمك في بناء القصور والإستمتاع بأحوال الدنيا وإيثار الراحة على المتاعب، يقول ابن خلدون «إن من طبيعة الملك الدعة و السكون والترف الذي هو غاية الحضارة، وهو يزيد الدولة في بدايتها قوة، إذ تتباهى المجتمعات المتحضرة به ولكنه أيضا هو العلة الأساسية لبداية الانحلال في الدولة، وهو المؤذن بخراب العمران. فالحضارة تفسد طباع البداوة، إذ يتجه أصحاب الدولة إلى الإسراف في التنعم، ويزهدون في العمل ويركنون إلى الدعة والسكون، ويخلدون إلى الراحة والشراب، ويكثرون من النساء ومعاقرة الخمر، فتزول هيبة السلطة من النفوس وتكثر القلاقل و الفتن، وتظهر المعارضة ويتقوى الأعداء فيفلت زمام الأمور، وتبدأ الدولة في السقوط فتظهر جماعة أخرى من البدو تسعى إلى الملك والريادة فتحل محلهم».[31]

الجيل الثالث: جيل الترف الهادم للحضارة و المؤذن بنهايتها. فالحضارة غاية العمران و نهاية لعمره و مؤذنة بفساده[32]. تتجلى آثار الحضارة المفسدة للعمران في حياة البذخ و الترف «إذ سرعان ما ينسى الجيل الثالث عهد الخشونة والبداوة.. فيفقدون بذلك حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته، فتفسد أخلاقهم وطباعهم، فينقلب التناصر إلى تنافر، والتعاضد إلى تخاذل، والكفاح المشترك من أجل المصلحة المشتركة، إلى نزاع وصراع من أجل مكاسب شخصية ومصالح خاصة، فيظهر الظلم إلى جانب الترف، وهما مظهران من مظاهر خراب العمران وسقوط الدولة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة الإسراء الآية 16(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا.)»[33].

خلاصة القول إن الحضارة عند ابن خلدون طور طبيعي، فالتمدن غاية البداوة،

---

30. عبد الرحمان ابن خلدون. المرجع أعلاه. ص180/131.
31. نفسه ص177.
32. المرجع أعلاه، ص396.
33. المرجع نفسه. ص302.

ولكن البدو عندما يتطورون في أساليب العيش ويتقدمون في الصنائع فإنهم ينتهون إلى الفناء، لأن الحضارة تحمل في طياتها بذور الفساد، فتهرم الدولة وتسقط[34]، والهرم عند ابن خلدون مسألة طبيعية في الدولة فهو «من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواءها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي و الأمور الطبيعية لا تتبدل»[35].

2.2. باتِيستَا فِيكُو و العلم الجديد

ولد جيوفاني باتيستا فيكو Giovanni Battista Vico سنة 1688م في مدينة نابولي الإيطالية، مفكر، و مؤرخ، كان له فضل كبير على تطوير علم التاريخ في أوربا. لا تُذكر فلسفة التاريخ إلا و يذكر معها اسم فيكو الذي يمكن القول إن مكانته في الغرب تعادل مكانة ابن خلدون في التراث العربي الإسلامي. لقد ظل فيكو مغمورا في زمانه ومن بعد وفاته إلى أن اكتشفه العَالَمُ من جديد سنة 1822م، و ذلك عندما تُرجم كتابه العلم الجديد Scienza nuova إلى اللغة الألمانية. لقد اعتبر العديد من الباحثين أن دراسة التاريخ قد جابت أرضا جديدة مع باتيستا فيكو، فقد وصفه جول ميشيليه الذي ترجم كتابه سنة 1826م إلى اللغة الفرنسية بأنه «أبو فلسفة التاريخ» بشيء من الحماس بلا شك، غير أنه بحق مهد الطريق لذلك، فهو إذن يبرز كأحد مجددي علم التاريخ[36]، فبعد أن كان التاريخ يقتصر على ذكر الأحداث السياسية و المعارك الحربية وسير الأبطال العظام أصبح يهتم بمشكلة أصول تكوين المجتمع، بما يشمله من تنظيمات سياسية واقتصادية وقانونية وفنية، وإذا كان فولتير هو أول من استحدث اسم فلسفة التاريخ فإن فيكو هو أول من مارسها في كتاباته بأوربا دون أن يدرك التسمية الكامنة وراء هذه النوعية من الأبحاث.

كان فيكو يفرق بين التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي، اعتبر أن الأول يختص بتاريخ العبرانيين و المسيحيين، والثاني يختص بتاريخ الأمم المشتركة، وقد هيأ لهذا التاريخ الأخير الجزء الأكبر من مؤلفاته باعتباره تاريخ تكرار الأطوار نفسها[37].

اعتقد فيكو أن المجتمعات الإنسانية تمر بحلقات حضارية على شكل دورات

34. محمد عابد الجابري. العصبية والدولة .م.س ص357.

35. عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة. م.س ص310.

36. احمد محمود بدر. تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، عالم الفكر عدد29، الكويت، أبريل يونيو2001م، ص13/ جان جاك شوفالييه. تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1985م ص225./ البان ويدجيري. المذاهب الكبرى في التاريخ..م.س.ص191.

37. كريستوف بوميان. نظام الزمان.م.س ص99.

متسلسلة، قسم على إثر هذه النظرية التاريخ إلى ثلاث مراحل (مرحلة الهمجية، مرحلة البربرية، مرحلة الحضارة)[38]، هكذا التاريخ في رأي فيكو يدور في حلقة لولبية صاعدة ومتجددة على الدوام، تمر خلالها المجتمعات الإنسانية بمراحل معينة من التطور الذي ينتهي إلى الانحلال أو البربرية لتبدأ من جديد مراحل أخرى أعلى درجة مما سبقتها، لينتهي هذا التطور مرة أخرى إلى الانحلال، وبذلك تتشابك الحلقات التاريخية. التقدم ليس قانونا في الطبيعة التاريخية فما كسبه جيل يستطيع الجيل الذي يليه أن يفقده، و يستطيع فكر الناس أن يستن مناهج تقود إلى البلاء والبربرية، على هذا الأساس يرى فيكو أن المجتمع يمر بفترات متعاقبة من الازدهار الذي يعقبه الانتكاس وهكذا. تأثر فيكو بالمصريين كثيرا فقد تبنى تصورهم القائل بوجود ثلاث أزمنة للعالم، ويعتبرهم بذلك قد قدموا خدمة عظمى للتاريخ لأنهم يقسمون عهودهم إلى ثلاثة أطوار (طور الآلهة، طور الأبطال، طور البشر). وقد عمم فيكو هذه الأطوار الثلاثة على جميع الأمم في جميع العصور، فكل أمة تنتقل في تاريخها من طور الآلهة إلى طور الأبطال، فطور البشر، وعندما تبلغ غايتها من الطور الأخير تعود مرة أخرى إلى طور الآلهة، وتبدأ بذلك دورة جديدة على شاكلة هذه الدائرة الأزلية الأبدية في سير تذبذبي أو حلزوني[39]. طبق فيكو هذه الآراء وهذا التقسيم على تاريخ اليونان و الرومان و على تاريخ القرون الوسطى أيضا[40]. ونوضحه مختصرا كما يلي:

الطور الديني: و هي المرحلة الأولى، تسود فيها الخرافات والأوهام والخوف من الظواهر الطبيعية، و يسود الإيمان المطلق و القوي بتحكم قدرة الآلهة وتحكمها المطلق في المصائر البشرية، تكون طباع البشر و الشعوب خلال هذه الفترة فضة وغليظة.

الطور البطولي: تنتقل فيه السلطة من رجال الدين إلى رجال السياسة والحرب، ويظهر على أساسه نظام أرستقراطي يسود فيه السادة الأغنياء ويحتقر فيه العبيد والخدم. يتحكم هؤلاء الأرستقراطيون خلال هذه المرحلة بقوتهم وجبروتهم على الفئات الشعبية المهضومة الحقوق، يشكلون طبقة متميزة الحقوق والامتيازات داخل الدولة.

الطور البشري: يبدأ هذا العصر بوعي الناس بمفهوم المساواة في الحقوق والواجبات، خلال هذه الفترة يحصل الإنسان على حقوقه الكاملة كمواطن حر في

38.عبد الحليم عويس. التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، الطبعة الأولى، قطر، 1996، ص110.

39.عفت الشرقاوي. في فلسفة الحضارة الإسلامية.م.س.ص188.

40. عبد المنعم نور. الحضارة و التحضر- دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري، القاهرة، بدون طبعة، ص62.

بلد تعمه الديمقراطية وتنتشر فيه قيم المساواة و العدالة بين الناس، تسقط خلال هذا العصر الديكتاتورية و النظم الاستبدادية الظالمة و تحل محلها الأنظمة الديمقراطية. هذا العصر كما يراه فيكو يتضمن بذور انهياره وفنائه، إذ أن الديمقراطية وإعلان المساواة بين أفراد الدولة لا تلبث أن تغري العامة بالتطرف في المطالبة بالحقوق و التمادي في ذلك إلى أبعد الحدود، وذلك يزيد من حدة الصراعات والمنافسة بين طبقات المجتمع بدلا من أن يخفف منها، فينشأ عن ذلك ضعف الروابط التقليدية بين الطبقات وتكثر الفوضى والمشاكل وتزداد الفتن والتوترات ويسري الاحتقان، فيحصل الانحلال والفساد الذي يؤذن بانتهاء الدورة الحضارية كلها، فإذا وصل المجتمع إلى مثل هذه الحالة من التدهور تعذر الإصلاح الداخلي، فلا يبقى إلا غزو من الخارج وانحلال من الداخل يعود بعده المجتمع إلى بربرية عامة لتبدأ دورة حضارية جديدة أعلى من سابقتها متدرجة من العصر الآلهة إلي عصر الأبطال إلى عصر الإنسان، وهكذا دواليك، تمضي الحياة الإنسانية في دورة دائمة، و لقد مرت جميع الشعوب القديمة بمراحل هذا التطور حسب فيكو، وهذه الصفة الدورية للتاريخ تحدثها الطبيعة الملازمة للإنسان.

إن فيكو يعتبر كل دورة يعقبها بالضرورة سقوط جديد في البربرية و بداية لدورة جديدة[41]، فبعد الملكية البدائية تأتي الجمهورية الأرستقراطية أولا ثم الديمقراطية وتليها الإمبراطورية وأخيرا الانحطاط. إن العودة إلى الهمجية أو البربرية أمر غير مستبعد الوقوع عنده، إذ يمكن أن يحدث إما لأسباب خارجية أو إثر صدمات داخلية عنيفة.

طبق فيكو هذه الآراء على تاريخ أوربا من فترة اليونان إلى فترة القرن السابع عشر معتبرا أن دور الأبطال لم يستمر طويلا لدى الإغريق، فظهور الفلاسفة عجل انتقالهم السريع إلى الطور البشري، أما في مسألة النكوص فقد اعتبر فترة القرون الوسطى التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بأوربا عصرا جديدا للأبطال، بربرية ثانية بظلامها ووحشيتها وتقوقعها[42].

2.3 فريديريك هيغل ومحاضراته في فلسفة التاريخ

41. بخصوص هذه التقسيمات الثلاث للتاريخ عند فيكو بالتفصيل يراجع: ماكس هوركهايمر .بدايات فلسفة التاريخ. ترجمة محمد علي يوسف. الطبعة الأولى، 1971م، بيروت. ص92/ عفت الشرقاوي . في فلسفة الحضارة ..م.س ص190. البان ويدجري . المذاهب الكبرى...م.س ص194/195.

42. محمد الشرقاوي. التفسير الديني للتاريخ الجزء الأول. كتاب التراث والعلوم الإنسانية لكل الشعب، بدون، ص42.

جورج فريدريك هيغل (1770م-1831م) درس التاريخ و اللغة. تأثر بأفكار باروخ سبينوزا و ايمانويل كانط وجان جاك روسو. عُرفَ بالراديكالية في مواقفه السياسية. عارض النظام الإقطاعي للملكية ببروسيا. ألفَ كتبا عديدة أشهرها محاضرات في فلسفة التاريخ. أسس للمثالية كمدرسة مهمة في تفسير التاريخ العالمي[43].

يعد هيغل من أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، أثرت أفكاره في العديد من الفلاسفة من بعده. هذا الفيلسوف الألماني الكبير هو الذي بلور الديالكتيك في معارف أساسية وقال عنه كارل ماركس: «إنه بالذات أول من قدم تصورا واعيا شاملا للأشكال العامة للحركة في الديالكتيك»[44].

الديالكتيك كلمة مشتقة من لفظة يونانية تعني التقاء الناس للمحاورة و المناقشة، و لما كانت الغاية من الحوار هي الإقناع و لا إقناع بدون برهان اعتبر الديالكتيك فن البرهان. إن المناقشة التي قد تتم بين شخصين يبحثان عن الحقيقية في موضوع معين تظهر وجهات نظر معينة، غير أن كل واحد من المتحاورين يحاول تدريجيا أن يفهم رأي زميله ثم ينتهي الإثنان إلى الإتفاق على نبذ أفكارهما الجزئية و قبول نظرة جديدة أوسع و أرحب، وهكذا ينتهي التعارض الأول إلى التوفيق في مركب أعلى[45].

ظهرت معالم التفكير الديالكتيكي في الفلسفة اليونانية القديمة عند هيراقليطيس، إلا أن الديالكتيك كمنهج فلسفي لدراسة الظواهر عامة بدأ مع جورج هيغل(1770-1807م) الذي لم ينفي تأثر منهجه بفلسفة هيراقليطيس، ذلك ما يعترف به صراحة بقوله «لا تجد عبارة قالها هيراقليطيس إلا و احتضنتها في منطقي». و لعل هذا ما جعل ويل ديورانت يؤكد أن «هيراقليطيس هو هيغل اليونان»[46]. إن كان الجدل أو الديالكتيك كما سبق طريقة خاصة في البحث وأسلوبا في المناظرة، فقد حوله هيغل إلى شيء جديد، إذ أصبح طريقة لتفسير المجتمع والتاريخ و الدولة ، فالتناقض ليس بين الآراء فقط بل هو ثابت في صميم كل واقع و حقيقة.

يعتبر هيغل أن الفكر يتطور من قضية إلى نقيضها إلى قضية تركيبية من النقيضين لكنها مخالفة لهما، وهكذا تستمر الحال حتى تصل الفكرة إلى المطلق الذي يخلو من

---

43. تعود الجذور الأولى للمثالية إلى الفيلسوف اليوناني أفلاطون، لكن شروطها كحقل معرفي متميز قد توفرت مع اكتمال الفلسفة الغربية التقليدية مع نسق هيغل ومثاليته المطلقة.

44. نقلا عن عزيز السيد جاسم .ديالكتيك العلاقة المعقدة بين المثالية والمادية، بيروت، 1982م ص48.

45.عبد الفتاح إمام. المنهج الجدلي عند هيغل. مكتبة مدبولي، القاهرة 1996. ص44.

46.نفسه ص 44.

الصراع والتناقض[47]. لقد اعتقد هيغل أن الفكر يسير دائما على هذا المنوال فهو يبدأ بقضية موجبة يعارضها في الحال نقيضها ثم تظهر فكرة أوسع تجمع بينهما في مُرَكّب واحد، غير أن هذا المركب يثير بدوره نقيضا جديدا. و من الأمثلة التي يضربها هيغل لتوضيح فكرته اعتباره عهود السلطة المطلقة (فكرة) يعقبها عهود فوضى (نقيض) ومن الفكرة إلى النقيض يأتي عهد دستوري[48].

بالتحام الديالكتيك بالمثالية التي تعطي الأولوية للفكر أصبح هيغل الركن الأساس في فلسفة التاريخ، هذه الفلسفة التي عكف على دراستها العديد من الباحثين اختلفوا في تقديرهم لها اختلافا واسعا، حتى أن واحدا منهم وهو وليم ولاس شبه اختلافهم فيها باختلاف المفسرين في شرح الكتاب المقدس، فهذه الفلسفة هي التي أثرت في البرجماتية و الوضعية و الواقعية الجديدة و المثالية و المادية معا.

اهتم هيغل في أبحاثه بالتاريخ فهو عنده تعريفا «الحياة في امتدادها الزمني على الأرض»[49]، لكنه لا يبدأ إلا مع ظهور الوعي، وبالتالي فالمجتمعات الأولى التي كانت تعتمد على الأساطير ليست جزءا من تاريخ الإنسان[50]. فحص هيغل المناهج التاريخية المختلفة وحصرها في ثلاثة أشكال: التاريخ الأصلي و التاريخ النظري والتاريخ الفلسفي.

التاريخ الأصلي: والمقصود بالتاريخ الأصلي ذلك التاريخ الذي يكتبه المؤرخ وهو يعيش الأحداث، ويضرب هيغل أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة التاريخية منها عند اليونان مثلا هيرودوت وتوكيدار واكسنفون فهم جميعا عاشوا الأحداث التي كتبوها.

التاريخ النظري: السمة الأساسية التي تميزه أن المؤرخ لا يعيش الأحداث التي يرويها، وإنما هو يجاوز العصر الذي يعيش فيه إلى عصر آخر، فهو يروي أحداثا لم يشهدها ووقائع لم يعشها أصلا ، فيقوم بجمع المادة التاريخية وتصنيفها، وتبدو في هذا النوع طريقة المؤرخ وأسلوبه في عرض الوقائع.

التاريخ الفلسفي: ويقصد به هيغل دراسة التاريخ من خلال الفكر، لأن التاريخ هو تاريخ الإنسان والفكر جوهري بالنسبة إليه، فهو الخاصية التي تميزه عن الحيوان، ثم يعلن عن الشرط الأول الذي يجب مراعاته في فلسفة التاريخ وهو: أن نتبنى بأمانة

47. محمد فتحي عثمان. المذهب المادي في التفسير. الطبعة الأولى، بدون. ص15

48. السامرائي. «نهاية التاريخ من هيغل إلى فوكوياما». م.س. ص 108.

49. فريديريك هيغل. محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول، م.س. ص39

50. فريديريك هيغل. المرجع أعلاه، ص35.

كل ما هو تاريخي، يعني أن لا نقحم أفكارا واختراعات ذاتية في أحداث التاريخ كما فعل اليهود مع أنفسهم بادعائهم أنهم شعب الله المختار، تعلموا من الله مباشرة ومنحهم الله معرفة تامة بجميع القوانين الطبيعية وبالحقيقة الروحية، بل يتمادون فيزعمون أن الله تحدث إلى آدم بالعبرية لكي تصبح لغتهم بدورها لغة الله المختارة. ومن الروايات الخرافية أيضا ما كان يزعمه اليونان القدماء من أن الآلهة أثينا هي التي شيدت مدينتهم، فهذه الروايات والأقاصيص الخرافية في نظره يخترعها المؤرخون ويقحمونها في أحداث التاريخ [51].

من خلال هذا التمييز الدقيق بين أنواع الكتابة التاريخية، اقتحم هذا الفيلسوف بدوره مجال فلسفة التاريخ، إذ دافع في كتبه على فكرة أن الأحداث التاريخية تكمن وراءها إرادة مخططة، ومن ثم فهي ليست وليدة الصدفة. فالثورة الفرنسية الكبرى التي قامت سنة 1789م إنما قامت متأثرة بأفكار و آراء المفكرين الفرنسيين الذين يمثلون عصر التنوير العقلي أمثال فولتير ومونتسكيو وديدرو وجون جاك روسو.

إن العقل عند هيغل يحتل مكانة كبيرة، فهو يحكم التاريخ عن طريق الفكر، فتاريخ العالم في نظره مسارٌ تكافح فيه الروح لكي تصل إلى وعي بذاتها، أي لكي تكون حرة[52]، فيكون مضمون الفلسفة الهيغيلية أن التاريخ تجل وتجسد للفكر، وأن الأفكار هي العامل الحاسم في توجيه التاريخ وتسييره ودفعه إلى الإمام، وبالتالي فالفكر هو التاريخ، والتاريخ هو الفكر مجسدا في الإنسان، ولهذا فمن الطبيعي أن تكون نهاية التاريخ هي نهاية الفكر، ونهاية الفكر هي نهاية التاريخ[53].

ولما كان الإنسان كائنا عاقلا مفكرا يكتسب مع الزمن معارف ومهارات مختلفة يسعى لتحقيق الاستقلالية والحرية، اعتبر هيغل صيرورة الزمن تتجه من الأدنى إلى الأفضل، واعتبر تاريخ العالم ما هو إلا تقدم نحو الشعور بالحرية، ذلك أن الإنسان بممارسته للحرية، كحرية الاختيار، يشعر بوجوده الروحي، ولذلك ربط هيغل بين الحرية والعقل برباط وثيق حيث اعتبر الجرية ماهية العقل، وأصر أن ما يحدث من تغير في العالم المادي الحقيقي إنما هو مجرد انعكاس لاإرادي لتقدم وتطور روح العالم، ويرى أن كل عهد يأتي يكون أرقى من العصر الذي سبقه، وأن بروز المجتمع الحر هو نهاية التاريخ.

يتضح من خلال القراءة المتأنية لنظرة هيغل التاريخية، أنه كان من أوائل من

51. للمزيد راجع : فريديريك هيغل. محاضرات في فلسفة التاريخ. م.س. ص35.

52. فريديريك هيغل، المرجع أعلاه ص43.

53. محمد كامل الخطيب. المجتمع المدني والعلمنة. الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1994 ص34.

تصوروا أن للتاريخ نهاية يقف عندها، فتكون فكرة نهاية التاريخ لفُوكُويَامَا فكرة قديمة عادت في حلة جديدة، فإذا كان فوكوياما يتصور أن آخر مرحلة إنسانية يقف عندها العالم هي مرحلة الرأسمالية والديموقراطية الحالية، فإن هيغل تصور نهاية معينة شبيهة للعالم قبله، لذلك فالحديث عن نهاية التاريخ ليس فكرة آنية، بل هو شيء يتجدد بين وقت وآخر عند كل مفصل أو منعطف تاريخي، فقد سبق لهيغل أن أوقف التاريخ عند تشييد الدولة البروسية في ألمانيا، فالصعود والانحدار المكون لحركة التاريخ الصاعدة من أمة إلى أمة تقف في نظره عند الدولة البروسية لأنها القمة، فهي تجسيد للمطلق ولروح الحرية و الألوهية. وبذلك مجد هيغل القومية الألمانية ورسالة الشعب الألماني تجاه العالم، فكانت فلسفته أوضح تعبير أيديولوجي عن البرجوازية الألمانية[54]. والواقع أن الظروف التي عاشها ألمانيا أثرت في عواطف هيغل حيث كان يرى وطنه مشتتا وموزعا بين الإقطاعيين ومهددا من القوى الخارجية، لكن افكاره أثرت مستقبلا في بعض المتطرفين الذين نادوا بتفوق العنصر الألماني على باقي العناصر الأخرى ودعوا إلى التوسع الإقليمي[55]، لذلك يؤخذ على هيغل تمجيده للحضارة الجرمانية وكانت دعوته تلك هي البداية الأولى للشعور الألماني بالتعالي والتفوق والعنصرية التي جلبت الكوارث فيما بعد على الألمان والبشرية جمعاء[56].

لقد كان تمجيد هيغل للحضارة الجرمانية البداية الأولى للشعور الألماني بالتعالي والتفوق على الأجناس الأخرى، هذه الفكرة التي سيطورها أدولف هتلر (1945-1889) القائد الألماني وزعيم الحزب الاشتراكي الوطني الذي اشتهر بالحزب النازي في كتابه كفاحي وهي تقوم على فكرة ساذجة في الأصل، فكرة تفوق الجنس الآري الجرماني على باقي الأجناس التي أنجبتها الطبيعة، وقد أدت هذه الأفكار العدوانية الرهيبة فيما بعد إلى حد إلغاء حق الشعوب الأخرى في الوجود عبر تصفيتها ومحاولة إفنائها، وقد كانت عمليات الموت الجماعي التي قتل فيها عدد كبير من اليهود والسلاف أثناء الحرب العالمية الثانية تجسيدا لهذا التمييز القائم على العرق، فقد قامت النازية وكل فكرة عنصرية مشابهة على أن البشر لم يُخلقوا من نفس واحدة، بل خُلق قسم منهم وضيعا منحطا والآخر نقيا متفوقا بطبيعته البيولوجية، وهذه النظرية العنصرية ظهرت في أوروبا وانتشرت بشكل فظيع، ودافع عنها الكثيرون، وهي نظرة أيديولوجية

54. ماكس هوركهايمر .بدايات فلسفة التاريخ.م.س ص34.

55. فاروق سعد. التراث السياسي قبل الأمير وبعده م.س. ص282/283.

56. محمد البوزيدي . الديالكتيكية المثالية .مكانة كتابة التاريخ في العالم .جريدة الشعبية، عدد32،ص5.

بحتة تنطلق من فكرة (مركزية الحضارة الأوربية) فمسيرة الإنسانية تبدأ فقط من الخط اليوناني فالروماني فالأوروبي الحديث والمعاصر، ومازالت أغلب الدراسات الأوربية التقليدية إلى الآن تبدأ قصة الحضارة من الإغريق.

نخلص إلى القول إن هناك العديد من المؤرخين والمفكرين الغربيين الذين ادعوا تأثير جنس بشري له خصائص معينة في صناعة التاريخ، إذ لم يتردد البعض في الزعم بأن الجنس الأوروبي هو أفضل الأجناس على الإطلاق، وأن باقي الأجناس الأخرى أقل قدرة منه، فقد كتب الفرنسي جوزيف آرثر جوبينو قائلا «إن التفاوت العنصري كاف لتفسير مصائر الشعوب حيث تستطيع الأجناس الراقية إحراز التقدم في الوقت التي تظل فيه أجناس أخرى كالهنود الحمر الأمريكيين مثلا محكومة اجتماعيا وثقافيا بميراثها العنصري». ونجد نظرة أخرى أكثر تطرفا وهي تعبير آخر على وجه العنصرية المتأصلة لدى بعض الأوروبيين حيث كتب رينان ما يلي: «جنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأوروبي، فإذا نزلت بهذا الجنس النبيل إلى مستوى الحظائر التي يعمل بها الصينيون والزنوج فإنه يثور، إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح من جنس آخر»[57].

هذه النظريات التي تفسر التاريخ استنادا إلى العرق ليس لها أي أساس من الناحية الانتروبولوجية، فليس هناك أجناس راقية وأجناس غير راقية، كما ليس لها أي صحة من الناحية العلمية، وقد انتقدها الباحثون والعلماء والمؤرخون في العصر الحديث واعتبروها نظرية عنصرية مغلوطة، فالمدنية لا تتوقف على جنس دون آخر فقد تظهر في هذه القارة أو تلك وقد تنشأ في هذا اللون من البشرة أو ذاك[58].فغير الآريين من الساميين وغيرهم من الشعوب الأخرى أنشئوا حضارات متعددة، مثل الحضارة السومرية والبابلية والحضارة المصرية الفرعونية والحضارة الهندية وغيرها.

إن تفسير التاريخ استنادا إلى معيار العرق، وتقسيم الأمم إلى شعوب بدائية متوحشة و أخرى متقدمة متحضرة أملتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها أوربا خلال القرن التاسع عشر ، فقد كانت نتائج الثورة الصناعية سببا رئيسيا في انتشارها، إذ أن رغبة الأوربيين في البحث عن الأسواق الخارجية لتصريف فائض الإنتاج وفائض السكان وجلب المواد الأولية كانت إحدى أهم المحفزات الرئيسية للبحث عن تبريرات منطقية تساعدهم على استعمار الشعوب غير الأوربية

57. نقلا عن توفيق الطويل. الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية-دراسة مقارنة-. مكتبة التراث الإسلامي ،ص18.

58. ويل ديورانت. قصة الحضارة،م.س. الجزء الأول ص6.

والتغلغل فيها، من قبيل الترويج لمقولات رنانة كادعاء نشر الحضارة ونقل المعرفة، وحمل رسالة الرجل الأبيض المتنور إلى الرجل المتخلف، وقد شجعت الحكومات وبعض المؤسسات والشخصيات مثل هذه الأطروحات. وكلها في الأصل مبررات واهية وشعارات كان الغرض الحقيقي من ورائها إخفاء الدوافع الخفية التي كانت وراء ظهور الحركة الامبريالية الاستعمارية.

4.2. كارل ماركس من المثالية إلى المادية التاريخية

فيلسوف ألماني عاش بين سنتي (1818م- 1883م)، منظر الطبقة العاملة. دافع عن الاشتراكية وانتقد بشدة النظام الرأسمالي الأوربي. يعتبر إلى جانب رفيقه فريديريك إنجلز من أكبر المنظرين للفكر الشيوعي. ارتبطت المادية الديالكتيكية به إلى درجة كبيرة. تعتمد نظريته في تفسير التاريخ على منهج هيغل القائم على الجدل مع تغيير جوهري في المضمون، فقد اعتبر كل من كارل ماركس وانجلز جدل هيغل واقفا على رأسه بدلا من قدميه لنزعته المثالية، و قد ألبسا هذا الجدل ثوبا ماديا صرفا ثم طبقاه على الظواهر الإنسانية والطبيعية. قال كارل ماركس في رسالته الموجهة إلى صديقه كوجلمان «إن قوانين الجدل الصحيحة موجودة فعلا عند هيغل لكنها في صورة مثالية، ولابد أن ننزع عنها هذه الصورة»[59]. لقد استفاد كارل ماركس كثيرا من الجدل الهيغيلي لذلك نجد انجلز يقول «لولا هيغل لما كانت هناك اشتراكية علمية»، وقد اعترف ماركس نفسه بفضل هيغل عليه إذ صرح في كتابه رأس المال قائلا «إنني لست سوى تلميذ لهذا المفكر العملاق -يقصد هيغل-» وهذا ما جعل ويل ديورانت يقول «لقد فقس هيغل بيضة الاشتراكية».

لقد قرأ هذا الفيلسوف جدلية هيغل فأعجب بها، لكنه وجدها مثالية تتحدث عن صراع الأفكار فأخذ الفكرة وغير ميدان الصراع قائلا إنه بين طبقات المجتمع[60]. فلئن عارضت الماركسية فريديريك هيغل في المذهب المثالي فإنها تبنت منهجه الجدلي في تأسيس المذهب المادي، و أقامت منهجه على قدميه بعد أن كان واقفا على رأسه كما صرح بذلك مؤسسا النظرية. فقد قال ماركس في المقدمة الثانية من كتابه الشهير رأس المال «إن طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيغيلية من حيث الأساس فحسب بل هي ضدها تماما»[61]. لقد اعتبر كارل ماركس «أن

59. عزيز السيد جاسم . ديالكتيكية العلاقة المعقدة بين المثالية والمادية. م.س ص30.
60. السامراني. نهاية التاريخ من هيغل الى فوكوياما. مقال سابق.
61. كارل ماركس. الرأسمال-نقد الاقتصاد السياسي- الجزء الأول، ترجمة محمد عيتاني، بيروت ص22.

الديالكتيك عند هيغل يسير على رأسه ويكفي إعادته على قدميه لكي نرى له هيأة معقولة»[62]. فماركس حسب انجلز جرد الطريقة الديالكتيكية من زينتها المثالية كناية عن نقل الفلسفة من مثالية إلى مادية ومن صراع الأفكار إلى الصراع بين الطبقات. فإذا كان هيغل قد أصر على أن كل ما يحصل من تغيير في العالم المادي الحقيقي إنما هو انعكاس لا إرادي لتقدم وتطور روح العالم، نجد ماركس يبين أن المثل الأعلى أي: الأفكار عند بني الإنسان، إنما هي نتاج البيئة الاقتصادية المادية، فبعكس هيغل الذي يعتقد أن حركة التاريخ التي يجسدها باسم الفكرة هي مبدعة الواقع ماركس على النقيض منه يرى أن حركة التاريخ ليست سوى انعكاس لحركة الواقع[63].

بذلك تكون الماركسية قد عبرت جسر الهيغيلية وفلسفتها في المعرفة وتفسير التاريخ، إذ أعلنت أن صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كما ادعى هيغل وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الاقتصادي للمجتمع من تغيرات[64].

نخلص إلى أن الماركسية أخذت الديالكتيك أو الجدل الهيغيلي (تطور الفكر من قضية إلى نقيضها إلى قضية تركيبية من النقيضين لكنها مخالفة لهما) ونقلته من مجال الفكر إلى مجال المادة التي أضحت الأساس، قال انجلز «إن العالم المادي الذي نحن ندركه بحواسنا والذي نحن جزء منه هو الحقيقة الوحيدة، وليس المادة من إنتاج العقل بل إن العقل ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة»[65].

يعود الفكر المادي التاريخي إلى فلسفة كارل ماركس التي أسس عليها حتمياته المعروفة في التغيير الاجتماعي والاقتصادي، وهي فلسفة حاولت أن تبرهن على فساد النظام الرأسمالي، وبشرت بسقوطه وحتمية انهياره وتنبأت بالشيوعية في مجتمع الإنسانية المقبل بلا طبقات والذي تتحقق فيه المساواة الاجتماعية. تَعتبر المادية التاريخية تاريخ الإنسانية صراع بين طبقات متعارضة المصالح، ووسائل الإنتاج كانت الحكم الفصل الذي كان يقرر مصير هذه المجتمعات، فالإنتاج وما يصحبه من تبادلات هو أساس كل نظام اجتماعي واقتصادي وفي كل مجتمع ظهر في التاريخ نجد أن توزيع المنتجات وما يلزمه من تقسيم المجتمع إلى طبقات يخضع لأساليب الإنتاج وطريقة وكيفية تبادله، حسب هذه النظرية الأسباب النهائية لكافة التغيرات

62. كارل ماركس. المصدر أعلاه ص22/23.

63. فاروق سعد. الفكر السياسي قبل و بعد الأمير .م.س. ص299.

64. عماد الدين خليل .التفسير الإسلامي للتاريخ. الطبعة الثانية لبنان ص42.

65. نقلا عن عبد المنعم خفاجي.الإسلام و الحضارة الإنسانية. لبنان،،1982، ص20.

الاجتماعية والثورات السياسية والاجتماعية يجب البحث عنها في التغيرات التي تطرأ على أساليب الإنتاج وقوى الإنتاج.

تجعل المادية التاريخية أسلوب إنتاج الحاجات المادية أساسا للتطور وتجعل صراع الطبقات سبيل هذا التطور، فالمجتمع البشري مجتمع متطور، والعامل المسير المحتم لهذا التطور هو التغيير الذي يحدث في وسائل الإنتاج والذي يعين نوع العلاقات الاقتصادية في كل مرحلة من هذه المراحل، وهذه العلاقات الاقتصادية تحتم بدورها نوعا من الأوضاع الاجتماعية[66] .

يُقيمُ المؤرخون الماركسيون تفسيراتهم على العامل الاقتصادي، فالوضع الاقتصادي لشعب ما هو الذي يحدد وضعه السياسي، بمعنى أن الاقتصاد السياسي الأكثر إنتاجية في وقت معين ينتصر على باقي الأنماط الأخرى لتنظيم الإنتاج، وهذا التفوق التقني أو الإنتاجي يتغير عبر مرور الزمن، فالمادية التاريخية إذن تقرر أن أسلوب إنتاج الحاجات المادية كالغذاء والمسكن وأدوات الإنتاج هي القوة الأساسية التي تقرر تطور المجتمع من نظام إلى آخر وتحدد شكل طبقاته الاجتماعية، و يقصد بأسلوب الإنتاج مجموع القوى المنتجة وهي أدوات الإنتاج والعلاقات الإنتاجية القائمة بين الأفراد فيما بينهم أثناء سير عملية الإنتاج.

التاريخ البشري عند الفيلسوف كارل ماركس ليس في النهاية سوى صراع طبقات تفوز فيه الطبقة التي تنسجم مع تطور وسائل الإنتاج والعلاقات الاقتصادية الناشئة عنها، ويظل هذا الصراع قائما إلى أن تنتصر طبقة العمال فَتُلْغَى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ويتساوى الناس مساواة اقتصادية حقيقية ،ويصبحون بذلك كلهم طبقة واحدة تمتلك بشكل جماعي وسائل الإنتاج.

لقد استخدم كارل ماركس التصور العام لمبدأ النقيض للتدليل على وقوع انهيار الجماعات التي قامت على الرأسمالية، فالجماعات السابقة عليها وهي الملكيات المطلقة والوراثيات والطبقية والإقطاعية الزراعية انهارت لأنها تضمنت عنصر النقيض، وعلى هذا الأساس ستنهار الرأسمالية وتتحول إلى النقيض وهي الاشتراكية ذات الطبقة الواحدة[67].

بتطبيق هذا النموذج نرى أن التاريخ عند ماركس مر بعدة تطورات ومراحل ابتدءا من الشيوعية البدائية إلى نظام الطبقات حيث انقسم المجتمع إلى سادة وعبيد في العصور القديمة، وإلى سادة إقطاعيين وأقنان في العصر الإقطاعي، ورأسماليين

66. قسطنطين زريق.نحن والتاريخ. الطبعة الثالثة، بيروت، 1974، ص39.

67. البوزيدي.مكانة كتابة التاريخ في العالم. ـ المادية التاريخية. . م.س.ص5.

وعمال أجراء في العصر الحديث، وهذا التطور يتجه بفعل القوانين التي تتحكم فيه إلى نظام جديد تزول فيه المصالح الاقتصادية المتضاربة.

لقد مر التاريخ الأوربي بأربعة مراحل أساسية، ومازالت أمامه المرحلة الأخيرة.

المرحلة الأولى: هي مرحلة المشاعية البدائية، حيث كان كل ما على الأرض ملكا لكل من عليها، لذلك لم ينشب الصراع لعدم وجود الملكية الخاصة. والمرحلة الثانية: هي مرحلة الرق والعبودية، فبعد أن اخترع الإنسان بعض الأدوات واكتشف الزراعة انتقل من الشيوعية الأولى إلى عهد الرق، حيث انقسم البشر إلى أحرار وأقنان، واشتعل الصراع بينهما، ثم بفعل تطور جديد في وسائل الإنتاج تحول إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة الإقطاع التي تميزت بمعرفة الإنسان للزراعة والتوسع فيها، فانقسم المجتمع إلى رجال إقطاع وعبيد الأرض، فالإقطاعي يملك الأرض ومن عليها من إنسان وحيوان ونبات، فإذا باع أرضه تبعها كل من عليها فكان الصراع محتدا بين السادة والفلاحين الأقنان، ثم بفعل اكتشاف وسائل إنتاج جديدة تحولت المجتمعات من الزراعة إلى الصناعة فدخلت بذلك المرحلة الرابعة وهي مرحلة الرأسمالية، التي انقسم فيها المجتمع إلى قلة من الرأسماليين يمتلكون الأموال ووسائل الإنتاج من معامل وغيرها وعمال وهم كثرة لا يملكون إلا قوة سواعدهم.

يرى ماركس أن الصراع سيحتدم بين الفريقين مستقبلا وسينتهي بانتصار الطبقة العاملة، وعندها سينتقل المجتمع إلى المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الشيوعية القائمة على الاشتراكية والملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وهنا سيتوقف الصراع الطبقي لانعدام الملكية الخاصة.

لقد قصد ماركس بالشيوعية أن تكون هناك حياة بلا تمايز، ففي كتابه **الأيديولوجية الألمانية** عبر عن رؤيته للمجتمع الشيوعي على أنه مجتمع لا يستحوذ فيه أحد على مجال النشاط الاقتصادي، في رؤيته هذه يتسم المجتمع الشيوعي لا بغياب السلطة المتجبرة فقط، ولكن أيضا كما تشير كلمة شيوعي إلى الإحساس المشترك والقوي بالمساواة..

لقد تنبأت الماركسية كفلسفة تاريخية بنهاية الرأسمالية التي ستتحول بفعل الثورة إلى النقيض وهي الاشتراكية ذات الطبقة الواحدة حيث ستسود المشاعية كصيغة للتنظيم الاجتماعي في المستقبل كما سادت في الماضي السحيق، وستتلاشى الدولة أداة السيطرة والقهر. غير أن التطور الذي عرفته المجتمعات الأوربية أدى إلى تقوية النظام الرأسمالي أكثر مما سبق، فالطبقة العاملة الأوربية أصبحت إحدى أهم ركائز هذا النظام وجزءا لا يتجزأ منه، فبعد وفاة الفيلسوف الألماني كارل ماركس

عرفت الرأسمالية ازدهارا أكبر، فقد اتسعت المبادئ الحقوقية وتغيرت طبيعة التركيبة الطبقية للمجتمع الأوروبي. تحسنت أحوال الطبقة البروليتارية و أوضاعها بشكل سريع نحو الأفضل، وأصبحت تتمتع بكثير من الحقوق والامتيازات، فقد اختفت تدريجيا ساعات العمل الطويلة وارتفعت الأجور، وتحسنت الأحوال التأمينية والأوضاع الصحية والاجتماعية بشكل عام، واختفت بذلك التناقضات الطبقية والتوترات الاجتماعية التي برزت بشكل أكبر خلال القرن التاسع عشر، لكن هذا لا يعني أن النظام الرأسمالي مستقر تماما، فهو يعاني بين الفينة والأخرى من أزمات مالية واقتصادية دورية متفاوتة الشدة، مما يجعل سؤال مستقبل الرأسمالية وآفاقها مفتوحا على احتمالات متعددة[68]. و في هذا الصدد نشير إلى عودة اهتمام الكتابات الاقتصادية من جديد بموضوع الرأسمالية و خصوصا بعد الأزمة المالية التي عرفها العالم الرأسمالي بداية من عام 2008م والتي ما تزال تعاني من نتائجها إلى اليوم العديد من الدول الأوربية وبالخصوص الدول الأقل نموا، فقد تناول على سبيل المثال الاقتصادي الألماني أولريش شيفر موضوع انهيار الرأسمالية من زاوية الخوف على مصير ومستقبل الرأسمالية التي اعتبرها قاب قوسين من الهاوية. فلكي تتجنب الرأسمالية الانهيار في نظر المؤلف عليها أن تنجح في تجديد نفسها من الجذور[69].

ظاهرة أخرى طفت مؤخرا إلى السطح لها علاقة بموضوع الرأسمالية أيضا، تتجلى في عودة كتب كارل ماركس من جديد إلى اكتساح متاجر الكتب وخصوصا كتابه رأس المال. صحيح أنه لم يتصدر قائمة المبيعات في سوق الكتب العالمية لكنه عاد بقوة إلى الواجهة عقب الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت الغرب ابتداء من سنة 2008م، فما إن بدأت تلوح في الأفق بوادر الأزمة المالية العالمية حتى عادت صورة الفيلسوف كارل ماركس إلى الواجهة. إنه الحاضر باستمرار كلما جرى الحديث عن الأزمات المالية للنظام الرأسمالي.

عاد كارل ماركس للظهور بكثرة مؤخرا، فصور هذا المناضل الثوري بلحيته البيضاء الكثيفة وعينيه الثاقبتين تصدرت أغلفة العديد من كبريات المجلات والصحف العالمية وبعناوين بارزة من قبيل: «كارل ماركس: العودة»، «كارل ماركس: مفكر الألفية الثالثة»، «كارل ماركس: تحليل لم يفقد راهنيته»، «كارل ماركس لم يمت».

68. تحققت الثورة الاشتراكية في القارة الأسيوية وليس بأوربا، في روسيا القيصرية سنة 1917م بقيادة لينين، وفي الصين بزعامة ماوتسي تونغ سنة1949م.

69. Urich Schäfer. Der Crash Des Kapitalismus. Warume die entfesselte Marktwirtschaft scheitert. Campus Verlage. Frankfurt. 2009. وقد ترجم عالم الاقتصاد عدنان عباس علي هذا الكتاب سنة 2010 إلى العربية، عالم المعرفة، عدد 371، يناير 2010م

هذا الإهتمام المتزايد أصبح ظاهرة عامة أطلقت عليها وسائل الاعلام «عودة كارل ماركس».

دعت على سبيل المثال الجريدة الاقتصادية الليبرالية الذائعة الصيت فاينشيال تايمز في مقال صدر بها بتاريخ 13 مارس 2009م قُراءها إلى إعادة قراءة أعمال كارل ماركس وبالخصوص مؤلفه الشهير رأس المال معتبرة أن لهذا الفيلسوف نفس المكانة التي يحتلها آدام سميث في الإقتصاد، وأضافت الجريدة المذكورة قائلة «لقد كان ماركس أول من حلل بدقة وعمق جوانب السوق الضعيفة»، والمعرفة بالاقتصاد الماركسي في نظر المجلة «كان بإمكانها أن تجنب رجال المال ورجال السياسة الأزمة الحالية للرأسمالية، أو تخفف من وطأتها على الأقل».

وفي ذات سياق الأزمة المالية أعادت العديد من دور النشر طبع كتابات كارل ماركس، فقد تم إعادة طبع الكتاب الذي سبق وأن نشرته فيارد سنة 2005 م للمؤلف أتالي الذي تتبع فيه سيرة حياة كارل ماركس[70].

كما قامت دار النشر الفرنسية غاليمار بخوض تجربة إعادة نشر كتابه رأس المال سنة 2008م على شكل كتاب الجيب، وقامت أيضا بإعادة طبع كتابه صراع الطبقات في فرنسا والذي قدم فيه تحليلا عميقا لأوضاع الطبقة العاملة الفرنسية وللثورات التي عرفتها أوروبا عام 1848م (ربيع الشعوب). حقق الكتابان معا نجاحات كبيرة ومشجعة على مستوى المبيعات وهو الأمر الذي يفسر عودة الإهتمام بكارل ماركس لدى القراء والمهتمين[71]، فقد أشار المؤرخ هُوبزباوم في حوار له مع مجلة لونوفيل أوبزرفاتور أنه بعد الأزمة العالمية الحالية استُدعي اسم كارل ماركس وكتابه رأس المال بكثرة بسبب الاهتمام بما ورد فيه من تحليل وانتقاد للرأسمالية[72].

الأمر نفسه ينطبق على سوق الكتاب بمسقط رأسه، ففي بداية سنة 2009م سجلت دور النشر الألمانية ارتفاعا مهما في مبيعات كتاب رأس المال، وقد صرح أحد الناشرين على هامش انعقاد معرض فرانكفورت للكتاب أن عدد النسخ المبيعة من هذا المؤلف تزايد منذ اندلاع الأزمة المالية العالمية، وحسب مسئولي دار النشر «كارل-ديتز-فرلاغ» ببرلين التي تنشر أعماله باللغة الألمانية فقد تزايد القراء الحاليين

70. Jacques Attali Karl. Marx ou l'esprit du monde, Editeur : Fayard 2005. (أعيد طبعه سنة 2007م).

71. صرح إريك فيني المدير الأدبي لسلسلة الأبحاث لدى غاليمار قائلا « قبل 2008م كان الجميع يرفض مجرد الإنصات لأدنى حديث عن ماركس أو كتاباته، أما الآن فقد اختلف الأمر كليا» راجع: سعيد عاهد. عودة كارل ماركس..عودة كتاب الرأسمال. جريدة الاتحاد الاشتراكي يوم 26/5/2009م

72. ايريك هوبزباوم انضم إلى الحزب الشيوعي سنة 1936 م بانجلترا، كما كان عضوا في مجموعة مؤرخي الحزب الشيوعي من سنة 1946 إلى سنة 1956. وقد قدمت جريدة المصري اليوم في عددها بتاريخ 18/06/2009م موضوعا بعنوان. عودة ماركس..الأزمة العالمية تعيد الاعتبار لعدو الرأسمالية. خصصته لأراء هذا المؤرخ تحديدا.

له من جيل المثقفين الجدد الذين اكتشفوا بوادر أزمة اللبرالية الجديدة[73].

أصبحت مؤلفات كارل ماركس ونظرياته عن الرأسمالية ودور الدولة في تسيير الإقتصاد واحدة من الكتب القليلة التي زادت مبيعاتها مؤخرا وسط حالة الركود الراهنة التي يعرفها سوق الكتاب، فقد باعت دار النشر السابقة الذكر من كتابه رأس المال في شهر واحد أكثر من خمسة أضعاف ما كانت تبيعه في عام كامل[74]. أضحت قراءة وإعادة قراءة كتب ماركس وخاصة كتابه الشهير رأس المال تقليدا يوميا مشتركا بين مواطني جل الدول وذلك بسبب واقع الأزمة العالمية الحالية وما تطرحه ميكانيزماتها وتمظهراتها وامتداداتها من علامات استفهام مؤرقة. فالاهتمامات والقضايا المركزية التي شغلت اهتمام رواد الماركسية الأوائل مازالت آنية الى اليوم[75].

ومن أهم الكتابات التي صدرت مؤخرا كتاب كارل ماركس غير القابل للاختزال عن منشورات لوموند الفرنسية[76]. نشرت به مساهمات لمجموعة من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين. كان المحور الأساسي والمنطلق الذي ارتكز عليه المؤلف الجماعي تقديم إجابات عن مدى راهنية فكره أمام المشاكل التي يتخبط فيها العالم الرأسمالي حاليا من خلال إعادة طرح سؤال دور الإشتراكية في عالم اليوم.

في هذا المؤلف الجماعي ينبه هؤلاء المفكرين على ضرورة إعادة قراءة ماركس من خلال العودة إلى النصوص الأصلية وعدم الاكتفاء بالدراسات النقدية عنها.

الكتاب تتبع أهم المحطات البيوغرافية من حياته مع التركيز على أعماله الفكرية من خلال نشر مساهمات متميزة لأشخاص مختصين في الماركسية أو احتكوا خلال مراحل من حياتهم بالماركسية أمثال فرانسوا هولاند، جان جوريس، رايمون أرون، جاك دريدا، بيار دادو، وكريستيان لافال،كلود لوفور، ميشال فوكو، كورنيليوس كاستورياديس، بيار داردو، ماكسيمليان روبيل...

حسب رايمون آرون (ت 1983م) فإن «ورثة ماركس» هم الذين زجوا بالماركسية نحو استعمالات شيوعية وتوتالترية، وخلقوا ديكتاتورية البروليتاريا، فماركس لم يتصور مجتمعا استبداديا، إنها دعوة لتخليص ماركس من الماركسيين أنفسهم.

73. سعيد عاهد. عودة كارل ماركس..عودة كتاب الرأسمال. جريدة الاتحاد الاشتراكي ليوم 2009-05-26م.

74. مصطفى عبد العزيز. بسبب الأزمة المالية إقبال كبير على رأس مال كارل ماركس.في 2008م.العالم اليوم عدد-22 12-2008

75. سعيد عاهد. عودة كارل ماركس..عودة كتاب الرأسمال. مقال سابق.

76. Karl Marx, *l'irréductible... Le Monde hors série* Collectif. Avec Raoul Vaneigem , faucaut, François Hollande, Raymond Aron , Jacques Derrida. Décembre 2011

الماركسية قصة رجل اسمه كارل ماركس[77]. عنوان مستوحى من كتاب كان آنذاك قيد الطبع (صدر في بداية شهر مارس 1912م عن دار النشر غاليمار) نُشرت منه فقرات ضمن كتاب كارل ماركس غير القابل للاختزال. يطرح المؤلفان السوسيولوجي والباحث الأكاديمي كريستيان لافال و الفيلسوف المختص في فكر الماركسية بيار داردو إعادة اكتشاف كارل ماركس المختفي وراء قناع الشيوعية، وذلك بإعادة قراءة الفيلسوف ماركس من خلال العودة إلى الجذور لتجنب الخلط بين نظرياته وممارسات الشيوعيين من بعده. إن رؤية المؤلفان في كتابهما توخت إعادة الاعتبار لكارل ماركس الذي اتهمه خصوم الماركسية والشيوعية بمسؤولياته المباشرة عن الجرائم والممارسات الستالينية.

يقدم فرانسوا هولاند قراءة لبيان الحزب الشيوعي الصادر عن كارل ماركس ورفيق دربه إنجلز سنة 1948م، باعتباره من أكثر النصوص أهمية و تأثيرا في فكر الماركسيين. و في الوقت الذي دافع فيه الفيلسوف دانيال بنسعيد عن الماركسية كتيار متجدد شن المؤرخ والكاتب راوول فانيغيم هجوما لاذعا عليها، في حين ميزت مقالة جان جوريس بين الشيوعية المتطرفة والاشتراكية الإصلاحية المعتدلة.

وفي مقتطف مأخوذ من كتاب أشباح ماركس[78] لجاك دريدا الذي صدر سنة 1993م، يتتبع الفيلسوف التفكيكي مخاوف الغرب من عودة الماركسية، فرغم وفاة كارل ماركس وسقوط جدار برلين وانهيار المعسكر الشرقي سنة 1991م بتفكك الاتحاد السوفياتي مازالت الأشباح التي تسكن نصوص ماركس تطارد أوروبا، إنه الخوف من عودة الشيوعية مرة أخرى، في حين تناولت أطروحة ميشال فوكو موضوع السلطة في ارتباطاتها المتشابكة والمعقدة بصراع الطبقات[79].

ماركس إذن لم يمت والمقصود بالطبع أفكاره ونظرياته بشأن نقد الرأسمالية، فالشواغل المركزية للماركسية التي وضع أسسها هذا الفيلسوف الألماني مازالت قائمة، الماركسية بهذا الشكل لم تنته وآن الأوان لاستعادتها مرة أخرى. فكارل ماركس كان محقاً في عدد من تحاليله المتعلقة بطبيعة النظام الرأسمالي وهو الأمر الذي سبق وأن أكده المؤرخ البريطاني ذو التوجه اليساري إيريك هوبزباوم في كتابه الإمبراطورية، الديمقراطية والإرهاب[80]. فماركس حسب هذا المؤرخ و بخلاف باقي علماء الاقتصاد

Pierre Dardot et Christian Laval. *Marx, prénom: Karl*. Collection: NRF Essais: Editions Gallimard.77 ((2012

Jacques Derrida. *Spectres de Marx* .Editeur : Galilée (14 octobre 1993).78

79. قدم المعطي إقبال قراءة في كتاب كارل ماركس الغير قابل للاختزال منشور بجريدة المساء بتاريخ 2012-1-9.

.Eric Hobsbawm *L'Empire, la démocratie, le terrorisme* (éd. originale: Globalisation, Democracy and Terrorism, 2007) .80

تنبه مبكرا إلى أن الرأسمالية نظام يتطور بطريقة غير مستقرة أثناء الأزمات وهو الأمر الذي حدث باستمرار خلال النصف الثاني من القرن العشرين. بيد أن هوبزباوم أكد من جهة أخرى أن النظام الرأسمالي يقوم دائما بتطوير آلياته ووسائله. ففي كتابه السابق الذكر صرح بأن الرأسمالية لن تنهار لأنها قادرة على تجديد نفسها والتكيف مع الأوضاع المتغيرة مستدلا بما حدث عقب الأزمة الاقتصادية الكبرى التي عرفها العالم سنة 1929م، ففي نظره «انتصارات القيم البورجوازية واضحة بالرغم من أننا منذ سنة 1998م ما فتئنا نعيش أزمة في اقتصاد العالم الرأسمالي»![81].

5.2. أوزوالد اشبنجلر: تشاؤمية مفرطة

ولد سنة 1880م وتوفي سنة 1936م، مؤرخ ألماني أصدر كتاباً ضخماً في ثلاث مجلدات عن تدهور الحضارة الغربية وانحطاطها، وقد أحدث هذا الكتاب هزة قوية في أوساط القراء ووسائل الإعلام أثناء صدوره، هذا الكتاب يكرس وجهة نظر تشاؤمية لمصير أوربا، نلمس فيه رؤية اشبنجلر لأسباب سقوط الدول التي يراها مسألة حتمية. كانت نظريته تجليا واضحا للمخاوف التي اجتاحت شعوب أوربا بعد الحرب العالمية الأولى، فقد خرج الغرب محطما اقتصاديا وبشريا، كما أن انتشار الفاشية والنازية بشكل سريع في ايطاليا وألمانيا كان ينبئ بخطر مشوب بالخوف والارتباك من المصير والمستقبل.

تقوم نظرية أوزوالد اشبنجلر على تصور بيولوجي لحركة التاريخ، ذلك أن الحضارة في مفهومه مثل كائن عضوي طبيعي، تنشأ وتزدهر وتنمو وفي الأخير تشيخ وتفنى، وتبدو هذه النظرية واضحة في كتابه **اضمحلال الغرب**. هذا الكتاب ذاع صيته بسرعة وكان له وقع الصدمة على المجتمع الغربي، إذ ناقشه الكتاب والمفكرون وتابعه عامة الناس، وكتبت ضده مقالات نُشرت في أشهر الصحف والمجلات، فارتفعت عدد نسخ الكتاب وأعيد طبعه مرات عديدة، واشتهر اسم الكاتب الذي تحدث عن مصير الحضارة الغربية وتنبأ بسقوطها المحتم.

وقصة الحضارة عند اشبنجلر قصة طويلة لا تنتهي، فقد كان هناك وسوف يظل في المستقبل عدد لا يحصى من الحضارات، وليست الحضارة الغربية إلا واحدة من هذه الحضارات يسري عليها ما يسري على من سبقها، ويجب الإشارة في البداية إلى أن

ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية للمزيد راجع: ايريك هوبزباوم. العولمة والديمقراطية والإرهاب. ترجمة أكرم حمدان و نزهت طيب، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت، 2009م

81. ايريك هوبزباوم. العولمة والديمقراطية والإرهاب. م.س ص139.

اشبنجلر يقسم التاريخ العالمي إلى حضارات متناوبة، كل حضارة تمثل وحدة مستقلة بنفسها، وتعبر عن روح معينة تختلف من حضارة لأخرى، فلكل منها صفة خاصة بها تميزها عن غيرها، فلا توجد حضارة عامة بل لكل حضارة فلسفتها وتصوراتها، ولكل منها حياة محدودة ما تلبث أن تنتهي.

فالحضارات كلها تنمو ثم تتدهور وتفنى، ولكل حضارة دورة حياة كاملة تبدأ بالنمو ثم الشباب والنضج والقوة وأخيرا الشيخوخة التي يتبعها الموت المحتم، فلكل حضارة عمر محدد كالعمر الذي يمر منه الإنسان طفولة وشباب فشيخوخة، وكما أن الإنسان مخلوق يعجز عن تغيير مجرى مصيره كذلك الحضارات. وفق تقديراته يبدو مستقبل شعب ممكن التصور في ملامحه الخاصة منذ اللحظة التي يقع فيها تحت معطيات حضارة ما، لأن تطور المدنية يسير دائما وفق خط معين، فله فترة ربيع تخلق دينا جديدا ومفهوما جديدا للعالم، ثم فترة صيف هادئ في مفاهيم فلسفية ورياضية، ثم فترة خريف تنضج فيه الثقافة والعقلانية، وأخيرا فترة شتاء يسقط فيها في المادية واعتماد احترام العلم وخسارة التفكير المجرد، لتصل تلك الحضارة أخيرا إلى التقهقر والموت[82].

يتصف منهج اشبنجلر بالجبرية المطلقة حيث إن لكل حضارة صيرورة حتمية واتجاها زمنيا معلوما، ومصيرا وتاريخا محددا، إذ التاريخ خاضع لقانون حديدي يتمثل في المصير، فليس الإنسان هو الذي يصنع التاريخ ولكن الأحداث والحوادث هي التي تختار إنسانها وتصنع تاريخها[83].

إن التاريخ عند اشبنجلر يتصف بما يتصف به الوصف الطبي للأعراض، فحتمية السقوط أمر لا مفر منه، لذلك فالحضارة الغربية اليوم عند اشبنجلر تعيش عصر التدهور والاضمحلال لأنها وصلت إلى مرحلة الموت، وأن هذه الأزمة التي تمر بها الحضارة الغربية ليست أزمة طارئة ولكنها مأساة مؤجلة، لا يمكن تجنبها إذ لا مفر من المصير[84]. ذلك أن الحضارة الغربية الحالية قد فقدت حيويتها، ودخلت في مرحلة الاستمتاع المادي والترف الفكري الذي لا يكون بعده سوى الانحلال والتفسخ والأفول، فالغرب سائر لا محالة إلى الفناء والانهيار والسقوط.

فميلاد الحضارة عند اشبنجلر مرتبط بالحصانة الروحية التي تستيقظ فيظهر الإبداع ثم الفتوة فالشباب وهو قمة العطاء، فالشيخوخة التي تتميز بالعقم وانعدام

82. كولسن ويلسن. سقوط الحضارة م.س ص59/حسن الزين. الإسلام والتطور الحضاري.م.س ص256.

83. سليمان الخطيب. فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي م.س. ص63.

84. كولسن ويلسن سقوط الحضارة .م.س. ص134

الابتكار والإبداع فيحصل الفناء، ويبدو هنا بوضوح أن اشبنجلر يشير إلى أن التاريخ هو سجل الثقافات المختلفة عند الأجيال المتعاقبة، وقد حاول أن يقدم في كتابه اضمحلال الغرب نظرية عامة للتاريخ كما حاول فيما يتعلق بهذه النظرية أن يقدم الأسس التفصيلية التي تدل على انهيار الثقافة الغربية[85].

إن الحضارة عند اشبنجلر تمر بمراحل ثلاث الشباب فالأوج والقوة ثم الشيخوخة، وعندما تنتهي إلى الأفول تعقبها الحضارة اللاحقة، وهذا التفسير بيولوجي يُشَبِّهُ فيه المجتمعات بالكائنات الحية، فلا مفر من سقوط الحضارة الغربية تماما كما يعتقد أي طبيب أن موتنا لا مفر منه[86]. إنها الدورة البيولوجية!.

6.2. ارنولد توينبي: التَّحدي و الاستجابة

ولد أرنولد توينبي في انجلترا بمدينة لندن سنة 1889م، درس في جامعة اكسفورد، وتقلب في مناصب الأستاذية بعدد من المؤسسات الجامعية أهمها جامعة لندن، كما عين مديرا لدائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية توفي في عام 1975م. يعتبر المؤرخ ارنولد توينبي من المتخصصين في دراسة الحضارات الإنسانية، ويعد مؤلفه تاريخ البشرية أودراسة في التاريخ بأجزائه العشر الضخمة موسوعة هائلة أنجزها في مدة زمنية قاربت الأربعين سنة، وفيها نلمس تفسيره لنشوء وأفول الحضارات. وقد اعتمد في كتابه أسلوب العرض الروائي وأسلوب التحليل والمقارنة وكان هدفه تقديم عرض مجمل وواضح لتاريخ البشرية بأسلوب الحكاية[87].

قدم ارنولد توينبي في هذه الموسوعة تصورا فلسفيا للدراسات الحضارية أسسها على دراسة تاريخية موثقة بالأسانيد والشواهد، فقد عكف على دراسة حضارات العالم لأزيد من نصف قرن، وتعد دراسته إحدى النظريات التي يعتد بها كثير من الباحثين، فإلى جانب كل من باتيستا فيكو و اوزفالد اشبنجلر يعد من أشهر فلاسفة التاريخ المدافعين عن فكرة التعاقب الدوري للحضارات في الثقافة الغربية الحديثة.

تعتبر نظريته من أشهر كرونوزوفيات فلسفة التاريخ، استمدها بعد دراسة طويلة مُقارنة للحضارات و الأمم السابقة. استخلص قانون التحدي والاستجابة وبه فسر التعاقب الدوري للحضارات، وقد كان لمقدمة ابن خلدون التي أشرنا إليها

85. عبد الرحمان خضر. المسلمون وكتابة التاريخ . م.س، ص257./ عفت الشرقاوي. في فلسفة الحضارة...م.س، ص201.

86. كولسن ويلسن. سقوط الحضارة.م.س ص134.

87.ارنولد توينبي .تاريخ البشرية. الجزء الأول، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1983م، ص14.

في مناسبة سابقة أعمق الأثر في نظريته الحضارية، وخصوصا فيما يتعلق بفكرة التعاقب الدوري ودور الأديان في نشأة الحضارات وارتقائها، ولا يُخفي توينبي إعجابه الشديد بابن خلدون، فقد عبر عن ذلك في أكثر من مناسبة، وليس بغريب أن يكون لهذا الإعجاب الشديد دوره في رؤيته التاريخية، فقد قرر في موسوعته الرائعة دراسة في التاريخ أن ابن خلدون قد وضع فلسفة التاريخ و أرسى أسسها بلا مراء، وأنه أعظم عمل من نوعه ابتدعه عقل في أي مكان أو زمان. ويضيف توينبي في المجلد الثالث من الكتاب السابق الذكر عن ابن خلدون قائلا: إنه في مقدمته للتاريخ العالمي قد تصور وصاغ فلسفة للتاريخ تعد بلا شك أعظم عمل من نوعه[88].

تقوم نظرية توينبي في فلسفة التاريخ على قانون التحدي والاستجابة، وهو بذلك استبعد تماما من مجال بحثه النظرة العرقية التي تعتبر الجنس الآري أسمى الأجناس، ورفض تفسير نشأة الحضارات بعامل العرق أو الجنس[89]، فلا دور عنده لجنس معين في التشكيل الثقافي للحضارات، وقد وجه بفكرته الواضحة هذه ضربة موجعة لأنصار نظرية التعصب القائلين بتفوق جنس بعينه.

كما استخلص توينبي أن البيئة الجغرافية وحدها غير كافية لتفسير قيام الحضارات، وإنما السبب في نشوئها هو التحدي والاستجابة[90]، أي أن مجموعة من العوامل المادية والبشرية تتحدى المجتمع فتثير فيه روح الاستجابة المنتصرة على هذا التحدي. يَحشُد توينبي لتأكيد نظريته العديد من الأدلة والشواهد التاريخية التي برهن من خلالها أن العامل الإيجابي والحاسم في تكوين الحضارات وبروزها هو عامل التحدي والاستجابة[91].

لم يكن نشوء الحضارات في رأي المؤرخ وفيلسوف التاريخ توينبي ناتج عن تأثير العوامل الوراثية وحدها أو تأثير العوامل الجغرافية الطبيعية أو البيئية، وإنما تنشأ الحضارات نتيجة التحدي الذي تفرضه الطبيعة التي تضع الإنسان دائما أمام تحديات جديدة غير متوقعة تخلقها خلقا، مثل الهجرات التي كان سببها الجفاف، وقد يكون التحدي في صورة غزو أو حرب أو تهديد بالاسترقاق. إلى هذه الأشكال

88. إن مقدمة ابن خلدون كان لها تأثير كبير على تصورات العديد من الفلاسفة والمؤرخين الأوربيين. للمزيد يراجع: محمد الشرقاوي التفسير الديني للتاريخ. الجزء الأول، م.س ص73/ عبد الحليم عويس. التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون م.س ص73.

89. عبد السلام الجفائري. مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي. ص171/111.

90. للبيئة الجغرافية التي ينشأ فيها شعب من الشعوب أثرها في قيام الحضارة، لكنها ليست العامل الأهم.

91. للمزيد عن هذه الشواهد التاريخية التي استند عليها راجع : ارنولد توينبي تاريخ البشرية م.س.

من التحدي يُرجع الظروف العامة التي تتشكل ضمنها الحضارات[92]. فمفهوم تَحَدّ أو رد، ومفهوم استجابة أو رجع، هما مفتاح فهم وشرح تاريخ توينبي في تحديد مصير كل حضارة من حيث النمو والولادة أو من حيث الأفول والسقوط، و يعني التحدي وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان في بناء حضارته وتكون استجابته إما ناجحة إذا تغلب الإنسان على هذه المصاعب أو استجابة فاشلة إذا عجز الإنسان عن مُوَاجهتها[93]. إنّ التغلب على هذه المصاعب هو علامة نمو وازدهار حضاري، والرضوخ تحت وطأتها عند الانطلاق علامة على الانحلال و التدهور، فالتحدي إما يكون ناتجا عن الظروف الطبيعية القاسية الصعبة أو يكون تحديا بشريا في شكل عدوان خارجي من طرف دولة أو جماعة بشرية أخرى معادية.

قسم توينبي إذن التحدي إلى نوعين: التحدي الناتج عن الظروف الطبيعية، والتحدي البشري الناتج عن عدوان خارجي.

1. التحدي الطبيعي: تضع الطبيعة أمام الإنسان دائما تحديات مختلفة، وتعتبر البيئة أحد أهم التحديات التي تواجه الشعوب باستمرار، ويرى توينبي أن الشعوب لا تزدهر في أسهل الظروف، وإنما على العكس تزدهر في الظروف التي تتحداهم أشد تحد، فالناس الذين يعيشون في ظروف سهلة هم ضعاف، والذين يعيشون في ظروف صعبة هم أقوياء، فإذا أرادت الحضارة أن تكون قوية روحيا وثقافيا فإنها بحاجة إلى محيط قاس[94]، فالظروف الطبيعية الصعبة لا السهلة هي التي تَسْتَحِثُ الإنسان على الاستجابة، أما دَعةُ العيش فربما تكون الحائل أمام قيام الحضارة، إذ الشدائد وحدها هي التي تَسْتثِيرُ الأمم، فالمجالات البيئية الصعبة هي الحافز الأقوى لنمو الحضارة، وربما ازداد هذا الحافز قوة بازدياد البيئة الطبيعية قساوة.

يرى توينبي أن الحضارة لا تنشأ في البيئة السهلة، وإذا كان نهر النيل هو سر قيام الحضارة المصرية الفرعونية القديمة، فلماذا لم تنشأ حضارات مماثلة في بيئات مشابهة للبيئة المصرية؟ لماذا لم تنشأ في واد الأردن أو حوض الكونغو أو حوض الدانوب مثلا؟ إن السر يكمن في طبيعة التحدي وأسلوب الاستجابة[95]، فالجفاف التدريجي الذي دب بعد انتهاء العصر الجليدي في المناطق الأفروأسيوية جنوب آسيا وشمال إفريقيا كان التحدي الذي قررت الاستجابة له مصائر الجماعات البدائية، فالشراذم

92. مالك بن نبي. القضايا الكبرى، دمشق الطبعة الأولى، 1991، ص58.

93. محمد البوزيدي. مكانة كتابة التاريخ في العالم- التحدي والاستجابة. الجريدة الشعبية عدد33، ص12.

94. كولسن ويلسن . سقوط الحضارة. م.س.ص149.

95. عبد السلام الجفائري. مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي م.س ص173.

البشرية التي لبثت في المناطق الصحراوية المتضررة، واقتصرت في استجابتها على تغيير بعض عاداتها كونت طائفة البدويين، أما الجماعات التي استجابت لذلك التحدي برحيلها إلى وادي النيل حيث الدلتا الخصيبة والمناخ الملائم فقد أنشأت الحضارة المصرية. والعوامل نفسها التي توفرت في هذه المدنية بنهر النيل قد تسببت في نشأة الحضارة السومرية فيما بين النهرين، كما أن الصينيين الأوائل ظلوا قرونا طويلة يكافحون الأدغال والغابات والوحوش والفيضانات وأملاح التربة حتى استطاعوا في آخر الأمر تحويل تلك البراري الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة[96].

إذا كان الرخاء المفرط يقتل الحضارات في مهدها، فقسوة العوائق في البيئة قسوة خارقة تقتل كذلك النشاط الإنساني، فسكان المناطق القطبية والصحراوية على سبيل المثال ظلوا عاجزين عن اللحاق حتى بأدنى مستويات التحضر والمدنية، فالتحدي البيئي الذي يستثير الاستجابة، هو التحدي المتوسط لا التحدي الضعيف الذي لا يخلق الاستجابة، أو القوي الذي يحطم روح الاستجابة[97].

2. التحدي البشري: يرى توينبي مجموعة حضارات ودول نشأت عن تحدي بشري، فقد يكون حافز الاستجابة عند البعض ناتج عن الضربات الخارجية الداخلية، حيث تنهض لتُدافع عن نفسها بقوة كبيرة كرد فعل وكاستجابة حتمية للتحدي الجديد، ويضرب توينبي مثلا بالشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية حيث تمسك السكان بالإسلام واندفعوا لاسترداد مجدهم أمام تحدي الثقافة اليونانية، كما كان لجوء الزنوج الأمريكيين إلى المسيحية في نظره ردا طبيعيا على العنصرية والرق الممارس عليهم من طرف الإنسان الأوروبي الأبيض، ذلك أنهم اكتشفوا أن المسيح عيسى عليه السلام أرسله الله للناس لِيُعْلِيَ راية المستضعفين لا ليعزز مراكز الأقوياء، كما وصف أيضاً اغتصاب اليهود الصهاينة لفلسطين وتجمعهم فيها بأنه ناتج عن تحدي التشتت الذي لاقوه، ومعنى ذلك أن وجودهم واجتماعهم اليوم في أرض فلسطين يقضي على هذا التحدي الذي واجههم من قبل، ومن جهة أخرى فإن بقاءهم في فلسطين يمثل تحديا دائما للعرب سيثير فيهم إرادة الاستجابة وسيترتب عن ذلك تشتتهم مرة أخرى وخروجهم من فلسطين.لقد رد توينبي نقمة العالم منذ القديم ضد اليهود إلى حماقاتهم ومؤامراتهم التي جلبت لهم الكراهية، فتعصبهم لجنسهم واعتقادهم أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الآخرين خلقوا لخدمتهم هم شعب الله المختار، جلبت لهم الكوارث، فقد تعرضوا للقتل والطرد على يد

96. عماد الدين خليل.م.س ص75/77.

97. عفت الشرقاوي. في فلسفة الحضارة...م.س ص209.

بعض فراعنة مصر، وإلى الأسر على يد بختنصر البابلي، وإلى القمع على يد قياصرة روسيا و أباطرة الرومان خصوصا الإمبراطور قسطنطين الذي اعتنق النصرانية، ومنع اليهود من الجهر بتعاليمهم الدينية، لأنهم أعداء المسيح الذين وافقوا على صلبه في مدينة أورشليم [98].

يتضح مما سبق أن التاريخ البشري عند توينبي هو عبارة عن سلسلة من حلقات التحديات والاستجابات. لكن لماذا تتدهور الحضارات؟ ولماذا تنهار وتسقط؟ .

أرجع توينبي في كتابه دراسة في التاريخ سبب انحطاط الحضارات إلى عوامل داخلية، فهو يرفض الآراء التي ترد السقوط إلى أسباب حتمية خارجة عن قدرة الإنسان، فالسقوط و التدهور سببه داخلي وليس ناتجاً عن غزو خارجي، والعامل الرئيسي في انهيار الحضارات يكمن في فقدان الأقلية الحاكمة لطاقتها المبدعة، إذ تفشل في الاستجابة المناسبة للتحدي القائم.

هكذا يُفَسَّر انهيار الحضارات بتحلل المجتمعات من الداخل قبل أن يأتيها غزو خارجي يجهز على ما تبقى، ذلك أن الغزو الخارجي في مثل هذه الحالة يمثل الضربة القاضية في مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة، لذا يمكن القول إن أية حضارة لا يمكن أن تنهار من الخارج دون أن تكون قد تآكلت أولا من الداخل، إذ لا يمكن بحال من الأحوال قهر أية دولة من الخارج إذا لم تكن قد أوشكت على النهاية من الداخل. إذا كان سبب الانهيار في هذه النظرية راجع بالأساس إلى فقدان الأقلية الحاكمة طاقتها الإبداعية وما ينتج عن ذلك من انحلال اجتماعي يؤدي إلى غياب الولاء فيقع الانهيار . فالسؤال هو لماذا تفقد الأقلية الحاكمة طاقتها الإبداعية؟

سبب ذلك عند توينبي يعود إلى أن المبدع يقع في آفة خطيرة، فبعد حُبِّ الناس له يطمئن إلى إنجازاته التي حققها، وفي هذه الحالة لا تظل الطاقة الكامنة في حالة تفجر مستمر، بل تنكمش وتتوقف وتميل إلى الراحة والسكون، فتعزف الأغلبية عن حكم الأقلية بعد قصور إبداعاتها وتَحوُّلِها إلى سلطة مُسيطرة ومُستبِدَّة، فيسحب المجتمع ثقته عنها ويواجهها بالقوة سعيا منه لإسقاطها والتخلص منها بشتى الوسائل الممكنة، مما يُساهم في إحداث الفتن والاضطرابات في الداخل، فتبدأ الحضارة في السقوط والانحدار نحو الأسفل. ويتشكل المجتمع في حالة الانهيار من أقلية مفلسة فقدت قدرتها على التأثير وخسرت شرعيتها فانقلبت إلى سلطة مستبدة ظالمة تحكم بالقهر والقمع. وتنهج أسلوب الطغاة الديكتاتوريين، مما يساهم في تفكك عُرى المجتمع، فتغيب الوحدة والانسجام بين فئات المجتمع الواحد.

98. المرجع نفسه. ص210/216/217.

في ظل هذه الوضعية المتسمة بالضعف والاحتقان تلجأ الفئات المضطهدة والخانقة في الداخل إلى تَحيُّن الفرصة المناسبة للقيام بالثورة والتمرد ضد السلطة المستبدة، فتتحالف مع القوى الخارجية التي انشقت سابقا عن المجتمع، فيبدأ الهجوم متى توفرت الظروف المناسبة سعيا للقضاء على الأقلية الطاغية، فتنشب الحروب داخل المجتمع، فيكون ذلك سببا في انتحار الحضارة.

هكذا دواليك، مر التعاقب الدوري في الحضارات السابقة، ونفس الأمر سينطبق على الحضارات اللاحقة، فكلما سقطت حضارة أعقبتها حضارة جديدة أكثر استجابة للتحدي من الحضارات السابقة، وقد تأتي عناصر جديدة أو تستجيب القديمة للتحدي فيتجدد شبابها مرة أخرى.

يرى توينبي أن التاريخ ما هو إلا فحص ودراسة للنشاط البشري في حركته وتطوره في الزمن، وأن أي حضارة أو دولة تبدأ بالنمو فالازدهار فالاندحار، وقد قدم سلسلة من الأدلة والشواهد ضَمَّنَها كتابه يُثبت من خلالها أن جميع الحضارات مهما بلغت من القوة والجبروت مآلها الزوال والموت المحقق، فكل الحضارات التي انبثقت إلى الوجود أخفقت وسقطت.

درس توينبي في كتابه إحدى وعشرين حضارة كلها اندثرت ولم يبقى منها اليوم سوى حضارات معدودة، وهي المسيحية الغربية، المسيحية الشرقية الارثوذوكسية، الإسلامية، الهندية وحضارة الشرق الأدنى، ويرى أن هذه الحضارات جميعا هي في طور الانهيار والسقوط باستثناء الحضارة الغربية، فإنه يتوقف عندها كثيرا دون أن يرى لها نفس المصير[99].

يرفض توينبي الحتمية المتشائمة الناشئة عن فلسفة نظرية التعاقب الدوري لدى اشبنجلر، فهو لا يرى في حركة التاريخ دورانا رتيبا كدوران العجلة، مؤكدا أن موت الحضارات السابقة لم يكن قدرا وقضاءً و إنما كان انتحارا[100]، فالمجتمعات الماضية اندثرت لما ارتكبته من أخطاء وحماقات، وأن مصير الحضارة الغربية ليس حتميا، فقد أكد في الأجزاء الأخيرة من دراسته للتاريخ بأن هناك أملا كبيرا في بقاء الحضارة الغربية المعاصرة واستمرارها، فالمستقبل مفتوح، وتاريخ الماضي لا ينبئ بصفة قطعية على ما سيكون في الغد، خاصة وأن العالم اليوم مكان صغير، وكله متغرب. توينبي يوحي للقارئ بأن الحضارة الغربية قد تستمر في البقاء، في حين أن الحضارات السابقة فشلت في أن يكون لها مثل هذا الأمل عنده! ولم يتحدث عن أي شيء في

99. كولسن ويلسن. سقوط الحضارة. م.س.ص 151.

100. المرجع أعلاه، نفس الصفحة.

حالة ما إذا تقوض الغرب، ولكننا نعلم أنه كلما تقوضت حضارة ما نهضت بعدها حضارة جديدة وفق تصوره.

يرد توينبي نشأة الحضارات إلى الأديان، إذ يقف وراء كل حضارة من الحضارات الموجودة ديانة عالمية، والعقائد الدينية في نظره هي التي تسير مجرى التاريخ . فالحضارات تتدهور حين تفقد سيطرتها على عقيدتها، ويُشَبِّهُ حركة التاريخ بعربة تصعد جبلا يقتضي صعودها حركة عجلاتها، وإذا كان الصعود تقدما فليس المقصود الجانب المادي دون الروحي[101].

يرى توينبي أن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين، ولكنه لا يخبرنا عن كيفية هذا الانتقال، وإنما يؤكد قائلا: إن الغربي يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفا روحيا يضمن سلامته بالقوة المادية التي ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية!.

إن إنسان الغرب الفاوستي في نظر فيلسوف التاريخ كان ميالا دائما إلى التأكيد على طاقته العقلية، وهذا هو السر في تقدمه المادي الهائل، ولكنه في الوقت ذاته سر تدهوره، فهو يفقد القوة الروحية، ذاك المفهوم الحيوي الذي يحفظ للنوع البشري بقاءه، وبدون هذا المفهوم الحيوي فإن كلمة التقدم تكون مجرد سخرية، بل إنها لتشبه سيارة لا وقود لها[102].

مما سبق نلمس بوضوح أن تفسير توينبي للتاريخ تفسير ديني في جوهره، لذلك شن عليه بعض فلاسفة التاريخ الغربيين حملة قاسية، وانتقدوا كتابه الشهير دراسة في التاريخ، ووصفوه بالمفكر اللاهوتي الذي خلط في استنتاجاته الفكرية كثيرا من القيم والرؤى الدينية والروحية، كما يُلاَحَظ عَلَيْهِ تحيزه الواضح أثناء حديثه عن المسيحية وأزمة الغرب، فهو يحاول جاهدا أن يبعث في نفوس الغربيين الأمل وهو بصدد الحديث عن مصير حضارتهم، حيث قدم عبارات شاعرية وعاطفية أكثر منها عقلية منطقية[103].

---

101. حسين مؤنس . الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها . سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد شتنبر 1998م،ص363.

102. كولـن ويلسن. سقوط الغرب.م.س. ص167.

103. يقول توينبي: لعل العناية الإلهية التي فدت الإنسانية بصلب المسيح تتدخل ثانية لإنقاذ مصير الحضارة الغربية بقبس من النور الإلهي ..فلا تتردد إلى حرب عالمية ثالثة !

الفصل الثاني

أسطورة فلسفة التاريخ

1. خرافة نهاية التاريخ

أسهم السعيُ لإدراك مغزى التاريخ في نشوء فلسفة التاريخ التي ازدهرت إلى حدود القرن التاسع عشر، قبل أن تتعرض لانتقادات كثير من المؤرخين في القرن العشرين.

لقد تعددت نظريات فلسفة التاريخ، واختلفت التفسيرات التي قدمها فلاسفة التاريخ لماضي ومستقبل البشرية، ولذلك وحتى تكون قراءتنا لهذه النظريات أكثر موضوعية، يجب التطرق إليها في سياقها التاريخي والثقافي الذي ظهرت فيه، قصد فهم العلاقة التي تربط بينها وبين الواقع الذي نشأت فيه.

يأتي في مقدمة المؤرخين الذين اتجهوا إلى تفسير التاريخ لأول مرة، المؤرخ الكبير عبد الرحمان ابن خلدون الذي تجاوز أخبار الأيام والدول ليستشف حقيقتها، ويكشف عن أسبابها والقوانين التي تحكمها، لقد أصبح التاريخ بفضله علما منهجيا قائما بذاته، نَبَّهَ إلى أخطاء كثير من المؤرخين السابقين في تفسيرهم للأحداث، إما بسبب التحيز، أو بِسَبب الجهل بطبائع الأحوال في العمران[104]. لقد وضع أسس فكرة التعاقب الدوري على السلطة بين الدول.

أما في أوربا فقد شهد القرن السادس عشر للميلاد نهضة أوربية شملت ميادين الفكر والفن والدين والتاريخ. عارض قادة الفكر مِنْ أنصار الحركة الإنسية التصور الكنسي المسيحي الضيق للتاريخ، فقد حقق الايطالي ميكيافلي(1469-1527) انفصال التفكير السياسي عن الأخلاق انفصالا تاما، ووضع السياسة في قوانين ثابتة لا تتغير، مستمدا مادته من تحليل ومراجعة التاريخ الروماني من خلال مؤلفه كتاب

104. أورد ابن خلدون في المقدمة أمثلة لأخبار اعتبرها مستحيلة الحدوث وردت في كتب المؤرخين السابقين أمثال المسعودي وغيره. راجع للمزيد عبد الرحمان بن خلدون. المقدمة. م.س من ص.ص 11-38.

المطارحات، ومن ملاحظات الدول الأوربية المعاصرة له من خلال كتاب الأمير[105].
في حين مهدت مقولات جان بودان (1530-1596) لتفكير علمي وفلسفي دقيق في التاريخ،[106] كما ظهر أرْبيل دَاكُوسْتَا أيضا ووقف في وجه رجال الدين المحافظين من طائفته اليهودية، وقد بدأ بتفسير الكتب المقدسة المسيحية واليهودية تفسيرا تاريخيا جريئا، خالف فيه كثيرا من الآراء السائدة، فتعرض نتيجة ذلك للطرد من مجمع الطائفة اليهودية بأمستردام، ولقي ألوانا شتى من المضايقات والاحتقار.[107]

وفي مرحلة عصر التنوير خلال القرن الثامن عشر الميلادي، اهتم فولتير (1694-1778م) بالتاريخ، اعتبره مظهرا من مظاهر الاهتمام بالإنسان وتمجيد العقل ومعارضة الفكرة المسيحية في التاريخ[108]، إليه يعزو المؤرخ ج- ب- بوري وغيره فضل استعماله أول مرة عبارة فلسفة التاريخ. ففولتير استعملها في سياق سجالِيٍّ في بحث يرجع تاريخه إلى سنة 1765م، ثم عاد سنة 1769م فاستعملها ثانيةً في الخطاب التمهيدي من كتابه مقالة في الأخلاق Essai sur les mœurs و كان يهدف من ورائها إدخال مجال التاريخ إلى ميدان البحث الفلسفي[109]. كما أن مُونْتِسْكيو (1689-1755م) يُعتبر أول من دافع عن قوانين التاريخ ضد فكرة المصادفة[110]، لذلك نال كتابه روح القوانين عقب انتشاره شهرة كبيرة استوجبت طبعه أكثر من عشرين مرة في ظرف سنتين، وقد بحث هذا الكتاب في العلل أكثر من الغوص في المغزى الحقيقي للتاريخ، وكان يسعى قبل كل شيء إلى أن يسوق تفاسير للتاريخ بأسباب طبيعية كالمناخ وأحوال جغرافية أخرى، ورغم ما يتضمَّنه روح القوانِين من أبحاث كثيرة تمت بصلة قوية إلى فلسفة التاريخ فإنه يظل في الأساس كتاب يبحث في القوانين والشرائع، ولا يتطرق إلى مسائل التاريخ وفلسفة التاريخ إلا من وجهة علاقتهما بهذه القوانين والشرائع[111].

يعتبر الألماني فريديريك هيغل أول من تعمق في فلسفة التاريخ، فقد اعتبر أن المنطق التاريخي يستند في أساسه إلى صراع الأضداد، وأن العقل هو الذي يحكم التاريخ، وعلى أساس هذه النظرية الجدلية(الديالكتيك) أقام كارل ماركس صَرْحَهُ

105. فاروق سعد. تراث الفكر السياسي قبل و بعد الأمير. دار الأفاق الجديدة، المغرب، الطبعة العشرون، 1994م، ص246.

106. البان د ويدجيري. المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس الى توينبي .ترجمة ذوقان قرقوط، لبنان الطبعة الأولى، 1972م، ص190.

107. فؤاد زكرياء. اسبينوزا. الطبعة الثانية، 1981م، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ، ص113.

108. عفت الشرقاوي . في فلسفة الحضارة الإسلامية. م.س. ص232.

109. Bertrand binoche. Philosophie de l'histoire. Historiographies.I. Concepts et débats .op.cit..p552.

110. ادوارد كار. ما هو التاريخ. ترجمة ماهر كيالي وبيار عقار، الطبعة الثانية،1980م، لبنان، ص113.

111. ساطع الحصري .دراسات عن مقدمة ابن خلدون .م.س .ص204/205.

المذهبي بعد أن ألبس هذا الجدل ثوبا ماديا صرفا، فجعل العامل الاقتصادي هو العامل الأول في تفسير التطور والتغيير لدى المجتمعات.

ثم انتشرت في أوروبا نظرية لا تقل أهمية عن النَّظَرِيَّتين السَّابقتين، وهي نظرية التقدم، والتي أكدت أن الصفة الغالبة على سير الحضَارة هي التقدم، وأن الحياة تسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من الرقي والازدهار، فالمرحلة اللاحقة فيها تكون أعلى من السابقة وأكثر منها رقيا وتقدما[112]، ثم انتشرت بعد ذلك الأفكار التشاؤمية لأوزوالد اشبنجلر التي عبر عنها في كتابه **اضمحلال الغرب**، إذ أكد أن لكل حضارة دورة تبدأ بالنمو فالشباب فالشيخوخة التي يتبعها الفناء، وبَيَّن أن التاريخ ليس تقدما دائما للإنسانية كما عبر فولتير، أو سيرا نحو سلام دائم كما توقع كانط، أو انتصاراً لحرية الروح كما ظن هيغل، أو نموا للمجتمع اللاطبقي وفقا لكارل ماركس.

لقد تنبأ اشبنجلر في كتابه السابق الذكر إلى أن الحضارة الغربية سائرة حتما نحو السقوط والاضمحلال، وقد عززت أطروحاته النتائج المدمرة للحرب العالمية الأولى، إلا أن المؤرخ الانجليزي ارنولد توينبي رفض هذه الحتمية المتشائمة عن نظرية التعاقب الدوري للحضارات، ورأى أن لعجلة التاريخ إيقاعا أساسيا يتمثل في التحدي والاستجابة، فموت الحضارات السابقة في نظره لم يكن قضاءً وقدرا وإنما كان انتحارا.

إن المواضيع المهتمة بفلسفة التاريخ لم تتوقف عند هذا الحد، فغير صحيح أن فلسفة التاريخ انتهت مع توينبي، إذ مازالت تمارس إلى اليوم بوجوه أخرى. إن الكرونوزوفيات الكبرى والمقصود تلك الخلائط من التنبؤات ومن ضروب التقسيم إلى مراحل، ثم الخطابات حول التاريخ لم تغب على امتداد التاريخ ولن تغيب أبدا. أليس فوكوياما في كُتبه فيلسوف تاريخ و متنبيء جديد؟. ستظل فلسفة التاريخ تمثل نوعا من التاريخيات القائمة على إدراك العلاقات بين الماضي و المستقبل من خلال انتقاء اصطفائي للأحداث والوقائع [113].

ما تزال فلسفة التاريخ متواصلة، لكنها تختلف من حيث منطلقاتها وأهدافها والأغراض التي أنشئت من أجلها، وتظل أغلب النظريات التي ظهرت في وقتنا الحاضر بعيدة كل البعد عن المقاييس العلمية الدقيقة، مطبوعة بالذاتية من جهة، وبالصبغة الأيديولوجية من جهة أخرى، وأقصد هنا نظرية صدام الحضارات لصمويل

---

112. محمد البوزيدي. مكانة كتابة التاريخ العالمي-التقدم والتوفيقية. جريدة الشعبية، العدد3، 1994، المغرب، ص16.

113. عبد الله العروي . مفهوم التاريخ. م.س. ص183/ فرانسوا هارتوغ. تدابير التاريخانية .م.س.ص35.

هنتغون، ونظرية نهاية التاريخ وسقوط الأيديولوجية التي أعلن عنها فرنسيس فوكوياما في صيف 1989م، حيث أكد أن الليبرالية الديمقراطية قد انتصرت بعد سقوط الشيوعية ونهاية الحرب الباردة، وأن هذا الانتصار يشكل نهاية للتاريخ[114]، فليس هناك اليوم عند فوكوياما أية أيديولوجية يمكنها أن تحل محل التحدي الديمقراطي، ومن هذا المنطلق يكون قد أغلق باب التاريخ نهائيا، فلا جديد اليوم وبعد اليوم إلا في حدود بعض الإصلاحات الطفيفة، وسيستمر تفجر الأحداث، لكن لن يكون هناك أي تقدم أو تطور فيما يتعلق بالمبادئ والعقائد والمؤسسات![115].

إن فوكوياما يعتقد جازما أن الديموقراطية الليبرالية ستكون الحلقة الأخيرة للإيديولوجية الإنسانية، والشكل النهائي لأنظمة الحكم في العالم، وهي بهذا تُعتبر نهاية للتاريخ، باعتبار أن الديموقراطية خالية من التناقض الذي كان موجودا في الأنظمة الأخرى المخالفة.

إن هذا الطرح الإيديولوجي يحمل الكثير من الأخطاء، ويُناقض الحقائق الموجودة في الواقع، فالديمقراطية ليست دائما نقيضا للديكتاتورية والإستبداد، فلقد جاءت الديمقراطية بالقوميين المتطرفين في كثير من الدول، كما أنها ليست معيارا للنضج والتقدم والنظام والإستقرار، فقد وصل هتلر إلى السلطة عبر الإنتخابات، وحصلت الفوضى في الجزائر بسبب نتائج الانتخابات الديمقراطية، ولو أُجْرِيَتْ اليوم انتخابات نزيهة في العديد من البلدان لأعطت نتائجها الأغلبية الساحقة للتيارات المعادية للغرب، لذلك فأمريكا وحلفاؤها لن يساندوا بتاتا الديمقراطية في العالم، لأن نتائجها ستكون كارثية عليهم وعلى مصالحهم الحيوية، لذلك فهم يفضلون التعاون مع الأنظمة القائمة ويضفون عليها الشرعية ولو كانت ديكتاتورية ويدعمونها ماديا وعسكريا.

كما أنه يصعب موضوعيا تحقيق الديموقراطية في دول العالم الثالث لأسباب متعددة: منها أن خصائص الشعوب الدينية والتاريخية والثقافية والقبلية لا تتوافق في كثير من الأحيان مع الأفكار والمفاهيم الليبرالية، فالنموذج الغربي لا يلقى استجابة واسعة في البلدان الإسلامية والآسيوية، إذ ليست هناك قيم توحد العالم. القيم الأمريكية تتناقض في الكثير من الأحيان مع القيم الدينية والثقافية والحضارية للدول الأخرى، مما يعني أن الحضارة الغربية ستواجه مصاعب مع كثير من الدول

114. محمد السماك. موقع الإسلام في صراع الحضارات. مجلة الاجتهاد، عدد26/27، دار الاجتهاد للأبحاث، 1995، بيروت، ص301.

115. فرانسيس فوكوياما. نهاية التاريخ. ترجمة وتعليق حسنين الشيخ، دار العلوم العربية، الطبعة الأولى، 1993م، بيروت، ص10/15.

ذات الحضارات المختلفة عنها. كما أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها في نظر العديد من شعوب العالم قوة عظمى معادية تسعى لتحقيق مصالحها الخاصة دون الالتفات إلى مصالح الآخرين، ولا شك أن كثير من الدول غير راضية اليوم على الوضع القائم، فكثير من حلفاء الأمس تحولوا إلى أعداء اليوم بسبب السياسة الأمريكية، الليبرالية الغربية ليس باستطاعتها تحقيق الرفاهية للجميع، فَهِيَ لا تأخذ في اعتبارها إلا مصلحة الأقلية، لذلك فالاستياء لدى شعوب العالم الثالث في ظل التوزيع غير المتكافئ للثروات سيتزايد.

إن الرأسمالية الغربية لا تفكر في رَدْمِ الهوة المتزايدة بين شعوبها وشعوب العالم الثالث، مما سيغذي الصراع بين شعوب العَالم المتقدم وشعوب العالم المتخلف، ولن تكون الديمقراطية الليبرالية هي العصا السحرية لحل المشاكل المعقدة، كما أن شعارات مثل المساواة وحقوق الإنسان والحرية والديمقراطية تظل شعارات بلا معنى، فسياسة القتل والتعذيب والعنف والإرهاب والكيل بمكيالين هي ما نراه ونشاهده يوميا على شاشات التلفزيون.

إن الصراع الجديد في العالم سيتخذ أشكالا مختلفة، ولن يعرف العالم أبداً الاستقرار مادامت الخلافات العالمية في ازدياد، والفجوات في اتساع، ولا أحد يستطيع التنبؤ بما سيكون عليه حال الرأسمالية الغربية مستقبلا في ظل تنامي المخاطر، واستمرار التناقضات، وانتشار ثقافة الكراهية.

إن دخول القرن الجديد يطرح معه العديد من الأسئلة بخصوص المصير، فالأخطار التي تهدد العالم لا تنبئ بأي حال عن نهاية محتملة للتاريخ، والديمقراطية ليست النهاية المنطقية له، فالولايات المتحدة نفسها لا تشعر بالأمان، وهي تدرك أكثر من غيرها أن هناك أخطارا حقيقية تهدد مستقبلها، فسقوط الاتحاد السوفيتي لايعني أبدا نهاية الأحداث وتوقف التاريخ إلى الأبد، بل بالعكس تسارعت الوقائع السياسية والعسكرية بشكل مخيف، والتطورات المقبلة لن تكون دائما في مصلحة النظام العالمي الجديد، لأن الدول التي ترى نفسها مهددة ستسعى بكل عزم إلى امتلاك الأنظمة الدفاعية التي تتيح لها البقاء، بما في ذلك امتلاك الأسلحة النووية والهيدروجينية، التي يَعْني استخدامها القَبول بتدمير محتمل للكوكب الأرضي الذي نعيش فيه، وهذا ما ستسعى إليه كل الدول التي تصنفها أمريكا في خانة الدول الشريرة والمعادية، حتى تقي نفسها خطر الزوال إذا أصبحت مستهدفة في يوم من الأيام، لذلك نرى الولايات المتحدة الأمريكية تعمل جاهدة للحيلولة دون حصول الدول التي صنفتها في خانة الأعداء على القدرات العسكرية المتطورة من أسلحة

الدمار الشامل، كما أنها تعمل بحزم للوقوف دون قيام أي نظام يحتمل أن يشكل خطرا عليها، حتى ولو اضطرت إلى القيام بحرب وقائية عادة ما تكون آثارها سلبية على استقرار العالم، ونتائجها سيئة على الشعب المستهدف، حيث تنتشر أعمال الفوضى والقتل ويعم الدمار و العنف، مما يترك مستقبل العالم في ظل هذه الأوضاع مجهول المصير.

في الواقع، لقد انتهى التاريخ فلسفيا مرات عديدة وذلك قبل فوكوياما، لكنه في الحقيقة لم يتوقف واستمر وسيستمر وربما باندفاع أكبر، وكما هو واضح فإن دعوة نهاية التاريخ لا تقل في انغلاقها و جبريتها وغائيتها عن الحتمية التاريخية وفكرة نهاية العالم، فإذا كان هناك بالأمس من أوقف التاريخ عند الاشتراكية، فثمة اليوم الوجه الآخر وهو إيقافه عند الرأسمالية[116].

إن الأبحاث في ميدان فلسفة التاريخ لم تتوقف كما رأينا، ولن تتوقف نظرا لارتباطها بحاضر البشرية ومستقبلها، كما أنها ستظل دائما مثارا للجدل والخلاف مادامت الحياة مسرحا للأحداث والوقائع ومرتعا للمتغيرات، لذلك فإن باب التاريخ لن يغلق، ونافذة الفكر لن تنتهي إلا بزوال الإنسان عن هذه الأرض، أما عن المستقبل فيبقى دائما هناك إمكانية لاحتمالات متعددة، فالزمن التاريخي زمن مفتوح دائما على مآلات مختلفة وغير متوقعة.

2. مأزق التاريخانية

التاريخ هو عمل حول الزمن، وهو الشيء الذي يميزه عن باقي علوم الاجتماع[117]. تتعدد تعريفات الزمن مما يجعله مشكلة فلسفية في المقام الأول، فالزمن (كرونوس عند الإغريق) يفيد التأني تارة، والتعاقب تارة أخرى[118]، وهو ثلاثي في أبعاده (ماضي/ حاضر/ مستقبل). يعتبر سؤال الزمن من أعقد الأسئلة التي حارت فيها الأجوبة، فكيف يستطيع الزمان أن يوجد إذا كان الماضي لم يعد موجودا، وإذا كان المستقبل لم يوجد بعد، وإذا كان الحاضر غير موجود دائما، كيف لنا أن نقيس ما لا يوجد، وكيف يمكن لأي شيء لا يوجد أن يكون إما طويلا أو قصيرا. يقول القديس اوغسطينوس:«أعرف أن الزمان يوجد، وأنه يقاس، لكني لا أعرف ما هو

116. محمد كامل الخطيب. المجتمع المدني والعلمنة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1994، ص74.

117. Antoine Prost. *Tempe. Historiographies.II. Concepts et débats* .op.cit .p903

118. عبد العالي معزوز «مشكلة الزمن» بصمات سلسلة جديدة -03- ملف العدد : الزمن والمجال في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحسن الثاني المحمدية الدار البيضاء كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك الطبعة الأولى، 2008 .ص 11/12.

الزمن ولا كيف يقاس، إنني في حالة يرثى لها لأنني لا أعرف ما لا أعرفه»[119]. يتحول الزمن على يد القديس اوغسطينوس إلى لغز محير، لأنه لا يقاس ولا يدرك إلا بعد انقضائه. يقول بول ريكور «إننا نقيس الزمان عند انقضائه لا المستقبل الذي لم يوجد بعد، ولا الماضي الذي لم يعد موجودا، ولا الحاضر الذي ليس له ديمومة»[120].

إن الزمن مفهوم شديد التعقيد، يخلق العديد من الالتباسات والإشكاليات، لأنه ببساطة ليس شيئا ملموسا، فرغم أننا نتعامل بكيفية دائمة ومستمرة مع الزمن، إلا أننا لا ننتبه أحيانا إلى أن الزمن ليس في الحقيقة سوى نتاج لعملية بناء، وأن الإشكالية المطروحة هي وحدها الكفيلة بتحديد معالم هذا الزمن.

إن الخطأ الكبير الذي قد يقع فيه المرء هو الاعتقاد أن بإمكانه استحضار الماضي كما كان بالفعل، دون أن يعي أن ما يقوم به ما هو في الحقيقة سوى إعادة بناء لذلك الماضي على خلفية أسئلة الحاضر، فالتاريخ لا يعيد نفسه مرتين، لأن الزمن التاريخي خطي تراكمي يتم بناؤه استنادا إلى الماضي وانطلاقا من مخلفاته، يلعب الحدث التأسيسي أو تاريخ البداية دورا فاعلا في تكوين منظومة زمنية تقوم على نقطة بدء تكون فاصلا بين ما هو سابق ولاحق، وإن الاشتغال على الزمن يؤدي إلى تكون مفهوم الحقبة التي تجزيء المسار الخطي للزمن فتقسمه إلى مجموعات، ويمكننا الاستعانة بمفهوم الحقبة لتبويب الأحداث، والظواهر التاريخية، وترتيبها، وجعلها مفهومة بطريقة أكثر[121].

ان التاريخ مرتبط في الأساس بالزمن، لأن ميدان التاريخ هو الحياة في امتدادها الزمني على الأرض، ولا يصير الزمن إنسانيا إلا إذا تم التعبير عنه من خلال السرد. ثمة إذن زمنان هما «زمن التاريخ» و«زمن الحكي والسرد». إن مشكل تمثل الزمن في السرد يُطرح بسبب الفرق بين زمن التاريخ وزمن الخطاب، إن زمن الخطاب زمن خطي بينما التاريخ متعدد الأبعاد، في التاريخ قد تحدث أحداث في وقت واحد[122]، إذ لا يمكن لخمسين سنة أن تكون حاضرة دفعة واحدة، لكن يتعين على الخطاب وضعها بالتتابع واحدة تلو الأخرى. الزمن المروي أو الخطاب له قدرة سحرية على

---

119. نقلا عن اوغسطينوس في بول ريكور .الزمن و السرد.الجزء الأول.ترجمة الغانمي وفلاح رحيم، مراجعة جورجزيناني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة،الطبعة الاولى،2006م ص27/39. و من أشهر ما ينقل عنه في الاعترافات قوله: «ما هو الزمان إذن؟ إذا لم يطرح علي أحد هذا السؤال اعرف، إذا طرح أحد السؤال وأردت أن أشرح لا أعود أعرف».

120. بول ريكور .الزمن والسرد. الجزء الأول .م.س.ص40.

121. من مقدمة أعمال ندوتي مراكش وتونس.التحقيب في الكتابة التاريخية المغاربية. دراسات مغاربية، جامعة تونس، كلية الآداب بالرباط، إعداد فاطمة بن سليمان وهشام عبد الصمد، نقوش عربية.ص5/6.

122. عبد العالي معزوز «مشكلة الزمن» مجلة بصمات.م.س.ص19.

مد زمن الأحداث أو اختزاله، وعلى جعل الزمن المحكي يتسلسل، يتسارع أو يتباطأ، بمعنى آخر يصير الزمن ما لم يكن باستطاعته أن يكون لولا السرد، أي يصبح قابلا للاستعادة والاسترجاع، بفضل اللغة إذن نتذكر الزمن الماضي[123] .

اختلفت تصورات المؤرخين وتعددت نظرتهم للزمن التاريخي. ولصيرورته في ما يتعلق بتقديم وجهة نظر عن مسار هذا الزمن ككل، ففي مرحلة العصور الوسطى تم الهجوم على مفهوم الزمن الدنيوي الإغريقي ذو المسار الدائري، فقد أكد القديس أوغسطينوس في عمله الكبير على المفهوم الإلهي الخطي للزمن الإلهي في كتابه مدينة الله، حيث الفاعل الأساسي هو الله، أما البشر فإنه لا يمكنهم أن يحدثوا في العالم أي تغييرات. إن العناية الإلهية في نظر اوغسطينوس هي من تقود الإمبراطوريات والأمم، فالفتوحات الرومانية مطابقة للخطة الإلهية، و ما سقوط الدولة الرومانية في نظره إلا انتقام إلهي. مثل هذه الرؤى ستتعرض ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي إلى انتقادات كبرى نتيجة التحولات التي أفرزتها النهضة الأوربية، فقد شهدت هذه الفترة صراعا مريرا بين الكنيسة الكاثوليكية وبين قادة الفكر أنصار الحركة الإنسية الذين عارضوا التصور الكنسي المسيحي الضيق للتاريخ. وفي القرن الثامن عشر الميلادي بدأ الاهتمام أكثر بالتاريخ، واعتبر الأمر مظهرا من مظاهر الاهتمام بالإنسان وتمجيد العقل، وتمت معارضة الفكرة المسيحية في التاريخ بشكل نهائي، وبدأت فكرة الدفاع عن قوانين التاريخ تظهر جليا في كتابات فلاسفة الأنوار.

في النصف الأول من القرن الثامن عشر كشف فيكو في كتابه العلم الجديد عن المبادئ التي تحكم التاريخ، مؤكدا أن تاريخ الأمم المشتركة هو تاريخ تكرار الأطوار نفسها، فبعد «الطور الإلهي» الذي هو أيضا طور الشعر والتيوقراطية، تنتقل الأمم إلى العصر البطولي «طور القوة والارستقراطية»، لكي تصل أخيرا إلى الطور البشري «طور القانون والديموقراطية»، وَيدشن هذا الطور لدى الأمم المشتركة عملية انحلال تؤدي للعودة إلى نقطة الانطلاق وإلى إعادة جديدة للدورة[124]، و في هذا السياق ولنكون منصفين لابد من الإشارة إلى أن البدايات الأولى لهذا التفكير تعود إلى عبد الرحمان ابن خلدون الذي تجاوز أخبار الأيام والدول ليستشف حقيقتها ويكشف عن أسبابها والقوانين التي تحكمها، وتوصل إلى الاقتناع بفكرة التعاقب الدوري على السلطة.

123. نفسه ص19.

124. كريستوف بوميان .نظام الزمان. م.س. ص99.

وفي أوربا يعتبر هيغل أول من تعمق في فلسفة التاريخ، وتوصل إلى أن المنطق التاريخي يستند في أساسه إلى صراع الأضداد، وأن العقل هو الذي يحكم التاريخ، وعلى أساس هذه النظرية الجدلية بنت الماركسية مذهبها بعد أن ألبست هذا الجدل ثوبا ماديا صرفا، فجعلت العامل الاقتصادي هو العامل الأول في تفسير التطور والتغيير لدى المجتمعات، وأهملت باقي العوامل الأخرى، وادعت أن الزمن التاريخي ليس في النهاية سوى صراع طبقات، تفوز فيه الطبقة المنسجمة مع وسائل الإنتاج، وسيظل هذا الصراع قائما إلى أن تفوز طبقة العمال، وعندها سيتحول المجتمع نحو المرحلة الأخيرة ، وسينتقل إلى الشيوعية حيث تنعدم الطبقات.

انتشرت لاحقا في أوروبا أيضا نظرية لا تقل أهمية عن النظريتين السابقتين وهي نظرية التقدم التي أكدت أن الصفة الغالبة على سير الحضارة هي التقدم لا التدهور، وأن الحياة تسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من الرقي والازدهار، وذلك عبر مراحل معينة تختلف خصائصها من عَالِم لآخر، لكنها تتفق كلها في أن المرحلة اللاحقة فيها تكون أعلى من السابقة وأكثر منها رقيا وتقدما، وفي سنوات ما بين 1914م - 1944م كانت أوربا مهووسة بالنهاية، وبالموت، وبضياع الهوية، فهذه الفترة اعتبرت العصر الذهبي لكبريات فلسفات التاريخ، إذ انتعشت التأملات في أفول الحضارات وانحطاطها، فسقوط الغرب لأوزوالد اشبنجلر يصادق على الطابع الفاني للحضارات، إنه اليأس من مستقبل الغرب بعد الحرب العالمية، لذلك فقد انتشرت أفكاره التي عبر عنها في كتابه ذي العنوان الدال اضمحلال الغرب والذي كُتب غداة الحرب العالمية الأولى وفي ضوء الثورة الروسية، والذي حققت تنبؤاته الحاسمة والداكنة نجاحات لدى الجمهور[125]، لندرك أن الموضوع كان يمس وترا حساسا حيث جعل لكل حضارة دورة، تبدأ بالنمو، فالشباب، فالشيخوخة التي يتبعها الفناء[126]، وأكد أن التاريخ ليس تقدما للإنسانية دائما كما عبر فولتير، أوتقدما نحو سلام دائم كما توقع كانط Kant، أو حرية للروح كما ظن هيغلHegel، أونموا لمجتمع بلا طبقات وفقا لنظرية كارل ماركس Marx.

تنبأ اشبنجلر في كتابه السابق الذكر إلى أن الحضارة الغربية سائرة نحو السقوط والاضمحلال، إلا أن المؤرخ الانجليزي ارنولد توينبي وإن انطلق هو أيضا من وسواس انحطاط الغرب، حيث عقد مقارنة بين أكثر من عشرين حضارة اندثرت محاولا استخلاص السمات المشتركة لمساراتها الزمنية وإدخال مفاهيم عامة تسمح

125. نفسه.ص 222.

126. محمد البوزيدي .مكانة كتابة التاريخ العالمي- التقدم والتوفيقية-. جريدة الشعبية، العدد 3، 1994، ص16.

بوصف تقلباتها، فقد رفض الحتمية المتشائمة عن نظرية التعاقب الدوري للحضارات لدى اشبنجلر، ورأى أن لعجلة التاريخ إيقاعا أساسيا يتمثل في التحدي والاستجابة والانسجام والعودة، ويرى «أن موت الحضارات السابقة لم يكن قضاءً وقدرا و إنما كان انتحار»[127].

لقد جعل هؤلاء المؤرخين للزمن التاريخي مسارات متعددة، ودافعوا عن فكرة وجود مغزى ومعنى للتاريخ ، فكلهم أصحاب نظرة غائية، جعلوا للتاريخ قوانين وأسبابا تتحكم فيه وتوجهه وتصنع مستقبله، فهو لا يسير اعتباطا ولا صدفة، ومن ثم أولى هؤلاء جميعا الأهمية القصوى لمسألة تسلسل الأحداث الكرونولوجية والوقائع التاريخية، وجعلوا منها أساس بناء تصوراتهم للزمن[128]، وقد بقي هذا النمط التقليدي المرتكز على الأحداث سائدا مع المدرسة المنهجية أو الوضعانية خلال القرن التاسع عشر بأكمله إلى أن تصدت رغبة المؤرخين الجدد مع مدرسة الحوليات إلى تجاوز هذا المفهوم الضيق للزمن، وأعلنوا عن طموحهم الكبير لبلوغ تاريخ شمولي، يبحث في تاريخ المجتمعات الكوني الكلي، وليس التاريخ السردي الحدثي السياسي وحده.

في نهاية القرن التاسع عشر وطيلة مرحلة القرن العشرين شككت العديد من الاقتناعات في فكرة غائية التاريخ، وموضوعية المؤرخ، وفلسفات التاريخ بصفة عامة، وأصبحت فكرة علمية التاريخ وقوانين التاريخ والقدرة على المعرفة العلمية للوقائع مصدر قلق وإزعاج للكثير من المؤرخين الذين ابتعدوا عن كرونوزوفيات فلسفات التاريخ الموروثة عن عصر الأنوار وما بعدها مثلما ابتعدوا عن الأصنام الثلاثة لقبيلة المؤرخين المنهجيين(الصنم السياسي، الصنم الفردي، الصنم الكرونولوجي)، واتجهوا إلى كتابة تاريخ مغاير ومختلف من خلال الانفتاح على شتى مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى مثل الاقتصاد والجغرافيا والديموغرافيا والسوسيولوجيا والانتربولوجيا وعلم النفس.

لم يعد للتاريخانية خلال القرن العشرين أنصار كُثر. فمع كثير من التعالي لم يتم استحضار فلسفة التاريخ في فرنسا منذ انتقال مركز صدارة الكتابة التاريخية إليها[129]. تميل فرنسا تقليديا وعلى الدوام إلى عدم الثقة بالفلسفة التي تطابق بينها

127. كولسن ويلسن. سقوط الحضارة. ترجمة أنيس زكي ، الطبعة الثانية، 1971، بيروت ص59. المرجع أعلاه، ص 151.

128، للمزيد حول تصورات المؤرخين للزمن يراجع: خالد طحطح. في فلسفة التاريخ. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان. 2009م.

.Bertrand binoche. Philosophie de l'histoire. Historiographies. Op.cit. .p551.129

وبين فلسفة التاريخ على الطراز الهيغيلي الذي اختلط هو نفسه وتلاءم مع تأملات شبنجلر وتوينبي لاحقا، أما ما يتعلق بفلسفة التاريخ النقدية الموروثة من ديلتاي Dilthey وريكرت Rickert وسيمل Simmel وماكس فيبر التي واصلها ريمون آرون وهنري مارو فلم يُتَحْ لها أبدا أن تمتزج امتزاجا حقيقيا في التيار الرئيسي لكتابة التاريخ الفرنسية[130]، وهذا هو السبب في أننا لا نجد في هذه الأعمال المهتمة بقضايا المنهجية ذلك التأمل القرين بالمدرسة الألمانية بداية القرن العشرين، وحتى مدرسة الابستمولوجية الوضعية الجديدة بانجلترا تشترك مع الحوليات في رفضها لفلسفة التاريخ[131]. ويمكن تفسير ذلك بكون الكتابة التاريخية الفرنسية لم تقع تحت هيمنة واحد مثل فيكو ولا واحد مثل هيغل ولا كارلايل، ولا في الزمن القريب منا تحت هيمنة واحد مثل اشبنجلر أوكروتسي أو توينبي، وقد امتدح كريستوف بوميان تخلي المؤرخ الفرنسي عن أي فلسفة تاريخية باعتبارها ضربا من ضروب الكرونونوزوفيا. وبلا شك ساهم ذلك في ابتعاد المؤرخين الفرنسيين عن فلسفة التاريخ التي كانت لها تأثيرات سلبية في بلدان ايطاليا وألمانيا والبلدان الانجلوسكسونية حيث كبلت بها الكتابة التاريخية وعقمتها وأبعدتها عن الواقع. وبعبارة مارك بلوخ أنتجت هذه النوعية مؤرخين شبيهين بأولئك الفلاحين الذي يحرثون سجلات الكنائس[132].

لقد انهار صرح فلسفة التاريخ أمام الهجومات المعاكسة للمدرسة الفرنسية «الحوليات» وورثتها من رواد «التاريخ الجديد» وغيرها من المدارس التاريخية الأخرى المشابهة، مثل الوضعانية المنطقية التي (هي إنجاز مشترك نمساوي انجليزي) حاولت إنقاذ التاريخ من كل نظرة تاريخانية منهجية أو فلسفية[133]. إن التاريخ في ثوبه الجديد حسب ميشال فوكو «حررنا مما كان إلى عهد قريب يشكل فلسفة التاريخ، وتخلصنا من الأسئلة التي كانت تطرحها حول المعقولية والغائية اللتان تطبعان صيرورة التاريخ»[134]. والنتيجة خفوت أصوات أتباع مؤرخ الحضارات ارنولد توينبي التي أصبحت غير مسموعة. و من أكبر الانتقادات التي تعرض لها بهذا الخصوص كانت موجهة إليه من قبل المؤرخ جاك لوغوف بقوله «إن الحضارة في فكر توينبي

130. يعتبر ديلتاي وزيمل وريكيرت من أركان المدرسة الكانتية، حاولوا وضع فلسفة للتاريخ تتقيد بمبادىء النقد كما حددها كانط، تناولهم بالدراسة رايمون ارون في كتابه فلسفة التاريخ النقدية، بحث في النظرية الالمانية للتاريخ.ترجمة حافظ الجمالي ، منشورات وزارة الثقافة دمشق.1999م

131. بول ريكور .الزمن والسرد. الجزء الأول . م.س.ص153/154.

132. جاك لوغوف .التاريخ الجديد. م.س ص11.

133. عبد الله العروي . مفهوم التاريخ.م.س.ص 238.

134. ميشيل فوكو .حفريات المعرفة. ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ص12.

عبارة وفكر فضفاضين فيهما دمج متعسف للمجتمع ...وهو يستعمل في ذلك منهج المقارنة بطريقة فجة مبنية على كثير من المغالطات التاريخية.يقدم فلسفة التاريخ دون أن يكون التاريخ فيها علمياً»، ووسم تقسيمه للحضارات بالاعتباطي وغير الدقيق، مؤكدا أن «التاريخ على نهج توينبي رغم جاذبيته واتساع نظرته هو مسودة تاريخ كتبت في أغلبها بالاعتماد على مصادر غير أصلية وبفلسفة سطحية». في النهاية حسب جاك لوغوف دائما «يمكن اختزال التاريخ حسب توينبي في جواب شيخ عالم عن سؤال لشاه يحتضر ويريد أن يعرف كل التاريخ في اللحظة الأخيرة من حياته وهو: «مولاي الناس يولدون ويحبون ويموتون»[135]. لقد أصبحت فلسفة التاريخ اليوم نوعا ميتا من البحث أو لعلها على أقل تقدير نوع لا يستطيع مواصلة الحياة إلا عند بعض الأتباع المقلدين لأستاذ من أصحاب الذيوع الجماهيري الواسع مثل اشبنجلر لأنها نوع زائف من البحث[136]. لذلك لا ينبغي أن تنطلي علينا اليوم الخديعة، فهؤلاء الذين مازالوا يذرفون الدموع على اختفاء هذا النوع من التاريخ ويبدون الخوف والخشية عليه إنما هم يتحسرون في الواقع على الاستخدام الايديولوجي للتاريخ وليس على التاريخ نفسه.

يختلف تَصَوُّرُ موريس ميرلوبونتي للتاريخ بدوره عن التفسيرات السابقة التي وضعت أسس مسبقة حاولت من خلالها فهم التاريخ. لقد دعا هذا الفيلسوف إلى عدم الحكم على التاريخ من الخارج لأنه لا يعمل وفق أي نموذج، بل إنه على وجه التحديد جملة أحداث لها معنى، المطلوب حسب ميرلوبونتي هو فهم معنى هذه الأحداث لأن هذا المعنى هو التاريخ ذاته[137]. ويرفض ميشيل فوكو مثله مثل فريديريك نيتشه التفسير الغائي. إن المناهضة النيتشوية لفلسفة التاريخ جرى استثمارها وتشغيلها لدى ميشيل فوكو في أماكن متعددة من تحليلاته وكتاباته[138].

يضاف إلى الإنتقادات التي وجهها هؤلاء الفلاسفة ومدرسة الحوليات لفلسفات التاريخ، والتي اتسمت بالحدة والازدراء، أعمال فيلسوف النقد كارل بوبر التي تعد تفنيدا مباشرا لأطروحات النزعة التاريخانية التي اعتبرها «ايديولوجيا مفلسة» و«مذهبا عقيما» ومجرد «كذبة» وأحد أكبر «الأخطاء الفادحة» التي يجب

135. جاك لوغوف.التاريخ الجديد. م.س.ص91.

136. بول فاين . أزمة المعرفة التاريخية-فيكو وثورة في المنهج. م.س ص47.

137. محمد بن سباع . الآراء السياسية لموريس ميرلوبونتي. مجلة أوراق فلسفية. المحور الفلسفة الفرنسية الراهنة، العدد 33، سنة 2012م،ص219

138. عبد الرزاق بلعقروز. «في استمداد فوكو من نيتشه. تجنب اسقاط المعنى على المعرفة التاريخية». أوراق فلسفية، كتاب غير دوري، المحور: الفلسفة الفرنسية الراهنة. العدد 33، سنة 2012م،ص213/215.

القطع معها، فليس التاريخ علما وليس بإمكانه أن يتوقع الكثير إذ لا يوجد أي اتجاه متعين سلفا في التاريخ، وقد خصص كتابيه بؤس التاريخانية[139] و أسطورة الإطار[140] للهجوم على كل من يعتقد بوجود قوانين صارمة تتحكم في سير التاريخ، وأكد من خلالهما أن الاعتقاد بالمصير التاريخي مجرد خرافة، إذ لا يمكن التنبؤ بمجرى التاريخ الإنساني ولا بمستقبل البشرية.

لقد صاحب الإخفاق والفشل كل نظريات فلسفة التاريخ. فالتاريخ بعيد عن نهايته، وجميع الرؤى والتصورات التي تسعى إلى فهم التاريخ الكلي تقع خارج نطاق التاريخ، لأنها تصور نهاية للتاريخ وفق منطق لاهوتي.

التاريخانية مفهوم متعدد المعاني والدلالات، ابتدع التعبير كارل فرنر سنة 1879م الذي استعملها لوصف فلسفة فيكو. في سنة 1954م كتب المؤرخ الألماني فريديريك منكه مؤلفا أسماه أصول التاريخانية وصف فيه مراحل ما أسماه النزعة التاريخانية التي تمثل في نظره الشعور بأن الحوادث البشرية فريدة ومتطورة[141]، و كتب فون رنتي فنك كتابا بعنوان التاريخانية، ولا ننسى الدراسة البالغة الأهمية لغيرهارد باور: **التاريخانية دروب ومتاهات مفهوم**[142].

وجدت ألمانيا منذ الإصلاح الديني أرضا خصبة للتأليف التاريخي والبحث في المناهج، فتولد عن هذا النشاط الكبير نظرة خاصة تمثلت في تاريخانية رَانْكه وهيغل، سادت سيادة مطلقة على الفكر القومي الألماني. و قد وسمت التاريخانية كل مدارس الفكر في القرن التاسع عشر، إننا نجد ما يسمى تاريخانية في ألمانيا يسمى وضعانية في فرنسا. اكتسحت النظرية النقدية الألمانية أوربا كلها لكن بدرجات متفاوتة، في بلد كايطاليا حيث لم يكن هناك تقليد وطني راسخ اكتسحت الميدان و أصبحت هي النظرة القومية تحت قيادة كروتشه، أما في فرنسا فلا أحد ينكر تأثير المنهجية الألمانية على التأليف الفرنسي خصوصا عقب هزيمة فرنسا أمام القوة الألمانية الصاعدة سنة 1870م، فعندما تأسست المجلة التاريخية كان ذلك تقليدا واعيا للمجلات التاريخية

---

139. للمزيد راجع: كارل بوبر. بؤس الايديولوجيا. نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي. ترجمة عبد الحميد صبرة، دار الساقي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992م. والعنوان ترجمة غير دقيقة ل: بؤس التاريخانية أو عقم التاريخانية.

140. للمزيد راجع: كارل بوبر. أسطورة الإطار -في الدفاع عن العلم والعقلانية-. تحرير مارك نوترنو، ترجمة يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 292، ابريل/ مايو 2003.

141. عبد الله العروي . مفهوم التاريخ. م.س. ص347.

142. للمزيد بشأن التاريخانية يراجع: بول ريكور .الذاكرة التاريخ النسيان. ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي. بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة 1، 2009، ص ص561-542.
Alexandre Escudier. *Historisme/Historismus*. pp453-461.Historiographies.I.Concepts et débats. Folio histoire. Editions. Gallimard, 2010.

الألمانية[143].

التاريخانية الكلاسيكية «أُذْلُوجَةُ الفلاسفة» التي انتقدها كارل بوبر وليو ستروس تعد إحدى المعاني المتعددة لهذا المفهوم الذي «لا يمكن تلخيصه أبدا في إعادة تشكيله سيميوطيقيا»[144]. فهناك مفاهيم أخرى للتاريخانية مختلفة عن المعنى الذي أبرزناه بالنسبة للفلسفات الشبه العلمية التي ترى في التاريخ شكلا معينا من التطور، والتي تعود جذورها إلى اللحظة التي بزغت فيها فكرة تأسيس علم تاريخي. هناك استخدامات أخرى مختلفة عن المفهوم الألماني للتاريخانية الذي ساد خلال فترة معينة من القرن التاسع عشر واستمر إلى الثلث الأول من القرن العشرين، فتاريخانية عبد الله العروي مثلا تختلف عن النزعة التاريخانية الكلاسيكية للمدارس الألمانية[145].
هناك اليوم مصطلح التاريخانية الجديدة وهو مفهوم ولد بقلم الناقد الأدبي ستيفن كرينبلات المتخصص في أدب عصر النهضة، إنها مقاربة مختلفة ساهم فيها أيضا زملاء آخرون له، منذ ذلك الوقت و ابتداءا من سنوات 1980م التاريخانية الجديدة غزت الرسائل الجامعية في شُعَب الأدب بالجامعات الأنجلو أمريكية[146]. تفكيكية التاريخانيين الجدد تجذرت في قرَاءة هَايْدنْ وَايْتْ الذي قَدَّم بصددها مجموعة من الدروس بداية بالتركيز على الحكائية في مادة التاريخ، والتي فصَّل الحديث عنها في كتابه الميتاتاريخ[147].

143. عبد الله العروي.مفهوم التاريخ م.س. ص235/237.

.Alexandre Escudier. *Historisme/Historismus*. op.cit.p 453.144

145. تناول عبد الله العروي في الجزء الثاني من كتابه مفهوم التاريخ: المفاهيم والأصول.التاريخانية في الفصلين الثاني(التاريخانية ونقد المطلق صص367-347) والثالث (عودة المطلق أو نقد التاريخانية صص391-368) من القسم السادس. وللمزيد عن تاريخانية عبد الله العروي يراجع أيضا: عبد الله العروي. العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي،البيضاء1983م./ عبد الله العروي، الايديولوجيا العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1981م/ محمد سبيلا. «مفهوم التاريخانية عند عبد الله العروي» ضمن عبد الله العروي الحداثة وأسئلة التاريخ، إعداد عبد المجيد القدوري، عبد القادر كنكاي، قاسم مرغاطا، جامعة الحسن الثاني المحمدية،كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الطبعة الأولى 2007م/ عبد السلام بنعبد العالي. التاريخانية والتحديث دراسات في أعمال عبدالله العروي .دار توبقال، الطبعة الأولى، 2010م.

.Pascal Brioist. *New Historisme*. *Historiographies*. Concepts et Débats. Op.cit. p542 146

Ibid.p548 .147

الباب الثاني

خصائص الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر

الفصل الأول

الكتابة التاريخية إلى حدود القرن التاسع عشر

1.الكتابة التاريخية في أوربا القديمة

تُعد الأساطير الأصول الأولى لكتابة التاريخ. نجد في الكتب التاريخية الإغريقية امتزاج عالِم الحقيقة بعالم الخيال امتزاجا قويا في كثير من الأخبار، فالشخصيات الحقيقية أضْفت عليها الخرافات هالة أسطورية أو ملحمية كما هو الأمر بالنسبة لأشهر الملاحم البطولية في التاريخ. فالإلياذة والأوديسة المنسوبة للشاعر هوميروس تعد من أهم مصادر المعلومات عن تاريخ اليونان خصوصا ملحمة حرب طروادة، وهي تخلط بين الأحداث الواقعية والخيالية، تُـمَجِّدُ البطولة والأبطال عبر إبراز قواهم الخارقة وتصوير إنجازاتهم التي لا يمكن تصديقها إلا في عالم الأساطير. الأبطال في هذه الكتابات هم الفاعلون الحقيقيون في التاريخ، تُنْسَبُ لهم قوة خارقة توصلهم إلى مراتب الآلهة أو تضعهم في وضعية أنصاف آلهة، إن الأبطال في العصر القديم لهم قدرات ومعجزات متعددة.

كان الشعب اليوناني يؤمن بهذه الأساطير باعتبارها أحداثا تاريخية حقيقية وقعت بالفعل. فيختلط الخيال بالواقع بطريقة دراماتيكية. كل أمة من الأمم القديمة بدأت مسيرتها الإنسانية بمرحلة الأسطورة في تعبيرها الأدبي والتاريخي لأنها تعكس حاجيات ورغبات المجتمع، البطل يَعْكس من خلال الصفات المنسوبة إليه أحلام المجموعة البشرية في مواجهة القوى المعادية، وبالتالي تحقيق كيانها والشعور بذاتها[148]. كل جماعة أو أمة تاريخية عندما تسرد تاريخها لا تستطيع أن تتخلص بتاتا من نسج القصص حول ماضيها ومزج الخيال بالواقع، فيصبح التاريخ قصة مروية وتصبح القصص التي ينسجها خيال الأمة تاريخا[149].

148.فاروق خورشيد، محمود ذهني .فن كتابة السيرة الشعبية. منشورات اقرأ، الطبعة الثانية، 1980. ص22/30.

149. بول ريكور. الذات عينها كآخر. ترجمة وتقديم وتعليق د جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة لبنان. الطبعة الأولى، 2005، ص661.

يعتبر كتاب السيروبيديا (le cyropédie) و المخلدون(les mémorables) لكزينفون وكتاب السير المتوازية (les vies parallèle) لبلوتارك Plutarque (حوالي46م- 120 م) تآليف عن سير حياة شخصيات عظيمة في التاريخ.لم ينفك تأثير هذه الكتب يتعاظم في كتابات القرون الوسطى، فهي الأساس الذي بُنِيَتْ عليه بعض الوجوه و الطرائق الفنية التي يتعين أن يتقيد بها وينسج على منوالها كل من تاقت نفسه أن يتناول قصة حياة شخص ما.

بلوتارك كغيره من المؤرخين السابقين أمثال هيرودوت (484 ق.م- 425 ق.م) نسب إلى بعض الملوك القدرة على الشفاء من الأمراض والقدرة على إيقاف الأوبئة والتحكم بالرياح، و أورد في هذا الصدد العديد من الرؤى والخوارق والكرامات. نسجل هنا ملاحظة مهمة أشارت إليها سابينا لوريكا Sabina Lor:ga وهي أن المؤرخ تيوسيديد (460ق.م-395ق.م) صاحب كتاب حرب البلوبونيز وبخلاف بلوتارك ظل متحفظا إزاء بعض الكرامات كما عبر عن امتعاضه من السيرة، ولم يعطي لها الأهمية القصوى[150]. لقد تفوق تيوسيديد على هيرودوت لأن هذا الأخير نهج في كتابه أسلوب القصة التاريخية، وكان يهدف من وراء ذلك إحاطة الأعمال العظيمة بسياج من المجد لا يتسرب إليه النسيان[151]. أما تيوسيديد فقد تناول المسائل التاريخية بروح مختلفة عن روح هيرودوت، فتخلى عن إتباع الأسلوب القصصي، واستبعد الأساطير والخرافات مفضلا السرد المتزن[152].

اهتمت الكتابات التاريخية في العصور القديمة بتاريخ الرجال العظام والأبطال الكبار من رجال الحكم والساسة و الوزراء والقادة العسكريين. البطل في هذه السير هو الصانع الوحيد للتاريخ. ذلك ما آمن به المؤرخون الأقدمون في بلاد الإغريق وروما، فقد سادت نظرية الرجل العظيم في الكتابات التاريخية و استمرت بصماتها في الكتابات اللاحقة. سِيَرُ العظماء ظلت تحتل مكانة مركزية تبوأتها منذ النشأة الأولى، وإلى حدود أواخر القرن التاسع عشر، فبوركهارت(1881م-1897م) Burckhard المؤرخ السويسري في كتابه تأملات في التاريخ الكوني أشاد بأعمال وإنجازات

150. الفرق بين التاريخ والبيوغرافيا أو الحد الذي يفرق بينهما كان دائما غير واضح، فتيوسيديد لم يعطى الأهمية للبيوغرافيا خلافا لبلوتارك وهيرودوت انظر: Sabina loriga «*biographical and historicale writhing in the 19th and 20th Centuries*» Transitions to Modernity Colloquium.The MacMillan Center. .Yal University. 02/18/2008. p2

151. ر.ج .كولنجوورد فكرة التاريخ. ترجمة محمد بكير خليل مراجعة محمد عبد الواحد خلاف، الطبعة 2، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1968 ص58/ 71.

152. هاري المر بارنز. تاريخ الكتابة التاريخية. الجزء1، ترجمة محمدع الرحمان برج، مراجعة سعيدع الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص51.

العظماء في التاريخ، القراء بدورهم تستهويهم وتشد انتباههم باستمرار الشخصيات الفذة الشهيرة باعتبارها شخصيات خارقة للعادة.

شكلت الكتابات اليونانية القديمة جزءا من تاريخ وذاكرة هذه الشعوب، الأعمال الخارقة التي تم تدوينها والتركيز عليها تدل على همة الفاعل وقوته الأسطورية، ولذلك فهي تستحق أن تبقى إلى الأبد راسخة في ذاكرة الأجيال القادمة، يومها كانت حياة الفرد تمثل جانبا مهما من تصور الناس للتاريخ، وإيمانهم بأن الفرد قادر على صنع المعجزات والبطولات، و لذلك تَرَكّزَ الاهتمام على الشخصيات الفذة وليس على الوقائع والأحداث. على نفس المنوال استمرت هذه الرؤية في الكتابات المناقبية للعصور الوسطى، حيث كثرت الهجيوغرافيات (سير القديسين) التي احتلت منذ ذلك الوقت في مجال التاريخ والأدب مكانا مرموقا.

بين جميع أشكال التأليف التاريخي ازدهر فن السيرة خلال هذه الفترة، فالمكانة الهامة المخصصة للفرد في الاسطوغرافيا القديمة الإغريقية والرومانية ساهمت بشكل واسع في ازدهار هذا النوع من الكتابات، نجد في أغلب المؤلفات التاريخية لهذه الفترة حضور الأعمال الجليلة للرجال العظماء[153]. كان التاريخ يتجسد في الأبطال وهو الأمر الذي لاحظه ديلتاي.كان ينظر إلى السيرة كأعلى درجات التأليف باعتبارها الأكثر فائدة في مجال الوعظ وتهذيب الأخلاق، اختصرت مهمة الكاتب في البحث عن الحقيقة في حياة الإنسان، من خلال الكشف عن مواهبه وإظهار أسرار عبقريته عبر تتبع مسار حياته من خلال التركيز على الأحداث التي واجهها في محيطه و الأثر الذي خَلّفَه. قامت السيرة بتأدية هذا الدور المقدس (التخليد و التجسيد) في المجتمع عن طريق خلق الحياة من جديد في حياة الإنسان الميت، عبر تدوين سيرته باعتباره نموذجا للاقتداء والتقليد. لقد كان ذلك غاية ما سعى إلى تحقيقه كزينفون في شأن معلمه سقراط، حيث وضع كتابه المخلدون، و قد حالفه التوفيق، إذ أن ذيوع صيت وشهرة الفيلسوف سقراط الذي أعدم بالسم بعد إدانته بالهرطقة إلى عصرنا اليوم يعود الفضل فيه إلى هذا الكتاب.

يؤكد مؤرخو العصور القديمة أن عادة تأبين عظماء الرجال بعد موتهم تخليدا لذكراهم و تأليها لهم وصونا لهم من الفناء انتشرت في روما و في مصر القديمة أيضا. و مهما يكن من أمر فإن مما يؤخذ على كُتّاب السيرة والتراجم في القرون الوسطى

153. لا تخلو أي صفحة من صفحات المؤلفات التاريخية الاغريقية والرومانية من البيوغرافيا وتمجيد الرجال العظام. نجد ذلك عند بلوتارك، ديوجين لارس، سالوست، تيت ليف، بوليب. شيشرون.....راجع للمزيد بهذا الخصوص: بول جال. «البيوغرافيا والتاريخ في روما القديمة». ترجمة عبد العزيز بل الفايدة، مجلة أمل، العدد7، السنة الثالثة، 1996م .من ص71 الى 81.

عموما نمط الكتابة الذي ظل على حاله، و بالمكونات نفسها. كان الهدف الأساسي إبراز شخصية القديس من خلال التركيز على مناقبه وقدراته الخارقة على الإتيان بالأعمال العجيبة، وعلى صنع الأحداث والتأثير في مسارها. فشخصية القديس اكتسبت في الذهنية الجماعية آنذاك خاصيات تفريدية، وفي كل هذه المواضيع يكتشف القارئ أنه أمام قصص نمطية تعيد بوضوح نفسها. إنها علامات لا تخلو من منحى استعاري حسب تعبير الأستاذ عبد الأحد السبتي.

2.الكتابة التاريخية في القرون الوسطى

احتلت السير التاريخية دورا كبيرا في الكتابة التاريخية على عهد آباء الكنيسة المسيحية، كانت أول خطوة في هذا المجال هي الأجزاء الأولى من كتاب التاريخ الكنسي لاوزبيوس القيصر Eusebius (263م – 310م)، سرد فيه حياة رجال الكنيسة المرموقين و أعمالهم. غير أن أول تجميع رسمي للسير المسيحية الشهيرة كانت في كتاب مشاهير الرجال الذي كتبه القديس جيروم Saint Jérôme (342م – 420م) في بيت لحم سنة 392م، ضمت محتويات هذا الكتاب أزيد من 130 فصلاً، في كل فصل عرضٌ لسيرة و أعمال كاتب أو راهب مسيحي. لقد مضى على منوال جيروم كُتَّاب مسيحيون مشهورون أمثال جيناديوس Gennadius(ت 496م) الذي ألف سنة 480م كتابا بنفس الاسم السابق مشاهير الرجال، وهو يعتبر ذيل و تكملة لعمل جيروم لكنه أقلٍّ أهميةً مِنْهُ. استمرت العناية بالسير و التراجم خلال فترة القرون الوسطى و لم نشهد قطيعة مع الممارسات السابقة، إذ ظلت كتابة السيرة ذات بعد تربوي وأخلاقي، خاضعة بشكل مطلق لرجال الدين و هيمنة الكنيسة. انتعشت خلال هذه الحقبة بالخصوص سير حياة القديسين بما تحمله الكلمة من تمجيد و مديح و تخليد، إنه عصر كتابات مناقب الرهبان والزهاد بامتياز، تم تسخير مقاصد هذه السير تبعاً للقيم الأخلاقية التي يراد إيصالها لأفراد المجتمع. يعتبر المؤلف الذي وضعه الراهب يوحنا ثرثميوس Johannes Trithemius (1462م-1516 م) باسم الكُتَّاب الكنسيين، والذي جمع فيه 963 ترجمة لرجال الكنيسة نموذجا لهذا النوع من الكتابات، اتصف بطابع السذاجة و الخرافة، فَهُوَ من أكثر الساردين إيمانا وتعلقا بالخوارق والمعجزات [154].

ما تتضمنه السير والمناقب من أخبار وروايات لا تمنحنا الصورة الحقيقية لحياة الفرد، فهذه المصنفات لا تهتم أساسا بالمعطيات البيوغرافية للشخصيات التي

154. هاري المر بارنز.تاريخ الكتابة التاريخية.الجزء1م.س.ص79.

تَرجمت لها، بقدر ما يستهويها التركيز على الجوانب المرتبطة بالعظة والاقتداء من خلال الإفراط في الإطراء والتبجيل وتعداد مختلف الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة والمناقب الاعجازية التي تضفي على الشخصية المترجم لها طابع القدسية والصلاح، لقد أصبحت الكتابة التاريخية أخلاقية وذات أهداف تعليمية ووعظية، ويتجلى ذلك بالخصوص من خلال سير الزهاد والقديسين التي اقترنت بالفضيلة والمثل العليا، إنه تاريخ أخلاقي بالدرجة الأولى، يَمتدح الفضائل ويَذُمُّ الرذائل، مقدما للناس أمثلة صارخة على ذلك. هيمن هذا النوع من السير في أوربا خلال العصور الوسطى، خلالها تصدر الكتابة رجال الكنيسة والرهبان بدافع الولاء للاتجاهات الدينية المسيحية التي ينتمون إليها، طغى على هذه الكتابات طابع التمجيد والحماس الديني.

السير في العصور الوسطى بصفة عامة كانت ذات صبغة تعليمية وأخلاقية، اتجه مؤلفوها نحو الوعظ والتذكير بالقيم الإلهية،كما طغت عليها العاطفة والقداسة. وهذا أحد أهم مكامن ضعف كتابات سير القرون الوسطى، ركزوا على المناقب والكرامات والخوارق والنبوءات في حياة القديسين والناسكين والزهاد والسائحين، وجعلوها نماذج ليس فيها من حياة الشخص المتَرْجَمِ له إلا اليسير من الحقيقة التاريخية.

لابد إذن من قراءة تاريخية جديدة تتوخى إزالة مختلف الترسبات الخرافية والأسطورية ذات الملامح غير قابلة للإدراك، والتي تشكلت عبر الزمن بفعل العملية الخيالية التي ساهم الرواة في تشكيلها، وذلك بهدف الوصول إلى بعض الملامح الحقيقية والواقعية لهذه الشخصيات كما هي في التاريخ. لابد من قراءة نقدية وواعية لمختلف هذه الكتابات، عبر اعتماد طرق التمحيص الحديثة، والعمل من أجل تشكيل نسيج فني من حياة المترجم له، كما يجب استثمار هذه السير والتراجم وجعلها مدخلا أساسيا لاستنباط جوانب من التاريخ الفكري والأدبي والديني والسياسي، خاصة وأن هذه الألوان من الكتابات تدخل في إطار اهتمام دائرة كبيرة من القراء، تتجاوز عشرات المرات حجم دوائر المهتمين بالقصيدة أو القصة.

هذا النمط من الكتابة لم يكن الوحيد في الغرب، بل كانت سير العظماء والملوك تسير جنبا إلى جنب مع سير القديسين والزهاد المسيحيين، فخلال القرن الرابع عشر الميلادي تحقق الاتحاد بين طبقة النبلاء ورجال الدين الاكليروس من أجل الحفاظ على النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم، وقد اعتمد الملوك بالدرجة الأولى على الرهبان لكتابة التاريخ، وقد تكفل هؤلاء «الكُتّاب» بتمجيد النبلاء ومدح سادة

الإقطاع، وذلك من خلال التركيز على ذكر شجاعتهم وبطولاتهم. لقد شكلوا فئة مندمجة بشكل كامل في بنية النظام القائم، وحتى عندما ازدهرت مؤسسة المؤرخ الرسمي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في الغرب بكامله، بقي الخلط الذي يتخبط فيه التاريخ واضحا رغم تحقيقه نوعا من الاستقلالية[155]. لقد قام مؤرخو التاريخ الوسيط أثناء تبعيتهم للسادة الإقطاعيين بنقل الخطاب التمجيدي من المجال الديني إلى المجال السياسي، وقد عبر برنارد جيني عن ذلك بقوله إن التاريخ فعلا «حصل على استقلاليته الذاتية، لكنه لم يتوقف عن خدمة الكنيسة إلا ليدخل في خدمة الدولة». ويستطيع المرء أن يرى روح عصر النهضة بعد ذلك في تراجم وسير القرن السادس عشر مثلما يتضح ذلك في تاريخ الملك ريتشارد الثالث الذي ألفه توماس مور Thomas More (1478-1535م) [156].

في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر شهد العالم الأوربي نهضة فكرية وفنية ودينية، انتقد خلالها دعاة الإصلاح الديني من البروتستانت انحرافات الكنيسة الكاثوليكية، وسعى الإنسيون جاهدين إلى التخلص من حياة وفكر العصر الوسيط عبر إحياء التراث اليوناني والروماني القديم. وقد مثلت الكتابة التاريخية جزءا من عملية هذا الإحياء، فقد توسع حقل التدوين التاريخي خارج رجال الاكليروس، وحل الحدث السياسي ومسؤولية الحكام محل المشيئة الإلهية وتدخل القديسين فيها. ولعلِ أول مَنْ مَثَّل هذا التحول في الفكر السياسي والتاريخي الأوربي كتابات نِيكولاَمِيكْيَافِلْلي (1469-1527م) وجَانْ بُودَانْ (1530-1596م) وطومَاسْ هُوبْز (1588-1679م)، فقد تحول التاريخ إلى دراسة لسياسات الحكام والملوك، فأضحى جزءا من السياسة المدنية وحقلا يفيد في ممارسة السلطة[157].

وقد تزامنت هذه التحولات مع التغيرات الجديدة التي عرفتها أوربا بصفة عامة. فقد تفككت أسس النظام الاقطاعي تدريجيا، وازداد دور المدن في الحياة السياسية والاقتصادية، ومعها انتعشت الطبقة البرجوازية التي بدأت تتطلع الى السلطة لحماية مصالحها التجارية. إن انتشار الفكر القومي وبداية تشكل نظام الدولة الحديثة مع نهاية القرن السادس عشر ساهم في هذا التغير، فالدولة الحديثة بدأت تنفصل شيئا

155. Bernard GUENEE. *Histoire et culture historique dans l'Occident médiéval*. Paris, Aubier Montaigne, 1980.p366

156. توماس مور: قديس وكاتب، صاحب الكتاب الشهير اليوتوبيا، عارض طلاق الملك هنري الثامن من زوجته الأولى كاثرين اراغون، ورفض الاعتراف به رئيسا للكنيسة الكاثوليكية الرومانية في انجلترا، أُلقِيَ عليه القبض وحوكم بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى، قطع رأسه في لندن سنة 1535م.

157. وجيه كوثراني. تاريخ التأريخ اتجاهات - مدارس - مناهج. المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى 2012م، ص147.

فشيئا عن الفكر الديني وترتكز على المذهب العقلاني، وحلت السلطة المدنية محل السلطة الدينية، وأصبح الولاء أولا وأخيرا للحاكم وللسلطة الملكية ولمؤسسات الدولة[158].

إلى حدود القرن السابع عشر ظَلّت سير الفرسان والأبطال الملوك تحتل الجزء الأكبر من اهتمامات الكتاب، لكن بشكل أقل حدة بالمقارنة مع الفترة السابقة. تَمّ التحرر نسبيا من الكتابات التي تركز على الشخصيات الجسام وعلى مفهوم العناية الإلهية، إلا أن الخطوط العريضة لهذا النمط التقليدي ظلت حاضرة في بعض الكتابات التاريخية، ولم تتراجع بشكل نهائي إلا بعد قيام الثورة الفرنسية، حيث خفت بشكل كبير التأثيرات الدينية والمنقبية في كتابة التاريخ. ففي مرحلة القرن الثامن عشر الميلادي يعتبر مُونْتِسْكْيُو أول من حرر التاريخ من التصورات الميتافيزيقية، استبعد دور المصادفة والحظ، و دافع عن وجود عوامل وقوانين متنوعة تؤثر في تواريخ الأمم، كالمناخ، والموقع الجغرافي، والمذهب الديني، ونوع الأخلاق. تواريخ جميع الأمم لم تَعُدْ تَشَكّل في نظره «سوى تتمة، وكل قانون خاص يرتبط بقانون آخر أو يتعلق بقانون أعم»، هذا هو اكتشاف مونتسكيو :«لا ابتداعات تفصيلية، بل مبادئ شاملة تسمح بفهم كل التاريخ البشري و كل تفاصيله»[159]. اهتم فُولْتِيرْ بدوره خلال نفس الحقبة بدراسة التاريخ كحقل جديد يتخطى فيه البحث التاريخي سيرة الأمراء والوزراء والجنرالات، لينفتح على مجالات السكان، والأخلاق، والاقتصاد، والتجارة، والصناعة لدى الأمم والشعوب. سنتعرف مع هذا الفيلسوف على مفهوم تاريخ الأمم كبديل عن تاريخ الملوك والبلاطات، إن التاريخ في نظر فولتير هو التاريخ الاقتصادي والديموغرافي وتاريخ التقنيات وتاريخ العادات، وليس فقط التاريخ السياسي والعسكري والديبلوماسي، وهو أيضا تاريخ الأمة، وليس فقط تاريخ الملوك والعظماء. إنه تاريخ البُنَى وليس فقط تاريخ الأحداث، إنه التاريخ الكلي، هذا المشروع كان الإنطلاقة الأولى للتاريخ الجديد، وقد تعهده كل من شَاتُوبْرِيَانْ وغِيزُو خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بالرعاية، ولهذا عَدَّ جَاكْ لوغوف

158. بشأن الأسس الإجتماعية والإقتصادية للدولة الأمة في أوربا يراجع: جان جاك شوفاليه، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،1985 وأيضا: Georges Burdeau. *L'Etat*. Seuil. Paris.1970

159. لوي التوسير . مونتسكيو: السياسة والتاريخ. ترجمة نادر ذكرى التنوير ،دار التنوير للطباعة والنشر بيروت، ودار الفارابي،بيروت ص41. للمزيد راجع الفصل الثالث من الكتاب المعنون ب ديالكتيك التاريخ من ص41 إلى ص 58.

هؤلاء الثلاثة من الآباء الأوائل «للتاريخ الجديد»[160]. لقد أزاحت في العصر الحديث كتب التاريخ الطبيعي الكلاسيكيات مِنْ على رفوف مكتبات النبلاء والبرجوازيين الأثرياء، وجميع الدراسات تشير إلي هبوط كبير في الأدب الديني أثناء القرن الثامن عشر، هذا ما أكدته دراسات فْرُنْسْوَا فورِيه ومِيشِيل فُوفِيل[161]. فخلال هذه الفترة التي أطلق عليها عصر الأنوار بفرنسا لم يعد يحتفى بالأبطال، ففولتير دعا إلى ضرورة الاهتمام بتاريخ البشر بدلا من معرفة جزء ضعيف من تاريخ الملوك والبلاطات والمعارك. فسواء كان الحدث معركة أو معاهدة سلام أو تتويجا أو زيارة سفير، فليس هناك في نظر شخص مثل فولتير من حدث إلا الحدث السياسي، وهكذا فهو يدأب على تجاوز هذه الرؤية الانفرادية للتاريخ، على دمج تغيرات السكان، والاقتصاد، والأخلاق، والقوانين[162].

160. جاك لوغوف . التاريخ الجديد .م.س ص98/99/106. يتساءل فرانسوا دوس في التاريخ المفتت: أي جديد جاءت به الحوليات حقيقة،سوى تحقيق برنامج كان موضوعا منذ القرن الثامن عشر.م.س ص144.

161. روبرت دارنتون. تاريخ القراءة ضمن نظرات جديدة على الكتابة التاريخية 2 تحرير بيتر بوركي ترجمة وتقديم قاسم عبده قاسم، سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين عدد 1591،الطبعة الأولى 2010، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ص221.

162. كريستوف بوميان . نظام الزمان. ترجمة بدر الدين عردوكي المنظمة العربية للترجمة،لبنان، الطبعة الأولى 2009. ص42/43/97.

الفصل الثاني

المدرسة المنهجية وكتابة التاريخ

1.المؤرخون والحقيقة التاريخية

بدأت تُطْرَحُ الحدود بين التاريخ والعلوم الحقة بحدة مع بروز هيمنة النموذج العلمي الفيزيائي والرياضي، حتى أن بعض المؤرخين سعوا إلى إعطاء التاريخ معنى علميًا، وَطمحوا للوصول إلى فيزياء اجتماعية عبر إقرانه بالعلوم الدقيقة تحت تأثير العلمية الفيزيائية التي سادت في أوربا خلال تلك المرحلة. جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية سعت إلى اقتباس هذا النموذج، رغبة في جعل الإنسان والمجتمع بكل أبعاده موضوع دراسة علمية على غرار ما يجري في الظواهر الفيزيائية والرياضية، وقد أدت هذه النزعة إلى ظهور اتجاهات وضعية قوية كما هو الحال في السوسيولوجيا وعلم النفس. عرف التاريخ بدوره انتشار هذه النزعة التي كان لها دور كبير في ضبط وتقنين المنهجية التاريخية خاصة مع المدرسة المسماة منهجية أو وضعانية، ابتداءً من المؤرخ الألماني ليوبولد فان رانكي Léopold Von Ranke مرورا بالمؤرخ الفرنسي كابرييل مونود Gabriel Monod، ثم فيما بعد شارل لانغلوا Charles Langlois وشارل سينوبوس Charles Seignobos [163]. لقد طمح هذا التاريخ في ثوبه التقليدي إلى إثبات العلاقات (علاقة العلية، أو التحديد الدائري، أو الصراع أوالتعبير) التي تربط الوقائع والأحداث في الزمن، فسلسلة الوقائع معطاة، ولا يبقى إلا تحديد العلاقة التي لكل عنصر منها بالعناصر المجاورة له[164].

أخذ الوضعانيون منهج الطبيعيات كمثال يحتذى، حاولوا تطبيقه حرفيا في التاريخيات بدعوى أنه المسلك الوحيد الذي يضمن موضوعية المعرفة، إنه تاريخ

---

163. محمد العيادي . «المدارس التاريخية الحديثة ومسألة الحدود بين العلوم الاجتماعية». مجلة أمل التاريخ الثقافة المجتمع العدد 15.ص26/27.

164. ميشيل فوكو. حفريات المعرفة. ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، الطبعة الثانية، ص9.

وضعاني أسس أحكامه على الوثيقة الملموسة كما أن عالم الطبيعيات يجري تجاربه على المادة المحسوبة. ولذلك وسمه عبد الله العروي بأنه تاريخ تاريخاني، لأنه لا يعرف أي عامل في ميدان التاريخ سوى المسَجَّل أمامه في الوثيقة[165].

لقد حدث جدل كبير بين ممتهني التاريخ و الابستمولوجيا حول مسألة مدى علمية التاريخ، فمنهم من ينفي صفة العلمية عنه باعتبار أن العلم يفيد المعرفة اليقينية الدقيقة بحقيقة الشيء. و منهم من يرى أن التاريخ هو تلك المعرفة العلمية بشؤون الماضي، وأنه بالإمكان نقل مناهج العلوم التجريبية إلى حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية، نظرا لأوجه التشابه بين علم التاريخ و علوم الطبيعة، فالمنهج التاريخي هو نفسه المنهج المطبق في العلوم الحقة الأخرى. أما المؤرخون الذين ينفون صفة العلمية عن التاريخ فيرون أن علوم الطبيعة وحدها قابلة للتفسير والتعليل، لأنها تقوم على التجربة والملاحظة و الاستقراء و المقارنة، وذلك خلافا للعلوم الإنسانية ومن ضمنها التاريخ، والتي لا تخضع إلا للفهم والتأمل. ويُقْصَد هنا بالتفسير النهج التحليلي الذي يقوم على إبراز العلاقات السببية بين الظواهر، في حين أن الفهم نهج تركيبي يرتكز على تأويل النوايا البشرية عبر استعمال أساليب التفكير الفلسفي، باعتبار أن الحقيقة البشرية الماضية ليست معطيات.واضحة يستطيع المؤرخ الكشف عنها وعرضها بطريقة تامة وكاملة، بل المؤرخ في الواقع يقوم بمساءلة تلك الحقيقة وإعادة ترتيبها وتنظيمها وبنائها من جديد في إطار تسلسل زمني، وربطها بعلاقات منطقية وسببية، فينتهي بذلك إلى تركيب الأحداث التاريخية.

ثم إن هذا الجدل استمر بين أنصار علمية التاريخ ومناوئيهم، وقد ظهر ذلك جليا في القرن التاسع عشر، حيث منح مؤرخو المدرسة المنهجية للتاريخ صفة العلم، باعتبار أن التاريخ لا يتم إلا بالوثائق، وبما أن الوثيقة هي الشاهد الوحيد على أحداث الماضي فإن التاريخ علم.

إذا كان الهدف الذي تسعى إليه الكتابة التاريخية هُوَ الوصول إلى الحقيقة التاريخية كما حدثت في الماضي انطلاقا من الوثائق، فإن السؤال الذي يفرض نفسه بقوة هو عن ماهية هذه الحقيقة. هل الحدث التاريخي الذي يكتبه المؤرخون يعبر حقيقة عن ما حدث بالفعل؟ أم أن الواقعة التاريخية من صنع مخيلة المؤرخ وحده وبالتالي فهي تخضع للاختلاف والتعدد؟.

اذا كان مؤرخ المدرسة المنهجية ينطلق في أبحاثه من الوثيقة «تحقق أولا من الوقائع ثم قم باستخلاص نتائجك منها» فإن المؤرخ الحالي هو الذي يضفي «صفة

165. عبد الله العروي. مفهوم التاريخ.م.س. ص11/236.

الوثيقة على هذا المصدر أو ذاك. تساؤلاته هي التي تدفعه إلى الاحتفاظ بنوع من الوثائق وترك الأخرى جانبا، فهو لا يحشر نفسه في موقف استقرائي»، بل يقوم بجمع الوثائق، ويعمل على تنظيمها وتوزيعها وترتيبها وفرز الملائم منها، ثم يقوم بطبخها، ومن ثم يقدمها بالأسلوب الذي يروق له.[166]

إن المؤرخ يلجأ إلى انتقاء مصادره ووثائقه، فهو يقوم بعملية اختيار، مما يطرح أسئلة عديدة حول نوعية الوثائق التي اعتمد عليها، عن مدى مصداقيتها، ومن كتبها، وهل هي رسمية أم غير رسمية، ثم يقوم باختيار وثائق معينة على حساب أخرى، ربما فقط لتعزيز نتائجه لكي تتوافق مع فرضياته المطروحة مسبقا.

إن مثل هذه الأسئلة وغيرها تجعلنا على يقين تام من أن المؤرخين لا يقدمون الحقيقة باعتبارها موضوعية، لأنه لا يمكنهم بتاتا أن يكتبوا تاريخا حقيقيا عن ما وقع بالفعل، فثقافة المؤرخين ومنهجيتهم وتوجهاتهم الفكرية والثقافية تلعب دورا كبيرا في صناعة الحدث التاريخي وفق رؤيتهم. يقول البروفيسور أوكشُوت «التاريخ هو تجربة المؤرخ، إنه ليس من صنع أحد سوى المؤرخ، وكتابة التاريخ هي الطريقة الوحيدة لصنعه»[167]. فالتاريخ لا وجود له إلا في ذهن المؤرخ، لأن الماضي زال وانقضى، وأخباره الموجودة في الكتب هي من صنع المؤرخ فقط، ومن ثم لم تعد الوثيقة تلك المادة الجامدة المقدسة التي يحاول المؤرخ الوصول بفضلها إلى ما تم بالفعل في الماضي، إنه من المستحيل ومن غير الممكن إدراك الماضي كما كان بكل تفاصيله وحيثياته الدقيقة، وإنما كما نتوهم أنه كان[168]، إن القول بإمكانية القدرة على مطابقة الماضي الأصلي أمر خاطئ، فالمؤرخ يقوم بإنتاج وبناء الوقائع التاريخية كما يتصورها، أما الحقيقة التي حدثت في الزمن السابق فلن تتكرر أبدا، لأنه من المستحيل إعادة حقيقة الماضي في الحاضر، لأننا في الكتابة التاريخية نكون أمام الصورة وليس الواقع، فأصحاب العلوم الحقة وحدهم قادرون على تكرار تجاربهم مرة أخرى. وقد عبر درويزن في نهاية إحدى محاضراته التي ألقاها سنة 1882م عن هذا الفرق بين التاريخ والعلوم الطبيعية بقوله «نحن لا نستطيع بخلاف العلوم الطبيعية أن نستخدم التجريب، نحن نبحث فقط، وكل ما نستطيع فعله هو أن نبحث»[169]. إن المؤرخ

---

166. ادوارد كار . ما هو التاريخ. ترجمة ماهر كيالي وبيار عقار، الطبعة الثانية، 1980، لبنان ، ص7/8.

167. نفسه ص23.

168. قسطنطين زريق. نحن والتاريخ. الطبعة الثالثة ، بيروت، لبنان،1974م، ص57.

169. جورج غادامير. الحقيقة والمنهج-الخطوط الرئيسية لتأويلية فلسفية. ترجمة حسن ناظم، علي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية جورج كتوره،دار اويا للطباعة والنشر، طرابلس،ليبيا،الطبعة الأولى، 2007م، ص308.

يتحدث «عما لن يراه المرء مرتين أبدا»[170]، فليس بالإمكان لأي شخص أن يسبح في نفس النهر مرتين وفي نفس الماء، وبالتالي فإن المؤرخ يقوم بإعادة بناء الحدث من زاويته، فالتاريخ بهذا المعنى هو نتاج عملية بحث و بناء، الذي يَدْرُسُ التاريخ هو الذي يصنعه، وعليه فإن الحقائق التاريخية لا يمكنها بتاتا أن تصلنا كاملة، فالتاريخ هو رواية للأحداث الماضية، وبما أنه رواية للأحداث فلن يُسْتَطَاعَ بعثُ الحياة بتفصيلاتها جميعا، ولذلك نجد اختلافا بين الروايات ومضامين الكتب التاريخية من مؤرخ لآخر حول نفس الواقعة التي يعاد اكتشافها واستعادتها باستمرار. إننا هنا أمام وضعية شبيهة برواية الشهود في فيلم المخرج الياباني اكيرا كوروساوا Akira kurosawa بعنوان راشومون Rashomon. الفيلم يحكي قصة قاطع طريق يعترض ساموراي في بستان ويقيده، ثم يجلب زوجة الساموراي ويغتصبها أمامه، الأحداث شُوهدت من قِبل الحطاب في البستان. في وقت لاحق وُجِدَت جثة الساموراي قتيلا، وفي مشهد المحاكمة كل شخص متورط في الحدث يُقَدِّمُ رواية مختلفة لما جرى. يقول قاطع الطريق إنه قتل الساموراي بعد معركة شرسة، وتقول الزوجة إنها قتلت زوجها في نشوة ناجمة عن تحديق زوجها المفعم بالكراهية. ويقول الساموراي متحدثا عبر وسيط أنه انتحر لأنه كسير القلب، ويقول الحطاب إن المعركة بين قاطع الطريق والساموراي كانت مثيرة للشفقة لأن كل واحد منهما كان خائفا من الآخر. يثير الفيلم مشكلة تنطوي على مسألة ماذا يمكننا أن نعرف من الحقيقة. هل يمكننا أن نعرف بالفعل ما حدث في ذلك البستان؟[171]

هناك آلاف الطرق التي نبني بها الماضي وليس طريقة واحدة، لأن البحث التاريخي يعتمد على الخاصية التالية «اجمع وقائعك أولا ثم قم بتحليلها، وأقحم نفسك في خطر رمال التأويل والتفسير»[172]. إن هذه العبارة توضح لنا بشكل واضح أنه لا يمكن عمليا كتابة التاريخ كما تم فعلا وبشكل مطابق لما وقع في الماضي ولكن كما نعتقد أنه كان. ادعاء المؤرخين القدرة على إعادة تصوير التاريخ ووقائعه بالطريقة التي حدثت في الماضي من خلال استعادة ووصف ما وقع أمر مستحيل التحقق. إن الأمر أشبه ما يكون بإعادة مباراة في كرة القدم بين فريقين بنفس الطريقة والأسلوب،

170. بول فاين. أزمة المعرفة التاريخية-فيكو وثورة في المنهج. ترجمة وتقديم إبراهيم فتحي، الطبعة الأولى، مدار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون، القاهرة، 1993م، ص20. وهو ترجمة غير دقيقة لكتاب: Paul Veyne. *Comment on écrite l'histoire .suivi de Foucault révolutionne l'histoire*. Éd. seuil. paris 1971-1978..

171. ارثر اسا بيرغر. وسائل الاعلام والمجتمع وجهة نظر نقدية. ترجمة صالح خليل أبو إصبع. عالم المعرفة، مارس 2012، العدد 386. ص63/64.

172. ادوارد كار . ما هو التاريخ. م.س. ص14.

وهذا أمر مستحيل، فالتاريخ لا يعيد نفسه مرتين، لأنه محدود في الزمان والمكان، ويتجه دائما إلى الأمام دون تكرار أو رجوع إلى الوراء.

وإذا كانت بعض التوجهات التاريخية حاولت التأكيد بكل ما أوتيت من قوة على أن الحدث التاريخي يمثل للمؤرخ ما تمثله الخلية للبيولوجي والذرة للفيزيائي، وأن التاريخ علم مطلق مثله مثل باقي علوم الطبيعة الأخرى يخضع لقوانين ثابتة وقوى متميزة يمكن قياسها وتحديدها، فإنه بالمقابل هناك من يشكك كثيرا في هذا الطرح، خصوصا المؤرخين الجدد الذين يعتبرون أن التاريخ يختلف عن العلوم التجريبية الأخرى التي تعتمد على الملاحظة والتجربة، فالتاريخ ليس تلك الفيزياء العلمية ولن يَكونها أبدا، ومن ثم لا يمكن أن يُطلقِ اسم العلم على أي بحث نظري إلا إذا أمكن استخدامه للتنبؤ بالمستقبل، أي إلا إذا مَكنَنَا من الكشف عن بعض العلاقات أو القوانين العامة التي يمكن تطبيقها على الظواهر، ولا شك أن هذا الشرط لا يمكن تحققه في التاريخ، لأنه من العسير القول إن المؤرخ يستطيع استخلاص القوانين العامة التي تمكنه من التنبؤ بالحوادث قبل حصولها [173]. إن مثل هذا الطرح توارى حاليا ولم يعد يخلف إلا أثرا هشا ومحدودا، فبعد جهود دامت أزيد من قرن من الزمن فشلت مساعي جعل التاريخ علما، لأنه لا يوجد علم تاريخي وإنما وجهات نظر متعددة.

2. تقديس الوثيقة

القرن التاسع عشر هو قرن التاريخ[174]، تحرر فيه من الفلسفة ومن اللاهوت، إنه بزوغ لشكل جديد من الكتابة التاريخية فرض نفسه على الساحة وقضى على ما بقي من تأثيرات الأدب. في القرن التاسع عشر أصبحت الممارسة التاريخية أكثر احترافية ومهنية، أضحى لها طرقها وأساليبها الخاصة، في هذا القرن بدأ التاريخ يستقل على المستوى الأكاديمي، بنى لنفسه مكانة متميزة في حقل العلوم الإنسانية بأقسامه المتعددة في الجامعات وبمجلاته المتخصصة. اعتبر مؤرخو المدرسة المنهجية أنفسهم أقرب من أي وقت مضى لعلماء الطبيعة، مدشنين بذلك قطيعة نهائية مع الأدب والفلسفة التي أصبحت بدورها تتكون في إطار تخصصي خاص بها. فالتاريخ أصبح يعتمد بشكل أساسي على الوثائق. والمؤرخ المحترف تخلص بشكل كامل مما كان

173. ادريس فاخوري. مدخل لدراسة مناهج العلوم القانونية. الطبعة الأولى،2003، مطبعة الجسور، وجدة، المغرب ص34.

174. على سبيل المثال في سنة 1874م احتلت الأبحاث التاريخية بفرنسا المرتبة الثانية بعد الآداب بنسبة 10.1% من مجمل الأبحاث المنجزة بعيدة جدا عن الفلسفة 1.1%.

يسميه أساتذة التاريخ بجامعة السوربون في القرن التاسع عشر أمثال شَارْلْ لاَنْغْلوَا وشَارْلْ سِينُوبُوسْ «جراثيم الأدب التي تلطخ الخطاب التاريخي العلمي»[175]. لقد دافعت المدرسة المنهجية عن تاريخ أكثر موضوعية وأقل اصطباغا بالصبغة الأدبية[176]، فمهمة المؤرخ في نظرهم تطمح لتقديم الحقيقة للقراء من خلال الوثائق، وذلك عبر حكاية ما حدث بالفعل حسب العبارة المستعارة من رانكة، لدرجة أن التاريخ أصبح يُعْتَبَرُ في نفس الوضع الذي فيه علم الجيولوجيا والباليونطولوجيا[177].

عارض المؤرخون المنهجيون التيارات الأدبية الرومانسية وكاثوليكية كتابة التاريخ كما كانت سائدة من قبل، أهم ما ميزهم عن غيرهم من السابقين هو التأكيد على أهمية الممارسة النقدية للوثائق[178]. التاريخ الحدثاني بالرغم من مساوئه المتعددة يبقى له فضل كبير على الممارسة التاريخية، يتعلق الأمر في الأساس بمنهجية عرض الوقائع ونقد المصادر في مرحلة القرن التاسع عشر التي تميزت بالثورة الوثائقية.

أدخلت المدرسة المنهجية قواعد صارمة في التعامل مع المصادر. إنها قواعد علمية تكيفت مع فتوحات مفاهيم الوثيقة، فكل مقولة يجب أن تكون مصحوبة بدلائل وبإحالات للمصادر المعتمدة. لقد تَمَّ تمجيد المصادر مع المدرسة المنهجية وتم تقديس الوثيقة إلى حد العبادة، وخلالها ظهر الاهتمام بالمحفوظات والخزانات ودور الأرشيف، وأصبح الاهتمام بالوثائق أساس البحث التاريخي والشغل الشاغل للمؤرخين، خلال هذه المرحلة المهمة من تطور مهنة المؤرخ برزت أسماء كبرى في ميدان التاريخ الأكاديمي والمدرسي أهمها: غَابْرِييل مُونَودْ، شارل لانغلوا، شارل سينوبوس، كاميل جوليان Camille Jullian، ارنست لافيس Ernest Lavisse، وفوستيل دي كولانج Fustel de Coulanges وغيرهم.

سيطرت المدرسة المنهجية بما توفر لديها من إمكانيات على ميدان التاريخ خلال القرن التاسع عشر، وبصدور المجلة التاريخية *La Revue historique* سنة 1876م، وكتاب

175. Françoise Dosse. *La renaissance de l'événement-Un défi pour l'historien : entre Sphinx et Phénix*. Presses Universitaires de France - PUF; Édition : 1 (18 août 2010). P39

176. في القرن التاسع عشر أصبح التاريخ لوحة أو وضعنة أي إحالة إلى الموضوع. راجع: جون ليشته خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة ترجمة فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2008، بيروت، ص193.

177. شارل لانغلوا وشارل سينوبوس. المدخل إلى الدراسات التاريخية. ترجمة عبد الرحمان بدوي، ضمن النقد التاريخي، الطبعة الرابعة، 1981، وكالة المطبوعات الكويت ص194.

178. يعود نقد الوثائق فعليا إلى أواخر القرن السابع عشر فمع مابليون Mabillon وبفضل كتابه علم الوثائق الرسمية De Re Diplomtica libri تم وضع قواعد صارمة في مقاربة الكتلة الأرشيفية، فقد تغير الأمر عما كان عليه في القرون الوسطى حيث كانت الأحقية تمنح للشهود على حساب قيمة الشهادة، مع مابليون أصبح علو الشهادة على الشهود. وهذا ما جعل مارك بلوخ يؤكد أنه في سنة 1681م تأسس نقد الوثائق الأرشيفي.

مدخل للدراسات التاريخية لشارل لانغلوا وشارل سينوبوس سنة 1898م وكتاب المنهج التاريخي المطبق على العلوم الاجتماعية La méthode historique appliquée au science sociales سنة 1901م، تعزز الأساس النظري لهذه المدرسة التاريخية، فالمؤرخ حُدِّدَ دوره في مراقبة صحة الأحداث والوقائع بفضل مصادره الوثائقية، مهمته تنتهي عندما يبين صحة المعلومات، وبالتالي سَيُقفل الملف المدروس للأبد بعد أن يستخرج من النص كل ما فيه. هنا تكمن إحدى المفارقات الكبرى لدى المدرسة الوثائقية المنهجية، فهي تتبنى في خطاباتها الدعوة إلى حيادية المؤرخ وانصياعه كليا للوقائع، بينما كشفت كتاباتها عن انحياز واضح لاستراتيجيات الدول القائمة[179].

أسست المدرسة المنهجية أحكامها على الوثائق الملموسة، فما هو مسجل في الوثيقة أساسي ومعتمد، لقد أصبح الزمان استنادا إلى هذا المعنى وكأنه «تجميع كلي للأحداث»[180]. إن الهَوَسْ الوثائقي قد استولى على هذا العصر، لكن وعلى حد هُتاف المؤرخ بيير نُورَا سيظل دائما شيء ما غائب «أرشفوا أرشفوا، سيبقى دوما شيء ما»[181].

لقد اعتبرت المدرسة المنهجية الوثيقة مركزية في عمل المؤرخ، فهي المادة الخام التي يسعى المؤلف من خلالها إلى استعادة ما صدر عن الناس في الماضي من أقوال وأفعال، واسترجاع ما وَلَّى عبر اقتفاء ما خَلَّفوه من آثار، وقد عبَّر عن ذلك لانجلوا وسينوبوس بالقول «إن التاريخ يُصنع بالوثائق»، هذه العبارة تفرض بالضرورة تحديدَ مفهوم الوثيقة أو المصدر، فما هو مفهوم الوثيقة التاريخية لدى مؤرخي المدرسة المنهجية؟

ظل مفهوم الوثيقة محدوداً لدى المنهجيين، فقد اقتصر عندهم على المصادر والأرشيفات المكتوبة، وتعاملت هذه المدرسة التاريخية معها باعتبارها الأداة المركزية في عمل المؤرخ، والوسيلة التي تطلعه على الماضي، والحجة على أن التاريخ علم، فالكشف عن الوثائق يعني معرفة الحقائق التاريخية. لقد نظر هؤلاء إلى الوثيقة وكأنها لغة الصوت حسب ما وضح ميشال فوكو[182]. ولأهمية الوثائق المكتوبة اعتمد لانغلوا وسينوبوس قواعد صارمة لاستغلالها و التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

179. عبد الأحد السبتي . «قضايا منهجية»، في التاريخ والذاكرة: أوراش في تاريخ المغرب. المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2011م.ص117.

180. جيل دولوز. المعرفة والسلطة: مدخل لقراءة فوكو .ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1987م، ص29.

181. بول ريكور . الذاكرة.التاريخ.النسيان.م.س ص257

182. ميشال فوكو.حفريات المعرفة. ترجمة سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي، الطبعة 2، ص8.

أولا: البحث عن الوثائق وتصنيفها. «فالتاريخ يصنع من وثائق، فحيث لا وثائق لا تاريخ».

ثانيا: النقد الداخلي والخارجي للوثائق.

ثالثا: مرحلة التصنيف والترتيب المنهجي للمعلومات التي تتناولها الوثيقة.

رابعا: استخراج الحقائق التاريخية من الوثائق والمصادر التاريخية.

ارتبط بالتاريخ الحدثاني للمدرسة المنهجية مفهومان أساسين، من جهة نقد المصادر، و من جهة أخرى البحث عن تفسيرات تمكن التاريخ من أخذ صفة علم. لقد تعاملت هذه المدرسة مع التاريخ باعتباره علم الوقائع، فلتشييد التاريخ العام يكفي البحث عن كل الوقائع التي يجب أن تُرَتَّبَ في مكانها الزماني في التطور، على المؤرخ أن يجمع الحوادث من كل نوع ثم يُرتِّبها ترتيبا زمنيا وترتيبا بحسب البلدان لكي تكون لدينا لوحة جامعة للتطور التاريخي، فإذا رُتِّبت كل الوقائع التاريخية فإننا نحصل على وصف لكل التاريخ[183]. إن مطمح هذا التاريخ الذي يمكن أن ننعته بالشامل هو السعي إلى استعادة الصورة العامة لحضارة ما سابقة بكل تفاصيلها وأحداثها، وهي فكرة بدأت اليوم في الاندثار، فالتاريخ ليس جمعا وتكديسا لكل أخبار الماضي، بل هو علم المجتمعات البشرية كما عبر مارك بلوخ[184]. إن اعتبار الزمان تجميعا كليا للأحداث أفسح المجال في القرن التاسع عشر لظهور تاريخ شامل عمل على رد كل الاختلافات القائمة في مجتمع ما إلى صورة واحدة، في حين أن التاريخ متعدد الرؤى والدلالات.

3. المعبود البيوغرافي

من أهم الملامح الأخرى المميزة للمدرسة المنهجية تركيزها على الأحداث الفردية، والاعتناء بالتاريخ السياسي وتاريخ المعارك الحربية، والتطلع للأفعال الفردية ذات الأثر الحاسم، وإعطاء قيمة للسرد وللتسلسل الزمني للأحداث. الشيء الأساسي الذي تَغيَّر خلال هذه الفترة هو فك الارتباط بمناقب القديسين وقصص الحياة المثالية والخيالية التي شُجبَتْ باعتبارها نوعا ممزوجا بالرواية الأدبية المخالفة للصرامة العلمية. لقد ظلت رؤية المؤرخين المنهجيين تنطلق من فوق، بمعنى أنهم ركزوا أيضا على الأعمال العظيمة للرجال الكبار والقادة العسكريين وآباء الكنيسة،

183. للمزيد يراجع: شارل لانغلوا وشارل سينوبوس. المدخل إلى الدراسات التاريخية. م.س. ص195 ص189، ص206. ص207.

184. نقلا عن عبد الله العروي. مفهوم التاريخ.م.س. ص72.

ولم يكن هناك أي اهتمام بباقي فئات المجتمع، لقد مَجَّد مؤرخو المدرسة المنهجية الفرد، فالتاريخ في نظرهم تصنعه الذوات الفاعلة، إذ التحولات الكبيرة أحيانا لا علة لها غير حادث عرضي فردي، فانجلترا حسب لانغلوا وسينوبوس «غيرت دينها ثلاث مرات في القرن 16م من جراء موت أمير»، ولهذا في نظرهما «لا يجب أن نُنكر بطريقة قَبْلِيَةٍ تأثيرَ الأفرادِ، ولا أن نستبعد الوقائع الفردية، بل ينبغي أن نفحص هل كان الفرد في وضع يسمح له بالفعل القوي». فحينما يكون هناك مثلا فرد «ذو سلطة لإصدار الأوامر وفرض اتجاهاته على الناس كما هو الأمر بالنسبة إلى رؤساء الدول، أو قادة الجيوش، أو رؤساء الدين، هنالك تصبح حوادث حياة شخص ما وقائع مهمة»، هكذا نرى أنه ينبغي في إطار التاريخ «فسح المكان للأشخاص والحوادث»[185]، ويكفي أن نقدم كنموذج آخر مماثل كتاب تاريخ فرنسا لازِنْسْتْ لاَفِيسْ الذي بُنِيَ على الأسطورة التي تقول إن الدولة القومية الفرنسية تبدأ من عهد كلوفيس استنادا إلى الأدوار الممنوحة للرجل العظيم.

بسبب إعطاء القيمة للفرد أضحت وضعية السيرة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أكثر تفضيلا وأكثر ازدهارا بفضل سيطرة المدرسة المنهجية، فقد تَمَّ استيعاب هذا النوع الهجين الذي أخذ من الأدب أكثر مما أخذ من الرواية[186]. ومن خلال دراسة قام بها المؤرخ شارل اوليفر كاربونيل CHARLE-OLIVER CARBONELL لطبيعة مواضيع الإنتاج الفرنسي التاريخي ما بين سنوات 1870و1874 يتبين لَنَا حجم الاهتمام والأولوية التي أعطيت لميدان السيرة، فقد بلغ عدد البيوغرافيات التاريخية المنشورة بين هذه السنوات الأربع 252 بحثا، محتلة بذلك المرتبة الثالثة بعد التاريخ المحلي ب392 بحثا، والتاريخ الديني ب377 بحثا[187]، وقد استمر هذا الاهتمام بمواضيع سير الحياة أكاديميا فقد بلغت الأطروحات الفرنسية التي اتخذت موضوعا لها السير الفردية نسبة 30% إلى غاية سنة 1904م. وقد مثلت تصريحات الاقتصادي فرانسوا سيميان عام 1903م في مقاله المنهج التاريخي والعلوم الإنسانية المنشور بمجلة التركيب بشأن أصنام قبيلة المؤرخين الثلاثة، «الصنم السياسي» و«الصنم الفردي» و«الصنم الكرونولوجي» بداية مرحلة النهاية لسيطرة جيل المدرسة المنهجية، فبعد الحرب العالمية الأولى تراجعت المواضيع البيوغرافية بشكل محسوس حتى باتت لا

185. نفسه ص196.

186. Catherine Valenti. *La biographie historique en France: un essai d'historiographie*. P146/147.

187. CHARLE-OLIVER CARBONELL. *L'HISTOIRE ET LES HISTORIENS. Une mutation idéologique des historiens français 1865-1885*. Edouard Privat. 1976. Toulouse. P91/92.

تمثل سوى 17 % من الأطروحات في الفترة الممتدة ما بين سنتي1919م - 1938م[188].

لقد تلقت البيوغرافيا كنوع الضربة القاضية سنة 1920م على يد مؤرخين جدد، وفقدت منذ ذلك التاريخ مصداقيتها بقوة في التاريخ الأكاديمي. وهو الأمر الذي نفسر به انخفاض نسبة الأبحاث بعد هذه السنة، فمباشرة بعد تأسيس المدرسة التاريخية الجديدة الحوليات سنة 1929م على يد مارك بلوخ ولوسيان فيفر، بدأت عملية تشويه سمعة البيوغرافيا والتشكيك فيها، واستمر ذلك إلى غاية سنة 1970م.

188. فرانسوا دوس. التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد. ترجمة د محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى يناير 2009، ص50.

الباب الثالث

الكتابة التاريخية في القرن العشرين

الفصل الأول

مدرسة الحوليات والكتابة التاريخية

1. الحوليات ونفي الحدث

يمكن أن نؤرخ لولادة مدرسة الحوليات بالعدد الأول من دورية حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الصادرة في 15 يناير سنة 1929م، والتي ستتحول بسرعة من مجرد مجلة إلى مدرسة تاريخية رائدة، فهذه المجلة التي أسسها مارك بلوخ ولوسيان فيفر، حققت رغبة وطموح جيل جديد من المؤرخين الذين تأثروا بمجلة التركيب التي كان يشرف على تسييرها هِنْري ببر والذي يعد من أوائل معارضي المدرسة المنهجية. فقد أنشأ سنة 1900م مجلة التَركيب أو مجلة التوليف التاريخي La Revue de synthèse historique والتي كانت ملتقى لإميلْ دُوركَايْمْ ومحبيه من علماء الاجتماع، و فيدال دي بلانش وأصدقائه الجغرافيين، وفرنسوا سيميان وآخرين من علماء الاقتصاد، وفالون وآخرين من علماء النفس، كما التحق بها لوسيان فيفر ومارك بلوخ أيضا، لقد كانت مجلة التركيب فعلا محطة رئيسية في المسار الفكري لمدرسة الحوليات[189]. فِكْرُ لوسيان فيفر تَكَوَّنَ وتَغَذّى من قلب التركيب، وقد اعترف فرناند بروديل بفضل هنري بير وتأثيره البالغ على مؤسسي مجلة الحوليات بقوله «إن هذا الرجل (يقصد هنري بير) هو إلى حد ما الحوليات قبل نشوئها. إليه يجب الرجوع إذا أردنا أن نعرف كل شيء» [190].

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وفي أعقاب استرجاع فرنسا لمنطقة الالزاس واللورين من ألمانيا، أسست في أواخر سنة 1919م جامعة ستراسبورغ التي التقى فيها المؤرخان لوسيان فيفر Lucian Febvre (1878-1956) ومارك بلوك Marc Bloch(1886-1944)، واللذان دشنا معا مشروعاً مشتركاً لتطوير التاريخ انتهى إلى تأسيس مدرسة تاريخية

189. محمد العيادي .المدارس التاريخية الحديثة ومسألة الحدود بين العلوم الاجتماعية. م.س. ص29.

190. فرناند بروديل.«تكويني كمؤرخ». ترجمة محمد حبيدة، مجلة أمل، التاريخ، الثقافة، المجتمع. العدد الثاني، السنة الأولى 1992.ص115/122.

جديدة ظهرت إلى الوجود في العام نفسه الذي شهد فيه العالم أزمة اقتصادية كبرى، انطلقت من بورصة وول ستريت بالولايات المتحدة الأمريكية، وانتقلت إلى أوربا ومنها إلى باقي دول العالم، ولقد ربط البعض بين هذه الأزمة الاقتصادية والاهتمام الكبير لمؤرخي الحوليات بالحقل الاقتصادي، وبالخصوص تركيزهم على مواضيع الأزمات الدورية و تاريخ الأسعار، وكان لافتا التدليل على هذا الربط العنوان الذي صدرت به المجلة في عددها الأول سنة 1929م: **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**.

دخل لوسيان فيفر ومارك بلوخ في نقاشات وعلاقات مع باقي التخصصات الأخرى بهدف تشجيع وحدة العلوم الإنسانية، ولتجسيد هذا التوجه الجديد قام مؤسسا الحوليات بإشراك متخصصين من باقي التوجهات المعرفية الأخرى في إدارة عمل مجلتهم الجديدة الحوليات، ومن أبرزهم الجغرافي ألْبِيرْ دومانجون، وعالم الاجتماع موريِسْ هَالْبْوَاكْسْ، وعالم الاقتصاد شارل ريست، وعالم السياسة اندريه سيغفريد، وقد ساهم هذا التعاون مع بداية نشأة الحوليات في تألقها وتزايد عدد قرائها.

بعد أن تحول لوسيان فيفر إلى التدريس بالمعهد الفرنسي سنة 1933م، ومارك بلوك إلى التدريس بالسوربون سنة 1936م، انتقلت مجلة الحوليات إلى باريس، ومن هناك وجهت ضربات موجعة إلى المؤرخين التقليديين الذين كانوا يقدسون الواقعة التاريخية لذاتها[191]. لقد جلبت المدرسة المنهجية لنفسها انتقادات واسعة حينما منحت الأولوية المطلقة للوثيقة وللحدث، وقللت من الشأن التحليلي للمؤرخ. فالوثيقة كانت ضالة هؤلاء المؤرخين، استنطقوها وطرحوا بصددها تساؤلات، سألوها لا عما تريد أن تقوله فحسب، بل عما إذا كانت تقول الحقيقة أم لا، وما إذا كانت تقول الصدق أم تزيفه، بَيْدَ أن كل سؤال من هذه الأسئلة وكل ذلك الهاجس النقدي كان يرمي إلى نفس الهدف، ألا وهو إعادة بناء الماضي مما تقوله تلك الوثائق. لقد صاغ المؤرخون الجدد أدواتهم بأنفسهم، وقد مكنتهم تلك الأدوات من أن يتبينوا داخل حقل التاريخ طبقات رسوبية متباينة، فحلت محل التعاقبات الخطية التي كانت في تلك الآونة تشكل موضوع البحث التاريخي[192].

لقد ساد فهم جديد للبحث التاريخي شكل قطيعة جذرية مع المدارس التاريخية

191. غي بوردي. «مدرسة الحوليات الفرنسية». مقال منشور في كتاب بعنوان المدارس التاريخية. نشر لوسوي باريس 6 1983 . ترجمه العروسي الميزوري، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 96-95.ص608.

192. ميشال فوكو. حفريات المعرفة. ترجمة سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي، الطبعة 2، ص5/8.

الأخرى خصوصا مع المدرسة المنهجية لارنست لافيس وجَابْرِيِّيلْ مُونُوذْ. لقد اختفى التاريخ التقليدي الذي يهتم بصورة خاصة بالأفراد وبالفئات العليا من المجتمع، وبنخبه (الملوك، وَرجال الدولة، وقادة الثورات)، وبالوقائع (الحروب، وَالثورات). وبالمؤسسات التي تهيمن عليها النخب(السياسية، والاقتصادية، والدينية)، فعلى عكس ذلك برز التاريخ الاجتماعي الذي يهتم بالكتل التي ظلت على هامش السلطة[193]، لقد أَخْلَتْ الأسئلة التقليدية التي كان التحليل التاريخي يطرحها من قبيل الروابط التي تجمع الأحداث المشتتة السبيل لتساؤلات من نوع جديد، فقد نقلت الحوليات اهتمامها من دراسة الأحداث السياسية إلى دراسة النواحي الاقتصادية والاجتماعية. فعبارات من قبيل «التاريخ الحدثاني» و«التاريخ السياسي» «وتاريخ الوقائع» أصبحت مصطلحات قدحية تُستعمل لِوَسْم التاريخ لدى المنهجيين. أصبح سينوبوس غيرَ مرغوب فيه ومَحَطّ انتقاداتِ الرُّوادِ الأوائِل للحوليات، فلوسيان فيفر عندما فتح تاريخَ روسيا لشارل. سينوبوس وجده غلافا سميكاً من الأحداث السياسية، فعبر قائلا « يا له من مشهد القياصرة الهاربين من الملك اوبو، مآسي القصور، ووزراء بيروقراطيون..ليس لنا تاريخ لروسيا وإنما التاريخ السياسي لروسيا.. ليس هذا هو التاريخ، التاريخ هو ما ليس موجوداً في هذا الكتاب..[194]. كما انتقد لوسيان فيفر أيضا التاريخ الديبلوماسي الذي اعتبره مجرد أحجيات، فالأحداث الحقيقية والعميقة في نظره غير موجودة في هذا الكتاب، فالجغرافيا غائبة والاقتصاد أيضا[195] . لقد تم رفض الحدث والفرد والسرد من طرف الحوليات التي انتقلت إلى استثمار مواضيع جديدة، والتي لخصها بول ريكور في عبارة «الواقعة الاجتماعية الشاملة» Fait social total مستعيرا هذا التعبير من السوسيولوجي مَارْسِيل مُوسْ، فموضوع ما هو اجتماعي أصبح مُحَدّداً أساسياً لهوية الحوليات، وأضحى المجال المفضل في اسطوغرافية مؤرخيه[196].

على منوال لوسيان فيفر فإن كتاب حرفة المؤرخ وهو العمل الذي لم يكتمل لمارك بلوك، يعد بدوره تصويبا وإنتقادا مباشرا لمؤلف لانغلوا وسينوبوس، وهو بمثابة بيان لمدرسة الحوليات المناهضة لكُتّاب المدرسة المنهجية، فخلافا للانغلوا وسينوبوس أكد بلوك أن مخزون الوثائق الذي يملكه التاريخ ليس محدودا، كما اقترح ألا تستعمل

193. فيليب ارياس.تاريخ الذهنيات. مقال منشور ضمن المؤلف الجماعي التاريخ الجديد.م.س.ص282.

194. François Dosse. *Renaissance de l'événement*. Presses Universitaires de France - PUF; Édition. 2010. p 6

195. Ibid. p60.

196. Christian Delacroix .*Ce que Ricœur fait des annales: méthodologie et épistémologie dans l'identité* des annales. Paul Ricœur et les sciences humaines. P212/213

الوثائق المكتوبة فقط، بل يجب الالتجاء إلى مواد أخرى أثرية وفنية ومسكوكاتية[197]. كما أن التاريخ عدل موقفه تجاه الوثيقة بشكل جذري فأخذ على عاتقه كمهمة أولى لا تأويل الوثيقة أو تعيين مدى صدقها فقط، بل فحصها من الداخل وتدبرها، فهو ينظمها ويجزئها ويرتبها ويقسمها إلى مستويات وسلاسل، ويميز ما يستحق النظر على ما لا يستحق[198].

لقد تطور مفهوم الوثيقة مع مدرسة الحوليات، فكل شيء هو مصدر على حد تعبير لوسيان فيفر خلافا لرأي المدرسة المنهجية التي اقتصرت على الوثائق المكتوبة والأرشيفات، كما أهمل التاريخ السياسي، واستبعد تاريخ الأحداث والوقائع الذي اختنق تقريبا بسبب اهتمام البحوث الجامعية بالتاريخ الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي ولاحقا بتاريخ العقليات.

لم تكن الحوليات وحدها ضد التاريخ الموصوف بـ«التاريخ الرنكي» و«التاريخ التاريخاني»، ففي بريطانيا إبان ثلاثينيات القرن العشرين رفض كل من لويس ناميير وتاوني سرد الحوادث، وحبذوا نوعا من التاريخ البنيوي، وفي ألمانيا حوالي 1900م جلب كارل لامبرخت على نفسه استياء رفاق مهنته لأنه تحدى النموذج التقليدي ووصفه بالتاريخ المتمركز على الأحداث والوقائع، وذلك قبل أن تتأسس الحوليات[199]. كما انتقد سابقا في فرنسا شارل بيغي charale Péguy الخصم الضاري للتاريخ على النحو الذي كان يمثله و يشجع عليه أساتذة السوربون لافيس ولانغلوا وسينوبوس، يقينيات المدرسة المنهجية وهوسها المجنون بالوثيقة لدرجة الصنمية، «فالمؤرخ الحقيقي بالنسبة لبيغي هو ذلك الذي يعطي حياة جديدة للحياة وليس من يقتل الحدث ويحوله إلى مومياء مقدس»[200]. كما وضح بول لاكومب Paul Lacombe في كتابه التاريخ باعتباره علماً استحالة الحديث عن علمية التاريخ لأنه «لا يمكن أن يكون موضوع علم، لأن العلم يبدأ بإقامة تماثلات مستمرة بين الظواهر، كذلك لا يمكن لواقعة فردية أن تكون سبَبَ أي واقعة»[201]. تعرض كتاب لاكومب للعديد من الاعتراضات، لكن الأفكار التي أطلقها والتي استعادها فيما بعد سيميان

197. غي بوردي .مدرسة الحوليات الفرنسية. م.س. ص613.

198. ميشال فوكو.حفريات المعرفة. م.س، ص5.

199. النموذج التقليدي بوصم بالتاريخ الرانكي نسبة للمؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكه (1790-1856) Leopold von Ranke. فأطروحاته وأغلب نظرياته في التاريخ استمدتها منه المدرسة التاريخية المنهجية الفرنسية وبالخصوص إعطاء الأهمية لجمع الوقائع.

200. François Dosse. *Renaissance de l'événement*. Op.cit.p 47.48.

201. نشر Paul Lacombe هذا الكتاب سنة 1894م بعنوان .التاريخ باعتباره علم. l'histoire considérée comme science

وآخرون، تؤلف ابتداء تَغَيُّرَ البحث التاريخي وكتابة التاريخ الذي سيؤدي في نهاية الأمر إلى تاريخ غير حدثي كما سيمارس من قِبَلِ ارنست لابروس وفرناند بروديل وتلامذتهما[202].

بعده شَنَّت مجلة السنة السوسيولوجيا L'Années sociologique بدورها نقدا لاذعا للمدرسة التاريخية المنهجية من خلال مقالات إميل دوركايم وفرانسوا سيميان، فأفكار هذا الأخير التي عبر عنها كان لها صدى قوياً لدى المؤرخين الجدد الذين عملوا على تخليص الكتابة التاريخية الفرنسية من الأوثان الثلاثة لقبيلة المؤرخين المنهجيين.

في البداية كان غالبية المؤرخين الجامعيين معادين للحوليات، فمارك بلوك فشل في الولوج إلى الكوليج دوفرانس، أما فيفر فقد تمكن من ذلك بصعوبة خلال محاولته الثانية سنة 1933م، كان هناك مناخ معادٍ على رأسه التيار المنهجي، لكن كل شيء تغير بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، فالحوليات لم تتأثر كثيرا بفقدان أحد رموزها المؤسسين(مارك بلوك)الذي أعدم من طرف النازية الألمانية، ففي سنة 1946م طُعِّمَتْ إدارة الحوليات بعناصر جديدة أبرزها فرناند بروديل، وفي هذه السنة أيضا غَيَّرَ لوسيان فيفر عنوان المجلة الذي أصبح الحوليات: اقتصاديات-مجتمعات-حضارات Annales: Economies, sociétés, Civilisations بدل العنوان السابق حوليات التاريخ الاجتماعي Annales d'histoire sociale والذي لازمها منذ سنة 1939م.

بعد الحرب العالمية الثانية زاد برنامج الحوليات وضوحا وطموحا على يد المؤرخ بروديل، فقد فرضت هذه المدرسة طريقتها الجديدة في كتابة التاريخ من خلال الارتكاز على مجلتها بالأساس، وأيضا بالسيطرة على المعهد التطبيقي للدراسات العليا، ومن خلال شبكة من العلاقات القوية التي جمعتها بدُورِ النشر والصحافة. فلوسيان فيفر حصل على رخصة سنة 1947 لإحداث الفرع السادس للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا المتخصص في العلوم الاقتصادية والاجتماعية، وترأس بنفسه هذا الجهاز، وحدد أهدافه التي تمثلت في التعليم والبحث العلمي ونشر المعارف عبر الندوات، وتنشيط الأبحاث الجماعية، وتنظيم لقاءات بالتعاون مع مختلف العلوم الإنسانية، وفي سنة 1956م خَلَفَ فرناند بروديل لوسيان فيفر على رأس الحوليات وحافظ على التوجهات السابقة. وفي سنوات ما بعد 1960 جمعت المدرسة التطبيقية مؤرخين مقربين من الحوليات أمثال جاك لوغوف، لوروا لادوري، فرانسوا فوريه،

202. كريستوف بوميان.نظام الزمان. م.س ص42/43.

مارك فيرو، وغيرهم، و بفضل مجهوداتهم تحول الفرع السادس «للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا» إلى «المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية»، فأصبحت بمثابة جامعة تمنح الشهادات، ولها الحق في الحصول على القروض والدعم، بالإضافة إلى ذلك استطاعت الحوليات أن تجد لنفسها دعائم أخرى خارج الجامعات، فمسؤولوها أوالمقربون منها مندسون في دور النشر الكبرى، فقد أصبح بيير نورا يدير مكتبة التاريخ في مؤسسة غاليمار، واستوحى جاك لوغوف سلسلة الاثنولوجيا التاريخية عند فلاماريون، كما سيطر مؤرخو الحوليات على مجلة التاريخ التي بُعِثَتْ سنة 1975 من قِبَلِ مؤسسة Hachette، كما اتخذ فريق الحوليات مواقع قدم لَهُمْ في العديد من وسائل اَلإعلام السمعية والبصرية والمكتوبة[203]. لقد استطاع مؤرخو الحوليات أن يجعلوا من موضوعاتهم ومقارباتهم تاريخا جديدا، لأنهم عرفوا كيف يُسوِّقوا هذا التاريخ، كيف يوصلوه إلى عامة الناس، كيف يجعلوا منه قضية انفتاح وفضول وإحساس، فبفضل الأسلوب والتواصل تمكن كثير من الباحثين في التاريخ تمرير خطاب يفهمه الجميع، ليس فقط عبر الكتب والمقالات، ولكن أيضا عبر الحضور القوي لرواد الحوليات في الصحف والإذاعة والتلفزيون. فكثير من هؤلاء كانوا يكتبون في جرائد كبرى مثل لوموند ونوفيل أوبسيرفاتور، ويُنَشِّطون برامج إذاعية هامة مثل برنامج «إثنين التاريخ» الذي أدار حلقاته جاك لوغوف على أمواج إذاعة فرانس آنتير. وهناك أيضا مثال جورج دوبي الذي كان على رأس قناة تلفزيونية ثقافية في بداية التسعينيات[204].

عرفت مجلة الحوليات خلال مسارها الطويل تحولات مختلفة، فقد تكيفت مع التحديات التي واجهتها. وذلك بفضل انفتاحها على باقي التخصصات الأخرى[205]. فإذا كانت المدرسة الدوركايمية فشلت في تحقيق هدفها لتوحيد العلوم الاجتماعية تحت يافطة السوسيولوجيا، فإن فكرتها لم تخبو، ذلك أن مؤسسي الحوليات نجحوا في تحقيق نفس الغاية و لكن بصيغة مختلفة، فقد ركزوا على العمل الجماعي، وعلى مفاهيم التعاون والتقارب، والانفتاح والتداخل، والتكامل بين التخصصات بدل

203.هرفي مرتان وغي بوردي . «المنهج التاريخي الجديد وريث الحوليات». مقال منشور في كتاب بعنوان المدارس التاريخية. نشر لوسوي باريس 6، 1983م، ترجمه العروسي الميزوري، المجلة التاريخية المغاربية، العددان 97/98. ص208/209.

204. محمدحبيدة. «تاريخ جديد أم كتابة جديدة». قراءة في الكتاب الجماعي التاريخ الجديد الذي أشرف عليه جاك لوغوف، مجلة رباط الكتب الالكترونية، العدد5، 2008.

205. بدأت الحوليات مشروعها الجديد في كتابة التاريخ بالانفتاح على العلوم الاجتماعية و الانسانية. وحسب فيفر «سيساهم في كتابة التاريخ، اللغوي، والأديب، والجغرافي، والقانوني، والطبيب، وعالم الأرض، وعالم الأجناس، والخبير بمنطق العلوم» انظر عبد الله العروي: مفهوم التاريخ م.س. ص187.

الذوبان والاندماج الكامل كما كان يطمح إليه السوسيولوجيون الدوركايميون، لقد استفادوا من مساهمة الجغرافي فيدال دو لا بلاش الذي ربط بين مفهوم الزمن ومفهوم المجال، ومن مشروع الفيلسوف والمؤرخ هنري بير الذي جمع حول مجلته باحثين من مختلفي التخصصات، إن انفتاح التاريخ على باقي التخصصات الاجتماعية الأخرى ساهم في توسيع مدارك المؤرخ الذي كان هو بالأساس من أكبر المستفيدين منه سواء على مستوى المنهج أو على مستوى طبيعة المواضيع والقضايا التي أصبحت ضمن اهتماماته. فما بين سنوات 1950م و1960م أحيا المتعاونون مع مجلة الحوليات مجالات الجغرافيا التاريخية، والتاريخ الاقتصادي، والديموغرافيا التاريخية، و التاريخ الكمي.

مع نهاية الستينيات وفي ظل الانتشار الواسع للأطروحات البنيوية، عرفت المدرسة التاريخية الفرنسية «الحوليات» فترتها الذهبية مع فرناند بروديل الذي استخدم مفاهيم جديدة لم تكن متداولة في السابق، فالإيقاع البطيء للتاريخ غَيَّرَ منظورَ المؤرخين الأكاديميين إلى كثير من الأحداث والقضايا. حققت الحوليات مع الجيل الثاني نجاحات باهرة سواء على مستوى المناهج المتبعة أو المواضيع المطروقة، إذ تم القطع بصفة نهائية مع التاريخ الفردي، والتاريخ الكرونولوجي، و التاريخ الرواية، وانتعش بالمقابل التاريخ الإشكالي، والتاريخ الكمي.

ازدهر التاريخ الكمي في اصطلاح فرانسوا فوريه، الجدولي بتعبير بيير شونو في عصر الثورة الرأسمالية متأثرا بنجاحات أبحاث الاقتصاد الكمي، لم يكن لهذا النوع من البحث التاريخي أن يزدهر و يتطور بسرعة لولا اختراع الحواسيب التي سهلت تخزين الآلاف من المعطيات و الأرقام و المعلومات في ذاكرتها الإلكترونية، قَدمَتْ ثورة الكم أو الرقم في البداية من البحوث التاريخية في أمريكا، من التاريخ الاَقتصادي الجديد المبني على الحسابات الإحصائية، قبل أن تنتقل العدوى إلى البلدان الأوربية ومنها فرنسا التي تملك وثائق رقمية كثيرة. هذا الاتجاه في البحث ارتبط بثورتين، الأولى في الإقتصاد، والثانية في العلوم الدقيقة. إذا نظرنا إلى المؤلفات التاريخية في هذا المجال نجدها مليئة بالأرقام والمعطيات والجداول والرسوم البيانية[206].

من أشهر الدراسات التي اعتمدت الجداول والمبيانات الإحصائية تلك التي قام بها ارنست لابروس للاقتصاد الفرنسي أثناء النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في محاولة منه لوضع حد للنقاش الدائر منذ عقود حول ماهية الثورة الفرنسية التي

206. عبد الله العروي، مفهوم التاريخ م.س ص139.

حدثت سنة 1789م. هل هي ثورة شعب جائع كما عبر ميشله؟ أم ثورة طبقة وسطى غنية ومثقفة غاضبة على الحكم المطلق كما تصور جان جورس؟ حاول لابروس بعد دراسة إحصائية دقيقة وعبر رسوم بيانية في غاية الوضوح إيجاد نوع العلاقة التي تربط أيام الثورة الفرنسية بمستويات إنتاج الحبوب و أسعار المواد الغذائية الأساسية[207].

في سنوات السبعينيات انتقلت مدرسة الحوليات من الديموغرافيا التاريخية ذات الطابع الكمي إلى مجال العقليات مع الانتربولوجيا التاريخية ذات الطابع الكيفي[208]. أصبحت الموضة هي دراسة البنى الفوقية، وبذلك صعدت الحوليات من الدهليز إلى بيت السطح، ووقع التركيز على دراسة الذهنيات أو باللغة الرائجة آنذاك على المخيال، وظهرت دراسات عديدة عن الموت والعلاقات الجنسية وأنماط الحياة اليومية والطقوس الدينية والموت والخوف والحب[209].

شهدت هذه الفترة أيضا تخلي فرناند بروديل وشارل مورازيه عن تسيير مجلة الحوليات لصالح جيل جديد من المؤرخين، أبرزهم اندريه بورغيار المختص في تاريخ العائلة وتاريخ العلوم الاجتماعية، وايمانويل لورا لادوري المتخصص في التاريخ الحديث، ومارك فيرو المتخصص في التاريخ المعاصر، وجاك لوغوف المتخصص في التاريخ الوسيط، وقد أشرف هذا الأخير منذ سنة 1974م مع جاك روفيل وبيير نورا وآخرين على إصدار ثلاث مصنفات من المقالات تطرح مشكلات جديدة، وتثير قضايا حديثة، وتشجع على نمط جديد من الكتابة التاريخية أكثر انفتاحا على العلوم الإنسانية الأخرى، وخصوصا الاثنولوجيا والانتربولوجيا [210]، يتلاقى فيها تقريبا نفس المشاركين الذين ينعتون بحملة مشعل التاريخ الجديد، وهكذا وخلال نصف قرن من التجربة والممارسة استطاع فكر الحوليات بناء هويته على قاعدة الرفض المطلق للجيل السابق من المؤرخين المنهجيين. وأصبح التاريخ كما بَيَّنَ فُوكُو حقلا

---

207. نفسه ص140.

208.يسجل المؤرخ اندري بورغيار ميلاد التاريخ الانتربولوجي مع لوغران دوسي المغمور من عصر الأنوار، ففي مقدمة كتابه تاريخ الحياة الخاصة في فرنسا (ثلاثة أجزاء) يشير بجلاء إلى ما تغافل عنه التاريخ الوقائعي، وهو الحقل الذي اهتمت به البحوث التاريخية حديثا. فالحوليات لم ينشأ معها التاريخ الانتربولوجي، وإنما أعادت إحيائه من جديد. راجع: بورغيار. «الانتربولوجيا التاريخية». ضمن التاريخ الجديد.م.س.ص 236

209. الهادي التيمومي نظريات المعرفة التاريخية وفلسفات التاريخ في العالم الغربي في النصف الثاني من القرن 20م مختارات معربة-اشراف وتنسيق الهادي التيمومي- المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون - بيت الحكمة 2008. ص26.

210.المصنفات الثلاث هن:

J. Le Goff et Pierre Nora (dirs). *Faire de l'histoire*. Paris, Gallimard. 1974

J. Le Goff (direction). *La Nouvelle histoire*. Retz CEPL, paris.1978

J. Le Goff, Roger Chartier et J. Revel (dirs). *La Nouvelle histoire*. Bruxelles. Complex.1988

يلتقي في بعض نقاطه بالقضايا التي نصادفها في غير ميدان التاريخ، سواء في ميدان اللسانيات مثلا أو الاثنولوجيا أو الاقتصاد أو التحليل الأدبي أو دراسة الأسطورة، ويمكن إذا شئنا أن ندرج كل تلك القضايا تحت اسم واحد هو البنيوية[211].

2.الوهم البيوغرافي

أصبحت البيوغرافيا ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر في وضعية كسوف، هذا النوع تعايش، لكنه ظل غير معتبر ومتخلى عنه، وازدادت الوضعية تأزما في بداية القرن العشرين، وقد بلغ هذا الرفض ذروته منتصف القرن. فمع الجيل الثاني لمدرسة الحوليات وفي وقت قصير جدا أصبحت البيوغرافيا رمزا للتاريخ التقليدي، أو حَسب تعبير بروديل التاريخ الوقائعي الذي يركز أكثر على الأشخاص بَدَلَ الجمهور، لقد تراجع تاريخ السير لفائدة تاريخ أكثرَ انفتاحا على الاقتصاد والمجتمع.

لقد رفضت مدرسة الحوّليات البيوغرافيا مثلما رفضت الحدث، واعتبرتها إحدى الأصنام التاريخية غَيْر المفيدة في فهم معنى التاريخ، وبذلك تَمَّ تهميش السيرة من طرف المؤرخين الذين اتجهوا لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ العقليات. هذا الكسوف الذي عرفته البيوغرافيا شمل أيضا ميدان علم الاجتماع والانتربولوجيا واللسانيات. لقد تم احتقار السيرة من طرف المؤرخين والأكاديميين، وأصبحت عملا مستهجنا ومتهما، وتحولت إلى «وهم» و«طابو محرم»[212]، وتُركت فقط للهواة، وفي أحسن الظروف اتخذت كوسيلة ديداكتيكية لتدريس المتعلمين مادة التاريخ.

لكن هل هذا يعني أن جميع أنواع البيوغرافيات اختفت خلال هذه الفترة؟ وَبتعبير آخر ما هي البيوغرافيات التي استمرت في الوجود خلال مرحلة الحوليات؟

لقد استمرت بعض مجالات البيوغرافيا في الوجود خلال مرحلة الحوليات والتي سماها فْرُنْسْوَا دُوس «la biographie modal»، اعتبرها مرحلة انسياق وراء «موضة الفئات الاجتماعية»، حيث ينبغي لسرد سيرة حياة أن يخدم «نموذجا مثاليا» يتجاوز شخصية الفرد، وهكذا ازدهرت الكتابات عن قضايا اجتماعية من خلال دراسة السير الفردية، بينما عرفت الأنواع الأخرى كسوفا وتراجعا ملحوظا، وتَمَّ

211. ميشيل فوكو .حفريات المعرفة. م.س.ص12.

212.. Bernard pudal. *Du biographique entre «science» et «fiction» quelques remarques programmatiques*. Politixe année 1994, volume 7 numéro. p.27.

تصنيفها ضمن الكتابات الرديئة التي تجاوزها الزمن.

هذه هي الشرعية الوحيدة التي بقيت لهذا النوع البيوغرافي، فقط بواسطة قيمته التمثيلية لوسط اجتماعي واسع، إذ الشخص لا قيمة له في حد ذاته إلا من خلال أنه يصور المجموعة، فالبيوغرافيا لم تعد خاصة بالأفراد، بل هي قصة فترة نراها من خلال هذا الشخص، فالفرد يُصبح مدخلا لدراسة الجماعة، إنه يعطي صورة معدل سلوك لمجموعة اجتماعية في حقبة معينة.

انتعشت نتيجة ذلك سير أشخاص فقط كنماذج عن أوساط اجتماعية، فلوسيان فيفر عندما تناول رابليه في كتابه مشكلة عدم الإيمان في القرن السادس عشر: ديانة رابليه لم يتناوله في فردانيته، ولكن قابل بينه وبين الصنف العقلي والذهني الذي ميز فترته، لقد أراد أن يبرهن أن الإلحاد مستحيل في الفترة التي عاش خلالها رابليه[213]. لقد أثبت بشكل مقنع أن الإيمان المتوفر في هذه الفترة أداته الذهنية لا تسمح بالإعلان عن الإلحاد، ولا حتى بتكوين رؤية للعالم ملحدة بشكل علني[214].

أكد لوسيان فيفر أن من اعتبر رابليه رسول الزندقة والإلحاد سقط في خطيئة المفارقة التاريخية، لذلك انتقد بشدة أطروحة أبيل لوفران Abel. Lefranc الذي جعل من رابليه رجلا عقلانيا ومفكرا حرا، واتهمه بالوقوع في «المفارقة التاريخية»: أي أنه قرأ نصوص القرن السادس عشر ميلادي بعيون القرن العشرين. الآلية الذهنية للقرن السادس عشر في نظر فيفر لا تسمح أبدا بظهور فكر منطقي كالذي سيولد فيما بعد خلال القرن 17م. لقد بين من خلال كتابه رابليه إلى أي مدى كانت المسيحية تضبط بشكل كامل الحياة الجماعية والفردية خلال القرن السادس عشر. وفي كتابه الآخر عن لوثر قابل سيكولوجية الفرد مع العقلية الذهنية للألمان، لقد عالج مشكلة العلاقة بين الفرد والجماعة [215]، بأن وضع وجها لوجه نفسية فرد هو لوثر مع المحيط الذهني لألمانيا في القرن السادس عشر، ومن جَرَّاءِ لقاء هذين العَامِلَيْن في نظره ظهر الإصلاح الديني والانشقاق عن روما، وعلى عكس الدراسات التَقليدية لم يتم تفضيل أهمية الفرد لوثر في هذه الدراسة، لأن لوسيان فيفر يرفض بشدة هذا التصور الضيق للتاريخ، ولكن الجو الذهني هو الذي يسود حيث يتم الالتقاء بين الطموحات الفردية والجماعية[216].

---

213. François Dosse. *Le Pari biographique. Écrire une vie*, Editions La Découverte (17 septembre 2004). p235.

214. بول ريكور . الذاكرة، التاريخ، النسيان. مرجع سابق. ص 289.

215. François Dosse. *Le Pari biographique. Écrire une vie*, op.cit. p237.

216. فرانسوا دوس. التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد. م.س.ص133.

وقد سلك مارك بلوك نفس الأسلوب في كتابه الملوك العجائبيين إذ وقف كثيرا أمام الممارسات الجماعية والرمزية والتمثلات الذهنية غير الواعية لمختلف المجموعات الاجتماعية، وربط بين سيطرة الشائعة أو الخبر الكاذب حول قدرة الملوك على شفاء المصابين بمرض داء الخنازير عن طريق وضع اليد، وبين وجود تعبد شبه ديني نحو النظام الملكي، فافترض وجود قوة بنية ذهنية خاصة هي العقلية الإقطاعية[217].

استمر هذا النوع في التواجد حتى خلال مرحلة «ضد البيوغرافيا»anti biographie وهو مصطلح استعمله كثيرا فرنسوا دوس ووَسَمَ به مرحلة الحوليات مع جيلها الثاني الذي حارب البيوغرافيات التقليدية بمختلف أصنافها.

بالإضافة إلى هذا الصنف الذي يخدم «نموذجا مثاليا» يتجاوز الفرد، حافظ نوع آخر قريب من البيوغرافيا على التواجد في بعض الزوايا المختبئة من الكتابات التاريخية على حد تعبير سابينا لوريكا، والمقصود به حقل البروسوبوغرافيا[218]، وهو نموذج تصنيف اجتماعي وسطي يهتم بالطابع العام للمجموعة دون التعمق في الفردانية. لقد كان هدف البروسوبوغرافيا الانتقال من التفرد إلى التعدد عبر دراسة المجموعة من خلال تقاطعات الأفراد الذين لهم مميزات مشتركة، مثل الانتماء لنفس المهنة أو الحرفة أو الطائفة أو التخصص أو الوظيفة الاجتماعية. إنها ليست بيوغرافيات حقيقية وإنما يتم توظيف معطياتها في البروسوبوغرافيا[219].

انتقلت البروسوبوغرافيا تدريجيا من الاهتمام بأوساط الخيالة والعسكريين والسياسيين قبل أن تنفتح على الأوساط الاجتماعية الأخرى، وقد ساهمت هذه الأبحاث لاحقا في إحداث معاجم لأسماء الأعلام وتقديم نبذة تاريخية أو لمحة مختصرة عن سير المجموعات. وقد استمر هذا النوع في الوجود وزُكّي دائما في حقل التاريخ، ولم يكن موضوع انتقاد من طرف الحوليات، لأنه ينطلق من وجهة نظر فردية ليصل إلى مستوى جماعي، فَأُفُقُ البروسوبوغرافيا هو الوصول إلى القاعدة الاجتماعية العامة حسب قانون الإحصائيات دون إعطاء القيمة للبعد الفردي. فالمعطيات البيوغرافية التي تأخذ مكانتها في البروسوبوغرافيا لم يُحْكم عليها تاريخيا بأنها متجددة إلا لكونها تحتوي على حمولة جماعية، لذلك فإن مؤرخي الفكر مارسوا البروسوبوغرافيا دون إظهار أي اهتمام بالبيوغرافيا الفردية[220]. لأن

217. بول ريكور . الذاكرة، التاريخ، النسيان. م.س. ص 289/437.

218. Sabina loriga *biographical and historicale writhing in the 19th and 20th Centuries*. op.cit p11.

219. Giovanni Levi. *Les usages de la biographie*. Op.cit. p-1330.

220. Ibid. p 1329-1330

البروسوبوغرافيا ليست سيرة الشخص المفرد وإنما تقوم بالتركيز على خصائص المجموعة، ومع مرور الوقت ظهرت معاجم بيوغرافيات عامة مهنية وجهوية عن أوساط العمال وعن البرلمانيين والعسكريين وأيضا عن المجرمين فقد ألف كلود كوفار بروسوبوغرافيا المجرمين بفرنسا في نهاية العصور الوسطى، وألف آخرون بروسوبوغرافيات عن القرون الوسطى وعن القديسين.

من بين الأسباب التي جعلت مهنة البيوغرافي أسوء مهنة في ميدان التاريخ الطابع الهجين لهذا النوع وتعدد العوائق الملازمة له، حتى أصبح البيوغرافي على حد تعبير دوس يُشَبَّهُ «بعازف البيانو في ملهى ليلي». كان الحذر من هذا النوع المحفوف بالمخاطر والمحكوم بقدر كبير من الخيال لطبيعة الكتابة الأدبية التي تميزه السبب في حصول قطيعة بين التاريخ والبيوغرافيا، لذلك تخلى المؤرخون في الماضي عن هذا النوع للروائيين لأنه يأخذ في نظرهم من الكتابة الأدبية أكثر مما يأخذ من الكتابة التاريخية. العائق الآخر الذي يواجه البيوغرافي في علاقته بالتاريخ هو صعوبة تناول الحياة الخاصة بسبب قلة المصادر، فإذا كانت المقاربة التاريخية تسعى إلى الحفاظ على الفرق بين الحياة الخاصة والعامة، فإن البيوغرافيا تقتحم المجالين معا، ومن هنا تأتي الخطورة، فبخلاف الروائي الذي يطلق العنان للخيال باعتباره أقل ارتباطا بالوثيقة، على البيوغرافي أن يكون أكثر قربا من الحياة الحقيقية للأشخاص. من هنا تُعتبر البيوغرافيا رهانا صعبا، فالكاتب الذي يطمح إلى تسليط الضوء على كل الأحداث في ظل النقص الوثائقي قد ينتهي به الأمر بسبب ذلك إلى الفشل والإخفاق.

«البيوغرافيا، مُعاقة التاريخ» إنه تعبير صارم لمارك فيرو[221]، وكتابة البيوغرافيا «ورطة» في نظر المؤرخ فرانسوا دوس لأنها تتضمن أخطارا متعددة، فبالإضافة إلى التوتر الذي يظل على أشده بين الرغبة في قول الحقيقة وبين الرواية التي تمر عبر الخيال، هناك الخوف من السقوط في المحظور: «الأفراد صناع التاريخ»، وأيضا تُطرح «مشكلة الذاتية والموضوعية».

إن البيوغرافيا هي عمل على الذات بقدر ما هي عمل على الآخر، فعلاقة الذات بالآخر تؤثر على العلاقة بالموضوع، يعترف دوس ويقر بأن الذاتية موجودة في الأعمال البيوغرافيا، لكنه يؤكد بالمقابل أنها موجودة في الأعمال التاريخية أيضا، فالذاتية رافقت على الدوام الأبحاث التاريخية، إذ ليس هناك تاريخ بدون ذَاتِيَةِ المؤَرِّخِ التي تُصبح جزءا من العمل التاريخي، وفي العمق التاريخ هو تاريخ المؤرخين

221. للمزيد راجع: Marc Ferro «La biographie cette handicapée de l'histoire» *Le Magazine littéraire*. avril.1979

الذين يكتبونه، فالمؤرخ الذي عايش الأحداث وشارك فيها كذات فاعلة وكتب عنها تختلف نظرته عن الذي يكتب عن الحدث اليوم، إنه يكتب تاريخ مختلف بمنظور وقراءة جديدة، ومع ذلك على البيوغرافي أن يترك مسافة بينه وبين الموضوع الذي يشتغل عليه، ليس على المستوى الفكري فقط ولكن أيضا على المستوى العاطفي وإلا سقط في «الوهم البيوغرافي»[222].

3. تاريخ الزمن الطويل

لقد طرحت مناهج العلوم الاجتماعية تحديا أمام المؤرخين، فقد جهرت بقدرتها على تحليل بنيات المجتمع دون الاعتماد على الزمن، وقد تمكنت مدرسة الحوليات خصوصا مع أطروحة فرناند بروديل حول البحر الأبيض المتوسط في عهد فيليب الثاني (والتي بدأ انجازها في العشرينيات وأتم تحريرها بعد الحرب العالمية الثانية- نوقشت سنة 1947م-) من طرح تصور جديد يقوم على أساس تعددية الأزمنة، فهناك في المرتبة الأولى الزمن الطويل أو الزمن الجغرافي الذي خصص له الجزء الأول من الأطروحة، وهو زمن بطيء الإيقاع إلى درجة يبدو وكأنه على حافة السكون، وهو زمن شبه ثابت، يوافق تاريخ الإنسان في علاقته بوسطه و محيطه، فإذا كان التاريخ هو أفعال الرجال في الماضي كما يرى المؤرخ الانجليزي رج كولنغوود، فإن بروديل قد أضاف بشكل فعال الآثار البطيئة غير المحسوسة في كثير من الأحيان للمكان والمناخ والتقنية على أفعال البشر في الماضي[223]. خصص بروديل أمثلة متعددة من خلال وصف الجبال والسهول والأنهار والعادات والثقافات والبحار والرياح والتيارات والملاحة والجزر والمناخ والحدود والسكان[224]. إن هذا الزمن الشديد البطء هو واحد من أهم وأكبر إضافات بروديل في التاريخ المعاصر، فقد ارتسمت خلف التاريخ الذي يعج بالحكومات والحروب والمجاعات تواريخ يكاد النظر إليها لا يستبين حركتها -تواريخ بطيئة الحركة- كتاريخ الطرق البحرية وتاريخ القمح ومناجم الذهب وتاريخ الجفاف والري والأراضي. تناسلت الأبحاث خلال هذه الحقبة عن نماذج مشابهة من مواضيع مثل النمو الاقتصادي للمجتمعات، والتحليل الكمي لسيل التبادلات، ومنحى التغيرات الديموغرافية، ودراسة المناخ وتقلباته،

222. Bourdieu Pierre, *L'illusion biographique. Actes de la recherche en sciences sociales*. Vol. 62-63. juin 1986.

223. جون ليشته خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة م.س.ص191.

224. FERNAND BRAUDEL.la méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de Philippe II (1558-1598) Paris. Edition 1986.VOL.2. P588/627.

ورصد الثوابت السوسيولوجية[225].

في المرتبة الثانية يأتي الزمن الدوري أو زمن الظرفية، يقابله تاريخ المدى المتوسط مثل التغيرات الدورية التي تصيب الاقتصاد من هبوط وارتفاع الأسعار أو الإنتاج. وتأتي أهمية هذه المواضيع بالنظر إلى حجم التساؤلات التي تُطرح من طرف الظواهر الدورية، والتي تكذب التاريخ الخطي الكرونولوجي للأحداث المتسلسلة.

وأخيرا هناك الزمن القصير بذبذباته الانفعالية، والذي خَصَّصَ له القسم الثالث من الأطروحة، وهو زمن الأحداث المرتبط بالتاريخ التقليدي السردي ذو البعد الفردي، اعتبره بروديل تاريخا خطيا، دعا إلى تجاوزه لأنه بمثابة الزبد الذي يطفو فوق موجات بحر التاريخ، فهو تاريخ سريع متقلب غالبا ما ينتهي إلى النسيان.

في مرحلة ما قبل مقاربة الحوليات كانت كتابة التاريخ تركز على الأجل القصير أو على ما يسمى بالتاريخ الحدثي، والتاريخ السياسي والديبلوماسي من أهم رموز هذا التاريخ[226]. أما مع فرناند بروديل وبمرور الحدث الى المرتبة الثالثة بعد البنية والظرف فقد توسعت فكرة التاريخ لتشمل الإيقاع الأبطأ للتاريخ.

هكذا إذن استطاع بروديل أن يتجاوز مفهوم الزمن القصير الذي ساد لمدة طويلة لصالح زمن ذو أمد طويل، وأعطى أهمية كبرى لمفاهيم جديدة مثل البنية والمجال في علاقتهما بالأزمنة التاريخية، ومن خلال هذا المفهوم الجديد للزمن استطاعت مدرسة الحوليات فرض فرص أكبر لتواجد التاريخ بقوة في ميادين العلوم الاجتماعية الأخرى، ولعل هذا ما يفسر لنا الاحتكاك الكبير والحوار الطويل الذي وقع بين التاريخ وهذه العلوم، وما نتج عنه من تحطيم مختلف الحواجز التي كانت سائدة بينها خصوصا مع الجغرافيا والسوسيولوجيا والاقتصاد والديموغرافيا، وقد كان هذا من أهم النتائج الايجابية لمدرسة الحوليات رغم المؤاخذات والاتهامات التي وجهت للتاريخ ولدوافعه الامبريالية التوسعية على حساب باقي العلوم الاجتماعية خلال سعيه إلى بلوغ مرتبة علم العلوم .

إن مفهوم الأمد الطويل قَرَّبَ الهوة بين التاريخ وعلوم أخرى مثل الانتروبولوجيا وعلم الاجتماع، فقد تم تجاوز التحدي الذي طرحه كلود ليفي ستراوس وقبله اميل دوركايم، بخصوص محدودية بلوغ المنهج التاريخ درجة الشمولية التامة.

لقد كان المغزى الأساسي من العمل البروديلي هو إدراك التاريخ في تعددية زمنه من خلال الثالوث (زمن طويل، زمن الظرفية، زمن قصير) لبلوغ تاريخ شمولي،

225. ميشيل فوكو. حفريات المعرفة. م.س، ص5.

226. جون ليشته. خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة. م.س. ص192.

يبحث في تاريخ المجتمعات الكوني الكلي، وليس في التاريخ السردي الحدثي فقط، ومن ثم القدرة على الإحاطة بالمجتمع في بنياته وجغرافيته واقتصاده وذهنيته وعقليته وحضارته، ومن خلال احتكاك أكبر بين التاريخ وباقي العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

البنى والظرفيات والأحداث تلك هي ثلاثية بروديل لتقسيم الزمن التاريخي. هذا التقسيم بدوره تمت الدعوة إلى تجاوزه من قبل المؤرخ كريستوف بوميان، فالعنصر الأخير يطرح مشكلة، فمن السهل تحديد زمن البُنَى على أنه الأمد الطويل وشبه الثابت، والشيء نفسه بالنسبة لزمن الظرفيات، فهي تلك التموجات الظرفية الدائرية، أما بالنسبة للحدث فإن موقعه غامض، يمكن التغافل عنه فهو من مخلفات التاريخ التقليدي. بدأت اليوم النظرة إلى مفهوم الزمن التاريخي تتغير فإلى جانب الأمد الطويل والتغيرات الدورية برز زمن التجديد .... طبيعته تتطور كلما تجسد في بنية جديدة، إنه أمر جديد يمثل جزءا من ثورة، تنطلق ببطء لتنتهي بتكوين بنية جديدة. البنى والظرفيات و الثورات عناصر تمثل التقسيم الجديد لزمن التاريخ حسب كريستوف بوميان. اعتبر هذا المؤرخ أن دخول مثل هذه الثورات في التاريخ البنيوي لا يمثل نوعا من أنواع الثأر الذي يقوم به الحدث بعد وفاته، بل العكس هو الصحيح، فالحدث بالمعنى التقليدي للكلمة قد وقع إجلاؤه عن آخر مكامنه، ولم يعد التفكير في الثورة على أساس أنها سلسلة من الأحداث المفردة [227]. يمكن تسمية ثورة التغيرات الفجائية للبنية، وهكذا يمكن الحديث عن ثورة ديموغرافية، ثورة فلاحية، ثورة صناعية. إنه انقلاب في التوجه.

227.كريزيستوف بوميان.«تاريخ البنى». مقال شارك به ضمن الكتاب الجماعي. التاريخ الجديد. م.س. ص233/ 218/230/232.

الفصل الثاني

ما بعد التاريخ الجديد

1. مستقبل الحوليات بين التاريخ الجديد والتاريخ المفتت

صدرت أطروحة التاريخ المفتت لأول مرة سنة 1987م عن منشورات لاديكوفيرت La Découverte، قبل أن يعاد طبعها من جديد سنة 1997م عن نفس دار النشر، وهي أطروحة تناولت تأريخ تاريخ الحوليات والتعريف بروادها من الأجيال الثلاثة الذين تنكروا لإرث المؤرخين القدامى، وخصوصا مؤرخي القرن التاسع عشر، وتتبعت بتفصيل التطورات التي راكمتها هذه التجربة خلال مسارها الذي دام أزيد من نصف قرن[228].

خلال العشر سنوات التي تفصل الطبعتين الأولى عن الثانية تغير مشهد الكتابة التاريخية بشكل كبير في فرنسا وأوربا، وهو ما يعني أن الأفكار التي عبر عنها دوس بخصوص أزمة الحوليات كانت صحيحة رغم الإنكار الذي عبرت عنه مقالات جاك لوغوف.

لقد كونت الحوليات منذ تأسيسها جبهة موحدة ليس فقط ضد التاريخ التقليدي للمدرسة المنهجية، وإنما لاحتواء باقي العلوم الإنسانية الأخرى، وهو الأمر الذي نجحت فيه بعد أن فشلت في تحقيقه المدرسة الدوركهايمية، لا أحد يجادل في كون الرواد الأوائل لوسيان فيفر ومارك بلوك ومن جاء بعدهم أحدثوا تجديدا على مستوى المنهج، وعلى مستوى المواضيع التاريخية، لكن ما يؤخذ على حوليات الجيل الثاني والثالث خُضوعها لتأثيرات أصحاب القرار السياسي، وتحالفها مع وسائل الإعلام ودور النشر، وسيطرتها على الجامعات ومراكز الأبحاث. لقد استقرت الحوليات في موقعها السلطوي وأصبحت تمجد ذاتها وتبني أسطورتها دون أن تعي دخولها مرحلة الأزمة، إذ ليس هناك انسجام داخلي إلا ذاك الذي يتعلق برفض عودة التاريخ

228. التاريخ المفتت في الأصل أطروحة دكتوراه للسلك الثالث ناقشها فرانسوا دوس عام 1983م بجامعة باريس.

التقليدي، فقد ظهرت أصوات تدعو للنقد من داخل الحوليات، وهناك خلافات مختفية خلف الشعار المشترك للحوليات، وقد اعتبر فرانسوا دوس هذه الخلافات من علامات أزمة تشقق الخطاب الحولياتي، فالقوى الداخلية النافرة داخلها ستساهم في تفكيك مدرسة الحوليات و ليس تفكيك التاريخ[229].

خلف كتاب التاريخ المفتت صدى قويا في أوساط المؤرخين الفرنسيين، وكانت له تأثيرات كبيرة على مؤرخي التاريخ الجديد، فَرَدُّ فعل إدارة الحوليات في البداية كان نفيا قاطعا لفكرة الأزمة في حد ذاتها، هذا الإنكار انطلق من موقف استباقي هدفه تكوين حزام وقائي لحماية صرح الحوليات المتداعي، أعقبه تَجَنُّبُ ذِكْرِ التاريخ المفتت وصاحبه ما أمكن.

لقد نظر الجيل الثالث من الحوليات إلى الأسئلة المطروحة على أنها هجمات عدوانية، وتبدو عبارات لوغوف معبرة عن هذا الموقف، ففي الوقت الذي لا يستطيع فيه القارئ أن يجد أيَّ نقد مباشر لأعمال لوغوف الشخصية ضمن التاريخ المفتت، نرى أن هذا الأخير قد أخذ موقف حارس القلعة المحاصرة متحدثا في مقدمة الطبعة الثانية للمؤلف الجماعي التاريخ الجديد عن مؤامرة حقيقية يدبرها أولئك الذين يتحدثون عن «أزمة التاريخ»، والذين جعلوا من أنفسهم رقباء ووعاظ «ضخمتهم وسائل الإعلام» وَاسِماً إياهم بالمتطفلين على ميدان التاريخ.

إن طرح تساؤلات بخصوص وجود أزمة في الممارسة التاريخية في نظر لوغوف ليست سوى اختلاق وهمي لمجموعة من «الارتجاليين»، وأنه ليس في الأمر ما يقلق لأن المسألة في جوهرها لا تعدو أن تكون مجرد إشاعات صاخبة سطحية تروجها «وسائل الإعلام»، وإذا كان جاك لوغوف قد اعترف افتراضا بأنه يمكن أن تكون هناك أزمة فإنه نفاها عن التاريخ و ألصقها بباقي العلوم الاجتماعية الأخرى[230].

لقد اتسم رد هذا المؤرخ على التاريخ المفتت بالقسوة والعنف، إذ لم يشر بالإسم لا لمؤلفه فرانسوا دوس ولا لكتابه موضوع النقد ولو لمرة واحدة، كما غاب الكتَابُ من لائحة المصادر المعتمدة لديه. ولعل هذا يفسر حجم العداء الموجود بين المؤَرِّخَيْن لدرجة أن فرانسوا دوس لم يشارك في أي أعمال أشرف عليها جاك لوغوفَ والعكس صحيح. وهذا الأمر لا ينطبق على جميع رواد الجيل الثالث من الحوليات، فقد شارك فرانسوا هَارْتُوغ وجَاك رُوفيل و بيير نورا في العديد من المؤلفات التي

229. فرانسوا دوس . التاريخ المفتت.م.س. ص374.

230.للمزيد بخصوص نفي الأزمة عن التاريخ يراجع جاك لوغوف . التاريخ الجديد. مقدمة الطبعة الثانية 1988م.

أنجزها أو أشرف عليها فرانسوا دوس[231].

اعترف المؤرخ فرانسوا دوس بالعنف السلبي الذي اتسم به رد الحوليات على الانتقادات التي وجهها إليهم، إلا أنه بالمقابل أقر في طبعته الجديدة بوقوع مظالم هنا وهناك في انتقاداته لمؤرخي الحوليات ضمن كتابه التاريخ المفتت، وخصوصا ضد بيير شونو الذي كان هدفا للنقد الإيديولوجي من طرف المؤلف الذي اتهمه بمساندة السياسة الإنجابية ومعارضة الإجهاض بالبلدان الأوروبية خوفا من تحويل الغرب إلى صحراء تغزوها جحافل الشعوب السمراء، وشعوب العالم الثالث الأخرى، وهو موقف يعبر عن الإقرار ضمنيا بعنصرية بيير شونو وانتصاره لفكرة تفوق الحضارة الغربية على باقي الحضارات والأمم. وقد اكتشف دوس فيما بعد وعن قرب أن الرجل كان بعيدا جدا عن القوالب الجاهزة التي قيلت عنه بهذا الشأن[232].

تحامل حارسُ قلعةِ التاريخ الجديد جاك لوغوف بقوة على عودة الحدث وعلى عودة المواضيع البيوغرافية مجددا إلى حقل التاريخ، معتبرا ذلك عودة إلى مواضيع تاريخية قديمة، وشَبَّهَ الأمر بعودة الارستقراطيين الذين هاجروا إبان الثورة الفرنسية والذين يجب التصدي لهجومهم، فالتساؤلاتِ بشأن الرواية التاريخية والتي طرحها ميشال دو سِيرتُو وبُول ريكور وبُول فاين ولُورَانْسْ سْتُونْ وهَايْدْنْ وَايْتْ جُوبهت بالرفض من قِبَل هذا المؤرخ، فالتاريخ السردي في نظره جثة يجب ألا تبعث بل يجب قتلها مرة ثانية[233].

اتسم إذن رد الفعل الأولي اتجاه الاتهامات التي قدمها التاريخ المفتت من قبل الحوليات إلى تجنب أي إعادة نظر أو اعتراف بوجود أزمة، بل بالعكس تم التشديد على حيوية التاريخ وتأقلمه مع المتغيرات، فجاك لوغوف أكد على نجاح تجربة التاريخ الجديد الذي اعتبره مازال يعيش مرحلة طفولته الأولى.

لكن بعد مرور عشر سنوات من صدور الكتاب، وبالضبط في بداية الثمانينيات تم الإقرار بالانفجار الذي توقعه التاريخ المفتت، فالتاريخ الذي تم تطعيمه بالعلوم الاجتماعية تخلى عن هويته وعَرَّضَ نفسه لخطر الضياع في الإنفجار والتحول إلى

231.شارك فرانسوا هارتوغ وجاك روفيل بمقالات في المؤلف الجماعي الكتابة التاريخية: المفاهيم والمناقشات الذي أشرف عليه فرانسوا دوس مع آخرين. كما أنجز فرانسوا دوس مؤخرا بيوغرافية عن المؤرخ بيير نورا صدرت بعنوان بيير نورا الإنسان التاريخي. وقد قدم بيير نورا للمؤلف كل المعلومات التي مكنته من إنجاز هذه السيرة ،كما شارك إلى جانبه في حوار مفتوح بشأن تجربة الكتابة البيوغرافية بمناسبة صدور الكتاب. يراجع:
.François Dosse. *Pierre Nora. homo historicus*. Librairie Académique Perrin. 24 février 2011
Sous la direction de C.Delacroix, F.Dosse, P.Garcia. Historiographies. Concepts et débats. op.cit.

232.فرانسوا دوس التاريخ المفتت م.س.ص11.

233. بخصوص موقف جاك لوغوف من عودة الحدث والبيوغرافيا تراجع فقرتي «انبعاث الحدث» و«عودة البيوغرافيا» من هذا الكتاب.

تواريخ مفككة وشظايا مشتتة لا رابط بينها.

برزت على الساحة العديد من المؤشرات الدالة على أزمة التاريخ، فانفجار الحقل التاريخي تم تبنيه من قبل العديد من المؤرخين الحولياتيين بعد الثمانينيات، فقد طرح غي بوا Guy Bois تساؤلات عميقة بشأن تعريفات «التاريخ الجديد» في معرض حديثه عن العلاقة بين هذا التاريخ والماركسية، محذرا من حجم الغموض والتناقض الذي يخترق مفهوم «التاريخ الجديد» رغم تقديمه لنفسه من خلال اهتماماته المتنوعة وانفتاحه على مواضيع وقضايا جديدة، لقد حذر غي بوا بالرغم من إقراره بالنجاح الذي حققته الأجيال الثلاثة للحوليات من مغبة السقوط ضحية الموضة، فها هو التاريخ الجديد وقد قدمه البعض بوصفه نوعا من أنواع الصابون[234]. في حين أقر بيير نورا بحقيقة التاريخ المتشظي، مؤكدا أننا نعيش اليوم تاريخا مفتتا انتقائيا متمددا، وهو الأمر الذي يُفَسَّرُ به انخراطه في مشروعه الكبير أماكن الذاكرة، وابتعاده نسبيا عن مجلة الحوليات منذ سنة 1980م، وإطلاقه مجلة جديدة سماها حوار Le débat. بدوره تحدث بيير شونو عن فترة الأداء المتراجع، وعن عودة الرقاص إلى الموضوعات التقليدية، وإلى الولع بالسرد. أما فرانسوا فوريه فقد غادر طوعا رئاسة مدرسة الدراسات العليا سنة 1985م صوب الإشراف على إدارة معهد ريمون آرون، مبتعدا بذلك عن أرضية الحوليات. وعبر جورج دوبي عن إحساس داخلي قوي يراوده عن قرب نهاية شيء ما. في حين لم يرتد جاك روفيل ثوب الحداد على التاريخ الكلي أو الكوني الذي كان مطمح مارك بلوك[235]. وجاك لوغوف نفسه في معرض دفاعه عن التاريخ الجديد في وجه منتقديه يؤكد بأنه ليس قائد مدرسة تاريخية، وأنه لا يتكلم إلا باسمه الشخصي، وأن رأيه لا يلزم أحدا غيره من مؤرخي الجيل الثالث للحوليات[236].

من خارج التاريخ الجديد ارتفعت أصوات أكثر تشددا، نسجت على منوال بيير فيلار الذي اعتبر أن مدرسة الحوليات انتهت، فالتاريخ الجديد (أصبح قديما الآن) حسب ادْغَار مُورَان[237]، و لم يعد هناك في نظر فرانسوا دوس بعد تحطم البناء التاريخي وانتهاء التوجهات الشمولية تاريخ وإنما تواريخ[238]. نفس الأمر بالنسبة

234. غي بوا . «الماركسية والتاريخ الجديد». مقال ضمن التاريخ الجديد.م.س ص ص410/411.

235. انظر بخصوص هذه التصريحات . فرانسوا دوس. التاريخ المفتت. ص14/270/271.

236. جاك لوغوف.التاريخ الجديد.من مقدمة الطبعة الثانية ص41.

237. ادغار موران. النهج، انسانية البشرية، الهوية البشرية.ترجمة هناء صبحي،الطبعة الأولى، أبوظبي،2009م. ص244.

238. فرانسوا دوس. التاريخ المفتت.م.س. ص22/367/368.

لمارسيل غوشي الذي انصب اهتمامه بالدرجة الأولى على تتبع «أزمة الهوية في البحث»، و«التشكيك المعرفي» في مقاله المرجعي المنشور بـمجلة الحوار عام 1988م تحت عنوان تحول البراديكم في العلوم الاجتماعية[239].

هل سنشهد بالفعل نتيجة لهذه التحولات اليوم نهاية محتملة للتاريخ بنفس الطريقة التي انتهى بها علم الحيوان سابقا؟ و هل سيسقط بالفعل التاريخ في نفس التهميش الذي أصاب بالأمس الجغرافيا؟. إنها أسئلة تؤرق المؤرخين بخصوص مستقبل الكتابة التاريخية.

لقد تجاوبت أعداد مجلة الحوليات ابتداء من سنة 1988م مع المتغيرات الجديدة التي عرفها مشهد الكتابة التاريخية، وتفاعلت مع الأسئلة القلقة بخصوص مستقبل هوية التاريخ، لقد عبرت المجلة لأول مرة عن وجود تغير ما من خلال عناوين لافتة للنظر، و هو الأمر الذي يُحيل إلى وجود شيء ما، لقد تمت الإشارة إلى بدء زمن الشك في فترة لم يعد للماركسية والبنيوية ومفاهيم الكم ذلك البريق وتلك القدرة التأطيرية، كما عبرت العديد من المواضيع المنشورة في الحوليات عن هذا التحول الجذري وانتقدت المواقف السابقة. لقد أصبح الحديث يتمحور فجأة وبشكل علني عن فقدان التاريخ والمؤرخ لهويته[240].

انطلقت الحوليات كما يؤكد فرانسوا دوس منذ 1988م في مسار جديد مختلف جذريا عن المرحلة السابقة، وهذا تأكيد ضمني منه على مشروعية النقد الموجه من التاريخ المفتت، ويعود الدور الكبير إلى المؤرخ برنار لوبتي سكرتير تحرير مجلة الحوليات في هذه التوجهات الجديدة، والتي من أهمها طرح إمكانية اعتماد التأويلية كأول تحول حاسم في قطيعة مع مفاهيم ظلت سائدة ومسيطرة في الماضي. لقد أدخل هذا «التحول الحاسم» الحوليات خلال التسعينيات في مسار البحث عن «بلورة باراديكم جديد» يعيد بحسب بيرنار لوبوتي دائما صياغة مجالات عمل المؤرخ، مقترحا في نفس الوقت التقليص من حجم التداخل المفرط بين التاريخ والعلوم الأخرى، وإعادة الاعتبار لدور الفاعلين الاجتماعيين الذين ظلوا على الهامش مدة طويلة[241]، و مواكبة لهذه التحولات تم تغيير العنوان الفرعي لمجلة الحوليات فأصبح

---

239. عبد الأحد السبتي- محمد حبيدة، «ما بعد التاريخ الجديد». قراءة في كتاب فرانسوا دوس، التاريخ المفتّت. من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، بيروت، منشورات المنظمة العربية للترجمة، 2009م، مجلة رباط الكتب الإلكترونية، العدد التاسع.

240. فرانسوا دوس. التاريخ المفتت .م.س.ص17/18.

241.عبد الأحد السبتي- محمد حبيدة، «ما بعد التاريخ الجديد». قراءة في كتاب فرانسوا دوس، التاريخ المفتّت. م.س.

تاريخ علوم اجتماعية بدل اقتصاديات مجتمعات حضارات. و أيضا طُعِّمَتْ الإدارة الجديدة للحوليات سنة 1994م بعالمي الاقتصاد لوران تيفينو Laurent thévenot واندري اورليان André orléan[242] .

إن أهم تطور حصل نتيجة هذه التغييرات يتمثل في إعادة تدبير الزمن وإعادة الاعتبار للأمد القصير وللحدث، لقد أصبح يلوح في الأفق خطاب تاريخي جديد يُعَبِّر عن زمن جديد للكتابة التاريخية، فقد نصح برنار لوبوتي بنموذج زمني صالح لمهنة المؤرخ يشارك إيجابيا في تأويل الوعي التاريخي، و يُحيل في تأصيل هذا المفهوم بشكل صريح إلى كتاب الزمن والسرد لبول ريكور، وبهذا فهو يشيد بالأهمية الجديدة التي تصور بها الكتابة التاريخية هذا الأخير. فزمن التفكير الذي يمر به علم التاريخ يفرض رؤية تأويلية ليس فقط بالنسبة إلى مواضيع التاريخ و لكن أيضا بالنسبة إلى تطورات كتابته[243].

لقد حدثت كل هذه التطورات بغتة، فمع بداية الثّمانينيات فقد كلّ شيء توازنه، توفّي عدد كبير من رموز التيار البنيوي الفرنسي واختفت فجأة من الساحة أعمالهم، لقد قوي الشعور بنهاية حقبة من الزّمن. فالأفكار التي ظهرت في الثّمانينيات شكلت ما نعت بأنّه فكر ما بعد بنيوي، وهو مخاض لجيل جديد من المثقفين المدافعين عن عودة الفرد متجاوزين بذلك النزعة البنيوية المتشددة التي رسخت في الأذهان إبعاد الإدراك الواعي للفرد من خلال التركيز على المجتمع، كما تم إعادة ربط الصّلات الحميمة مرة أخرى بين الفلسفة و العلوم الإنسانية.

لقد وقفت البنيويّة خلال الخمسينيات و الستينيات في وجه انتقال الأفكار الأنجلو- سكسونيّة إلى فرنسا، وانطلاقا من الثّمانينيات وبفضل جهود مفكرين وفلاسفة من أمثال جون فرانسوا ليّوتار و ميشال سار و جاك دريدا و جون بيار ديباي الذين خاضوا تجربة التدريس بالولايات المتحدة الأمريكية برزت إلى الواجهة فكرة تقبل الفلسفة الأنجلو-سكسونيّة المسمّاة «تحليليّة»، والّتي جاءت لتقطع مع التّقليد «الفرنكو- ألماني». فرأينا خلال الثّمانينيات عودة للفاعل في علم الاجتماع، فقد كرّس على سبيل المثال عالم الاجتماع آلان توران سنة 1983م كتابا بأكمله لمسألة عودة الفاعل، وصار من الممكن مرّة أخرى كتابة تاريخ سياسي، هذا ما توضّحه أعمال مارسيل غوشي عن الديني والسياسي، وجيرار نورييل حول الهويّة، وألان

242. فرانسوا دوس. التاريخ المفتت.م.س. ص19.

243.راجع التصوز الذي قدمه بخصوص ورشة التاريخ بول ريكور في كتابيه الزمن والسرد. والذاكرة، التاريخ، النسيان.

بورو حول الإيمان، وفيما بعد أعمال بول ريكور حول الزمن والسرد، وبصفة أشمل مشروع أماكن الذاكرة لبيير نورا.

يبرز هذا التحول والانتقال أكثر في علم الاجتماع الجديد، فهذا العلم الّذي مثله ليك بولتنسكي ولوران تيفنو شكك في عدد من مسلّمات علم الاجتماع الفرنسيّ، وعلى الأخص في الادعاءات القائلة بالقطيعة بين الكفاءة العلميّة والكفاءة العموميّة، حيث ظل يُشَكّكُ في قدرة النّاس العاديين على وصف وضعيتهم الخاصّة. وقد زكى النّموذج البنيويّ في السابق هذه الادعاءات باعتبار أن الذات ممقوتة كما ورد في خاتمة كتاب مدارات حزينة لكلود ليفي ستراوس، وهو الأمر الذي أدى بالفيلسوف بول ريكور إلى وصف البنيوية في إحدى المناقشات بأنها نزعة تعال من دون ذات[244]. النّموذج الجديد لعلم الاجتماع وجد في البحث الميدانيّ الفضاء الأمثل لاختبار تجاربه، حيث قام ليك بولتنسكي ولوران تيفنّو ببحث رائد حول الطّريقة الّتي نجري بها نقاشاتنا اليوميّة. لقد انتقلنا من البنية إلى الذات[245].

الذات المقصاة والمذمومة خلال الفترة البنيوية أصبحت تفصح عن نفسها في عدة ميادين، في الانتربولوجيا والتحليل النفسي والأدب وعلم الاجتماع، فقد خَفّتْ حدّةُ الاستخفاف بالنزعة الإنسانية ونفي الذات حتى من طرف أولئك الذين أعلنوا سابقا موت الإنسان، فميشال فوكو في تاريخ الجنسانية وهو آخر أعماله المنشورة، رأى فيه العديد من الباحثين بداية مرحلة جديدة ومتميزة عن سابقاتها، ابتعد فيها عن المضامين المناهضة للذات وللنزعة الإنسانية. ففي هذا الكتاب يتجلى الاهتمام بالذات وبالفاعل وبالمهمش. وكان فوكو قد انضم بالفعل في نهاية مطافه إلى التيار المنادي بالعودة الى الذات الذي بدأ ينتعش أخيرا في الفلسفة الفرنسية[246].

شهدت العقود الثلاث الأخيرة تغيرات كثيرة في مجال التاريخ، الانهيار والانفجار هي الصفات التي يمكن أن نسم بها التغيرات التي طرأت على ميدان التاريخ منذ الثمانينيات، في البداية حاولت الهيئة الإدارية لمجلة الحوليات نفي فكرة الأزمة عن التاريخ كما سبق وأن أشرنا إلىٰ ذلك، وكان ينظر إلى الأسئلة المطروحة

244. بول ريكور.بعد طول تأمل. تقديم عمر مهيبل ترجمة فؤاد مليت.منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون، الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2006م، ص53. وهي سيرة ذاتية فكرية للمؤلف ركز على ما طرأ من تغييرات على أعماله الفلسفية.

245. بخصوص أزمة العلوم الإنسانية يراجع:
François dosse .De la structure au sujet. L'humanisation des sciences humaines? www.sienceshumaines.com /de-la-structure-au-sujet-l-humanisation-des-sciences-humaines_fr_11738.html. 2011.

246.عبد الرزاق الدواي.موت الإنسان هايدغر، ليفي ستراوس، ميشيل فوكو. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة1، 1992م، ص129.

من الخارج على أنها هجمات عدوانية ومؤامرات تحركها وسائل الإعلام للنيل من نجاحات التاريخ الجديد، لكن مسؤولي الحوليات وبعد تجنب سابق مقصود لأي إعادة نظر، سينفتحون تدريجيا على قراءات نقدية كما هو الحال مع المقال الافتتاحي المنشور بمجلة الحوليات عدد مارس/ أبريل1988م تحت عنوان مثير التاريخ والعلم الاجتماعي منعطف نقدي[247]، وهي افتتاحية تعترف بعودة زمن الشك من جديد، فالأفكار التي كانت تنهل من الماركسية والبنيوية فقدت بريقها السابق. الافتتاحية دعت إلى المساهمة في إعادة تعريف ما هو خصوصي بالنسبة إلى المقاربة التاريخية، وقد أدت هذه الدعوة لاحقا إلى نشر عدد خاص في نونبر/ دجنبر من سنة 1989م حول هذا التحول الحاسم، نلمس فيه تحولا جذريا في الخطاب، ففي النهاية وفي اعتراف ضمني بمشروعية النقد المركزي للتاريخ المفتت أشارت الافتتاحية المعنونة بـ«لنحاول التجربة» إلى مخاطر تفجر التاريخ الذي نفاه سابقا المؤرخ جاك لوغوف في مقدمة الطبعة الثانية للتاريخ الجديد سنة 1988م.

انطلقت مجلة الحوليات إذا مع نهاية الثمانينيات في مسار جديد مختلف جذريا عن السابق، وقد لعب المؤرخ برنار لوبوتي سكرتير التحرير دورا رئيسيا في تحديد هذه التوجهات الجديدة.

لقد عبر بول ريكور مرات عدة عن تأييده لمركزية الكتابات التاريخية المقترحة من طرف برنار لوبوتي (1996-1948م) حول مسألة «الهويات والصلات الاجتماعية» كما طرحها في مقاله تاريخ الممارسات، ممارسة التاريخ المنشور ضمن المصنف الجماعي الذي أشرف عليه، وهو بعنوان **أشكال التجربة. تاريخ اجتماعي آخر**، هذه التيمة الشاملة للعودة من الاجتماعي إلى المجتمع، الذي يحلل كصنف للممارسات الاجتماعية والتمثيلات المندمجة في هذه الممارسات، والذي يعتمد حسب لوبوتي دائما كمرجع لإعادة تعريف الهوية التاريخية التي هي موضع الرهان. حول كل هذه الأسئلة قابل ريكور في كتابه **الذاكرة، التاريخ، النسيان** بين تحليلاته الخاصة مع تحليلات مؤرخين عدة كما هو الحال بالنسبة للانتقادات التي حملها روجي شاريتي ضد تاريخ العقليات وكذلك تحليلات مؤرخي التاريخ المجهري، وأيضا تحليلات برنارد لوبوتي. إن أطروحات بول ريكور في كتابه السابق الذكر تناولت وطورت من جديد أطروحات برنارد لوبوتي الشيء الذي لم يتم التعليق عليه من طرف المؤرخين. كيف يمكن تفسير صَمْت المؤرخين حول هذا الجانب من التحليلات في كتاب **الذاكرة،التاريخ، النسيان** والتي تلامس بشكل مباشر هوية الحوليات؟ يتساءل

247. بول ريكور. الذاكرة ،التاريخ،النسيان.م.س.ص329.

كريستيان دو لاكروا[248].

إن أهم النتائج التي صاحبت هذا التغير كما طرحته المقاربات الجديدة تتجلى في نشأة نظام وتدبير جديد للتاريخ، قوامه إعادة ترتيب الزمن، وإعادة الاعتبار للأمد القصير وللسرد، وللحاضرية وتاريخ الراهن، ولآثار الحدث في الذاكرة والتاريخ الآني.

إن هذه العودة القوية للسرد وللبيوغرافيا و للحدث تعيد من جديد إلى الواجهة النقاشات الحادة بشأن هوية التاريخ ودلالاته، ولقد أقرت مجلة الحوليات سنة 1988م بالأزمة العامة التي أصبحت تعيشها العلوم الإنسانية، ومن بينها ميدان التاريخ الذي لم يكن بمنأى عن هذه الأزمة، فبعد أن بنى مكانة متميزة خلال مرحلة سيطرة البنيوية ها هو يفقد إمكانياته وديناميته، إنه زمن الريبة والشك الذي عاد من جديد ليحوم حول التاريخ[249]. فهل يتعلق الأمر بأزمة ابستمولوجية جديدة ؟ أم هو عودة التاريخ إلى انتمائه الأصلي؟

يقر ميشيل دو سيرتو أيضا بوجود هذا التغيير في التوجه مقارنة بحوليات الأمس[250]، فقد تشكلت سحابة قاتمة في الأفق بخصوص حرفة المؤرخ، فبعد طفرات متعددة حققتها مهنة التاريخ أثناء مسيرتها تكيفت خلالها مع الأوضاع المتغيرة، واستطاعت أن تبلور خطابات و نماذج جديدة في كل مرحلة، هاهي اليوم تعيش مرحلة التحولات الحاسمة. فهل فقد المؤرخ عصاه كرئيس للجوقة في حقل العلوم الاجتماعية؟ وماذا بقي من خصوصية للتاريخ بعد انفتاحه على مناهج العلوم الاجتماعية والانتروبولوجية والسوسيولوجيا؟ وماذا بعد تكسير الحدود مع باقي التخصصات الأخرى؟ إنها أسئلة القلق بخصوص المستقبل في سياق موجة المعاصرة[251].

مع أواخر الثمانينيات من القرن الماضي عاشت إذن «مهنة المؤرخ» سنوات من«التشظي والتفتت»، وجد خلالها الجيل الجديد من المؤرخين أنفسهم في أزمة حقيقية، إنها أزمة الهوية والممارسة التي بدأ يشعر بها فريق إدارة الحوليات، والتي نتلمسها في مناسبات عديدة، سواء من خلال تغيير العنوان الفرعي من اسم المجلة،

248. Christian Delacroix .Ce que Ricœur fait des annales: méthodologie et épistémologie dans l'identité des annales. Paul Ricœur et les sciences humaines. Op.cit.p212/213/214.

249. Histoire et science sociale, in tournant critique. Annales.1988.

250. فرانسوا دوس .التاريخ المفتت .... م.س ص270.

251. بخصوص الجدل حول أزمة تاريخ الحوليات يراجع: فرانسوا دوس.التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد.م.س. ومقدمة الطبعة الثانية لجاك لوغوف (إشراف).التاريخ الجديد.م.س.

أو من خلال المناقشات الحادة التي برزت للوجود مع الجيل الثالث لمدرسة الحوليات من أجل إعادة صياغة مجالات التاريخ وتحديد التوجهات الجديدة، والعمل على التكيف مع الوضع المتغير في ظل تحديد [صعوبة هوية مستقرة للتاريخ] والعمل على التكيف مع الوضع المتغير[252]. إنه زمن الشكوك والفوضى الابستمولوجية التي عرفتها الكتابة التاريخية في سنوات 1980-1990م بفرنسا والتي تلخص «أزمة التاريخ» و«أزمة وضوح المؤرخين»[253]. إن المسألة أصبحت صعبة وذات أهمية قصوى، إنها تتعلق بوجود التاريخ في حد ذاته وفي مدى قدرته على تجنب الانزلاق أو ما سماه دوس«التجربة الانتحارية المزدوجة»: إما الهروب إلى الأمام وبالتالي الذوبان ضمن العلوم الاجتماعية، أو التراجع نحو التاريخ في صيغته الوضعية القديمة التي عُرِف بها خلال القرن التاسع عشر[254].

لقد ظهرت توجهات جديدة تعبر عن عودة الذات والفاعل إلى العلوم الإنسانية، ومن أهم تجلياتها انتعاش كتابات سير الحياة وسير الناس العاديين وسير فكرية، والتي استطاعت أن تفرض نفسها كحقل جديد يتصالح فيه التاريخ مع الرواية لإحياء الذاكرة التاريخية، فبعد أن فقدت الكتابات البيوغرافيا بريقها خلال الفترة التي أحكمت فيها الحوليات قبضتها على المعرفة التاريخية، وتراجع الاهتمام بها بعد أن كيلت لها اتهامات بالمبالغة والإفراط في الخيال وقلة الضبط، أو بدعوى انتمائها لمجال التاريخ السياسي، ها هو جنس السير ينتعش ويفرض نفسه من جديد على الكتابات التاريخية والروائية مثله في ذلك مثل الحدث سابقا، لقد أعيد الاعتبار ضمنيا إلى التاريخ الفردي من زاوية ما أصبح يعرف بـ «رهانات كتابة البيوغرافيا»، هذه الكتابة التي تعد اليوم إحدى الميادين الجديدة لاختبار قدرة المؤرخ على التعامل معها.

2.حمّى البيوغرافيات

في الكتابات التاريخية المعاصرة خاصة في فرنسا هناك عودة للموضة، عودة للسرد، عودة للحدث، عودة للتاريخ السياسي، والأسرع تكاثرا عودة البيوغرافيا التي اقتحمت دور النشر وواجهة المكاتب العامة والخاصة، وحققت أكبر المبيعات

252.نخص بالذكر مقال .«التاريخ والعلم الاجتماعي منعطف نقدي». (مجلة الحوليات 1988 .ESC، ص291/293)، ومقال. «لنحاول التجربة». (مجلة الحوليات 1989 ،ESCم، ص1317-1323).

Christian Delacroix. *Entre doutes et renouvellement –les années 1980-2000* parmi. Ch. Delacroix. F..253 .Dosse .P. Garcia. *Les courants historiques en France XIX-XX*. op.cit, P483

254. فرانسوا دوس . التاريخ المفتت.م.س.ص30.

وخصوصا البيوغرافيات الرومانسية التي هي أقرب إلى الكتابات الأدبية منها للكتابات التاريخية[255]. هكذا وصف المؤرخ الفرنسي الشهير جاك لوغوف «حارس القلعة المحاصرة» في مقاله الشهير كيف نكتب البيوغرافيا التاريخية الآن عودة هذا النوع إلى الواجهة بعد أن صادف كسوفا طويلا في حركة الحوليات.

يؤكد فرانسوا دوس في كتابه الرهان البيوغرافي- كتابة سيرة-[256] على وجود انفجار حقيقي في مجال كتابة السير خلال العشرين سنة الأخيرة في فرنسا، وقد استهل كتابه بلوحة بانورامية تقديمية عن هذه العودة القوية للبيوغرافيا بجميع أصنافها من خلال تتبع التطور الذي حققته سوق السير من مبيعات، وخَلَصَ من خلال لغة الأرقام أن البيوغرافيات التاريخية أضحت مسيطرة على سوق الكتب، مستفيدة من هوس الجمهور المتعطش لهذا النوع، ومن التنافس الحاد بين الناشرين الذين كان لزاما عليهم أن يتصرفوا ويتفاعلوا حتى يتجنبوا السقوط في حتمية التفتت. في ظل هذا التنافس الذي وسمه دوس «بالحمى البيوغرافيا» وقعت طفرة هائلة تعبر عنها بشكل واضح الإحصائيات التي قدمها في مؤلفه، فقد بلغ عدد البيوغرافيات الجديدة التي نشرت سنة 1985م حوالي200 بيوغرافيا، وفي سنة 1996م نشرت 611 بيوغرافيا، وفي سنة 1999م صدر 1043 مؤلف بيوغرافي، هذا دون حساب السير الذاتية والبحوث الأكاديمية. و بهذا احتلت الكتابات البيوغرافيا المكانة الأولى في محلات البيع.

هذه الأرقام تعبر حسب مقدمة المؤلف عن النجاح الهائل لهذا النوع من الكتابات، فهناك «حمي بيوغرافية» حقيقية في فرنسا حاليا، وقد وَسَمَتْ بعض المجلات الشهيرة ومنها لوفيغَارُو هذا السيل من الاصدرات «بالانفجار البيوغرافي». لقد حدث إقلاع بيوغرافي على حد تعبير دانيال مادلينا، وهو إقلاع يندرج في سياق حركة اسطوغرافية عامة وجديدة في أوربا خلال الفترة الحالية.

لقد ظلت السيرة لفترة طويلة من القرن الماضي محظورة في أوساط المؤرخين، إذ لم يكن هناك أسوء من النوع البيوغرافي في العلوم الإنسانية، لكن منذ سنة 1980م استعاد مشروعيته المفقودة في الحقل الأكاديمي، فهذا النوع الذي رفضته الحوليات عرف اليوم انتعاشة جديدة، لقد كان يبدو في الأفق أن البيوغرافيات انتهت، ثم بدأ الاهتمام بها يعود تدريجيا من خلال مقاربات جديدة. لقد استعادت البيوغرافيا في فرنسا الكثير من بريقها حاليا، ويشهد على ذلك هذا الزخم الكبير من الإصدارات.

255. Jacques le Goff «Comment écrire une biographie historique aujourd'hui» *Le Débat*, 54, mars-avr.1989.

256. للمزيد حول الموضوع: انظر خالد طحطح: «عودة البيوغرافيا». قراءة في كتاب فرانسوا دوس. الرهان البيوغرافي-كتابة سيرة- رباط الكتب الالكترونية، قراءات، العدد العاشر.

تقوم فرضية المؤرخ دوس في هذا المؤلف على أن «حمى البيوغرافيا» التي انطلقت منذ العقود الثلاثة الأخيرة ليست ظاهرة عابرة أو «موضة» أو «عودة إلى المواضيع التقليدية»، وإنما هي توجه جديد يتوافق مع التفكير المعمق حول الفردانيات. فالماضي في نظره سيصبح أكثر فردانية في القرن الحالي.

البيوغرافيا حسب المؤلف ظلت دائما ذات قيمة عند الجمهور، فرفض السيرة كان محدودا في الساحة الأكاديمية فقط، أما القراء فقد اهتموا دائما بهذا النوع، فلدى المرء رغبة وفضول في الاطلاع على ما هو خفي وغامض في حياة الآخرين، فحتى في مرحلة الخسوف و الانحدار سجل فرانسوا دوس استمرار كتابات حققت ضالة المحبين لأسرار بيوت النوم ولمغامرات المحاربين المخيفين، كما ظلت بعض النجاحات ذائعة الصيت كما هو الحال بالنسبة للمؤرخ وكاتب الروايات الشعبية ماكس كالو الذي كتب بيوغرافيات عديدة، فقد تجاوزت مبيعات كتابه حول نابليون 800 ألف نسخة. كما حققت رواياته البيوغرافية التي أنجزها عن فولتير وروبسبير وموسوليني ودوكول والقديس مارتن وغيرها من الروايات نجاحا كبيرا برغم كل الانتقادات الموجهة إليها. كما مَثَّلَ كل من الآن دوكو واندريه كاسطيلو قاطرة لمنارات دور النشر الكبرى في مجالات البيوغرافيات التقليدية، فبعد أن فقدت الكتابات البيوغرافيا بريقها خلال المرحلة التي سيطرت فيها الحوليات على المعرفة التاريخية وتراجع الاهتمام بها بعد أن كيلت لها اتهامات بقلة الضبط والإفراط في الخيال والانتماء للتاريخ السردي، ها هو جنس السير ينتعش ويفرض نفسه من جديد على الكتابات التاريخية والروائية مثله في ذلك مثل الحدث، لقد أعيد الاعتبار ضمنيا إلى التاريخ الفردي من زاوية ما أصبح يعرف بـ «رهان كتابة البيوغرافيا»، وهو الموضوع الذي يعالجه بعمق فرانسوا دوس في كتابه le pari biographique والذي يطرح فيه أيضا الإشكاليات والتعقيدات المرتبطة بكتابة السير.

هل البيوغرافيا قادرة اليوم على احتواء التجديدات في الفكر والكتابة التاريخية؟ هل بالإمكان أن ننعتها اليوم بمنبع التغيير والتجديد؟[257].

كان هناك اشمئزاز ورفض جذري للبيوغرافيا كنوع في ميدان التاريخ، نلمس ذلك من خلال المثل الشهير «لا تقولوا لأمي إني كاتب سير فتعتقد أني مؤرخ». أما

257. بخصوص تجديد البيوغرافيا التاريخية قدمنا محاضرة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط يوم الجمعة 05 فبراير 2010 على الساعة الرابعة زوالا بقاعة محمد المنوني (المركز)، في إطار اللقاءات العلمية التي نظمها «فريق البحث في الكتابة التاريخية والذاكرة»،التي يشرف عليها الأستاذ عبد الأحد السبتي الذي يعود له الفضل في اهتمامي بهذا الموضوع،.ركزت المحاضرة على خصائص الكتابات البيوغرافية الجديدة. (سينشر نص المحاضرة قريبا).

اليوم فإن كتابة البيوغرافيا التاريخية أضحت أكثر شعبية ورواجا، وأصبحت نوعا متميزاً من الكتابة والتفكير في التاريخ، إذ استطاعت أن تفرض نفسها من جديد على الاتجاهات التاريخية والانثربولوجية والسوسيولوجية والأدبية، وأصبحت ميدانا جديدا لاختبار قدرة المؤرخ خصوصا بعد أزمة الهوية والممارسة التي برزت للوجود مع الجيل الثالث لمدرسة الحوليات، الذي بذل جهدا كبيرا من أجل إعادة صياغة مجالات التاريخ وتحديد التوجهات الجديدة والعمل على التكيف مع الوضع المتغير، إنه القلق بخصوص مستقبل الكتابة التاريخية في سياق موجة المعاصرة، فمع التفتح الحاصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية ظهرت كتابات متعددة وخصبة فرضت نفسها كحقل جديد لإحياء الذاكرة التاريخية أهمها السير الجماعية، والسير المتوازية، والسير المتقاطعة، والسير الفكرية وسير الناس العاديين.

هذه العودة القوية للبيوغرافيا في الكتابات التاريخية المعاصرة أثارت ردود أفعال متباينة، بل يشير فرانسوا دوس إلى أنه حتى في الحقبة التي سيطرت عليها الحوليات استمرت البيوغرافيا في اكتساح الناشرين، لكن رغم ذلك لم يصبح هذا النوع شرعيا، فقد وُصف أغلبه بأنه مجرد حكايات بسيطة وأقصوصات لكتاب رديئين، شبههم جاك لوغوف «بالمهاجرين الذين عادوا بعد الثورة الفرنسية دون أن يتعلموا جديدا أو ينسوا قديما». وقد اعتبر أن هذا الاهتمام بالسير ليس إلا «عودة غامضة» إلى مواضيع تاريخية قديمة تحركها بعض التوجهات الايدولوجيا، كما أكد في مقاله الشهير بمجلة (le débat) أن هذه العودة ليست إلا جزءا من «التحركات ضد تاريخ الحوليات».

أثارت العودة الحالية للتاريخ السردي جدلا واسعا في صفوف التاريخ الجديد، وفي نظر جاك لوغوف فإن هذا النوع أصبح جثة يجب عدم النفخ فيها، وفي حالة إعادة إحيائها يجب إعدامها مرة ثانية. إذا كان هذا هو الشأن بالنسبة لتعامل أغلب رواد الجيل الثالث من الحوليات مع عودة الحدث[258]، فإن العودة إلى تاريخ السير يعتبر الأكثر وفاقا في الظاهر، إذ يبدو أن هذه العودة لم تلاق معارضة كبيرة على الرغم من الانتقادات التي وجهت إلى «سوق الكتاب البيوغرافي» الذي يعج حسب لوغوف بمؤلفات «مخيبة للآمال وعاجزة عن إظهار الدلالات التاريخية للسير

258.من أشهر رموز عودة الحدث بول ريكور «إني أكرم الحدث حين اعتبره المقابل الفعلي للشهادة». وميشيل دو سيرتو «الحدث هو ما يصير إليه». يتناول فرانسوا دوس في كتابه الجديد إحياء الحدث مدى الخصوبة المتجددة لهذا المفهوم في زمن الإعلام. مؤكدا أننا نعيش اليوم ولادة نظرة جديدة حول الحدث. وهي ليست عودة بسيطة بمعناها القديم. وقد سبق لبيير نورا تناول هذا الموضوع في مقال مفصل. للمزيد راجع:
François Dosse, *Renaissance de l'événement – Un défi pour l'historien : entre Sphinx et Phénix*, Paris. .Presses Universitaires de France. 2010

الفردية» فأغلبها «سطحي وطرائفي» لا يخلوا من «الطابع الحكائي»[259].

هذا الاكتساح البيوغرافي الذي عده جاك لوغوف مجرد موضة ضمن «العودات الغامضة» التي تعرفها مواضيع التاريخ التقليدي في الكتابات التاريخية المعاصرة، لم يرق إلى نفس مستوى الهجمة التي شنها ضد عودة الحدث التاريخي، فهو ينبه القارئ في تقديمه للطبعة الأولى من المؤلف الجماعي التاريخ الجديد سنة 1987م أن «المقالات المرتبطة بالسير والتراجم قليلة، ولم تهتم إلا بالمؤرخين الذين لهم قيمة خاصة من منظور التاريخ الجديد مثل هيرودوت»[260]، وذكر مؤرخين وفلاسفة عديدين، وطرح إمكانية كتابة سيرة أو ترجمة لهم، لكن بمنهاج التاريخ الجديد، وفي إطار الإشكاليات العميقة، فالبيوغرافيات التي لها قيمة في نظره هي تلك التي تسلط الضوء على الشخصيات التاريخية الغارقة في محيطها، وقد أعطى المثل بالسيرة التي أنجزها هو نفسه عن القديس لويس التاسع.

مرت الحوليات منذ تأسيسها وإلى الآن بمراحل كبرى عرف فيها التاريخ لحظات قوية حتى العصر الذي أطلق عليه المراقبون من مؤرخين وغيرهم إسم الأزمة، مما جعل الحديث يدور عن تاريخ مجزأ، بل عن تاريخ مفتت. لقد تمت إزاحة الحدث إلى المركز الأخير بعد البنية والظرف، وكان هناك رفض شامل للتفرد، تفرد الحدث، تفرد الأفراد، لذلك تمثل عودة السير إلى الواجهة الآن معاكسة ضمنية لكتابة التاريخ كما كانت سائدة في العصر الذهبي للحوليات، وتحديا أمام جيل التاريخ الجديد.

لكن وكما قال جاك لوغوف «سيكون من الخطأ أن نرى في الجيلين الأولين من الحوليات أعداءً للبيوغرافيا وللرجال الكبار»، فمدرسة الحوليات على عهد الجيل الأول المؤسس لم تتخذ موقفا معاديا للبيوغرافيا، وإنما العداء بدأ مع فترة الجيل الثاني للحوليات، والتي وسمها فرانسوا دوس «بالمرحلة ضد البيوغرافيا» حيث تم تهميش دور الأفراد في التاريخ.

فمارك بلوك مؤسس تاريخ العقليات رصد تصورات ملايين الناس بقدرة ملوك انجلترا وفرنسا على صنع المعجزات، أما لوسيان فيفر فقد كتب بيوغرافية لوثر الذي اختاره لإنارة العالم الديني لرجال القرن السادس عشر. وقد أضاف إليه رابليه ومرغريت دونافار، هذه الكتب الثلاثة تبدو في مظهر كتب السيرة إلا أنها تكشف في الجوهر عن السمات الجماعية التي تتجاوز الفرد[261].

---

259. Jacques le Goff. Le Saint Louis. Paris. Gallimard. 1996. p.14

260. جاك لوغوف، التاريخ الجديد، م.س، ص-61 62.

261. بول ريكور. الذاكرة، التاريخ، النسيان. م.س.ص289.

مع رموز الجيل الثاني للحوليات بدأ العداء للبيوغرافيا والشخصيات الرئيسية، فقد وضع فرناند بروديل في أطروحته الشهيرة اسم ملك اسباني لكن البطل كان البحر الأبيض المتوسط وليس فيليب الثاني، هنا ابتعد بروديل عن أستاذه لوسيان فيفر. لذلك يمكن القول إن الكسوف البيوغرافي يعود إلى المرحلة البروديلية أكثر من عودتها للجيل الأول من مدرسة الحوليات.

حسب فرانسوا دوس منذ ثمانينيات القرن الماضي بدأت المرحلة التأويلية في الكتابة البيوغرافيا، فإذا كانت السيرة استهدفت سابقا بناء الأبطال العظام، ورسم نماذج مثالية لحقب زمنية معينة من خلال قراءات أحادية حول الشخصيات التاريخية، فإن هذه المرحلة الجديدة تتميز بتعدد زوايا النظر، إنه عصر التأويل والهويات المتعددة حسب المؤلف، بدايةً تم تحويل مجال الإهتمام إلى سير الرجال العاديين بدل الشخصيات الكبار، لقد انتقلنا من سير الأفراد العظماء إلى سير الأشخاص الذين ليسوا من المشاهير (Antihéros) بل وأحياناً هم من المغمورين تماماً. وقد ساهمت السوسيولوجيا والاثنولوجيا بقوة في النجاحات التي بدأ يعرفها هذا النوع خلال مرحلة الستينيات والسبعينيات. لقد بثت السوسيولوجيا الجديدة بالإضافة إلى أنصار الميكروتاريخ في إيطاليا والتاريخ من أسفل في انجلترا وتاريخ الحياة اليومية في ألمانيا الروح من جديد في كتابة السير[262]، فالفرد كان يعتبر إلى ذلك الوقت خارجا ومبعدا عن ساحة الخطاب العالم، لقد ردت السوسيولوجيا والاثنولوجيا الاعتبار للفرد عبر الاعتماد على المنهج البيوغرافي كوسيلة للتعرف على الثقافة والمجتمع، أصبح الأمر ممكنا ما دام الأفراد هم بشكل أو بآخر مرآة للقيم السائدة ولمحيطهم الاجتماعي، وهذا ينطبق بصفة خاصة على بعض المجتمعات الإفريقية ومجتمعات أمريكا اللاتينية التي ظل الأفراد في إطارها منصهرين نسبيا في الجماعة التي ينتمون إليها، وذلك على خلاف الفرد في المجتمعات الغربية حيث تحول منذ أمد بعيد إلى كائن مستقل وغير اجتماعي[263].

منهج السيرة في السوسيولوجيا الذي سمي في البداية المنهج البولوني(ركز

262. ساهمنا بمداخلة تحت عنوان «بعض المصادر المنهجية للسيرة الاجتماعية» في اليوم الدراسي «السيرة الاجتماعية: مناهج ونماذج»، والذي احتضنته كلية الآداب والعلوم الإنسانية -جامعة ابن زهر- بأكادير يوم 21/04/2012 م، والذي أشرفت على تنظيمه مجلة رباط الكتب بالتعاون مع مركز مختبر المجتمعات الصحراوية، تناولنا فيها بتفصيل المقاربات الثلاث التي ساهمت في انتعاش الجنس البيوغرافي وهي: الميكروتاريخ الإيطالي Microstoria ، وتاريخ الحياة اليومية الألماني Alltagsgeschichte ، والتاريخ من أسفل الانجليزي History from below. ستعمل الهيئتان المنظمتان لليوم الدراسي على طبع أعمال اللقاء في كتاب جماعي.

263. المختار الهراس. «منهج السيرة في السوسيولوجيا». ضمن. إشكاليات المنهاج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر ، الطبعة الثانية 2001. ص84.

على روايات الحياة) تم تطبيقه أول مرة في العشرينيات من القرن الماضي من لدن عالمي الاجتماع بمدرسة شيكاكو وليام اسحاق طوماس(1863-1947) William Isaac Thomas و فلوريان ويتولد زنانييكي(1882-1958) Florian witold Znaniecki من خلال دراستهم عن الفلاحين البولونيين المهاجرين إلى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، استمرت الاتجاهات البحثية الانجلوساكسونية من بعدهما في الاعتماد على المنهج البيوغرافي لدراسة الفئات الاجتماعية الدنيا والمهمشة التي لم يُتَح لها في السابق فرصة الحديث. وهكذا تم إنتاج سير فردية واجتماعية متعددة ساهمت في تجديد أبحاث التاريخ، وأعادت الإعتبار للمعيش اليومي[264].

وفي هذا الإطار تندرج سيرة أطفال سانشيز للانتربولوجي اوسكار لويس من جامعة شيكاكو، والذي قدم نموذجا لمنهج بيوغرافي في الاثنولوجيا بجميع مؤهلاتها وخصائصها في الرواية العائلية، من خلال سرد حياة أسرة مكسيكية تحت بروليتارية. إن الأمر لا يتعلق بسيرة ذاتية، لأن الرواة سردوا حياتهم بحضور الباحث وتماشيا مع الأسئلة التي يطرحها عليهم هذا الأخير من حين لآخر ، فالأصح أن نتحدث عن منهج بيوغرافي أو عن منهج تاريخ الحياة[265] . قدم لويس اوسكار مفهوم «ثقافة الفقر» في الستينيات. تبنى الفكرة من خلال ملاحظاته للمجتمعات الفقيرة في بورتوريكو والمكسيك. إن النقطة الحيوية في الجدل الذي أثير بشأن مفهوم «ثقافة الفقر» كما صاغه اوسكار تتمثل في كون الفقر منتشر في كل مكان، فهل يتقاسم هؤلاء الفقراء ثقافة مشتركة تميزهم عن غير الفقراء؟ يركز المؤَلِّف في كتابه على الأسباب الفردية والعائلية والمجتمعية للفقر، يركز على الفرد في تفسيره مبتعدا عن التفسيرات البنيوية والمؤسساتية، بوصفه عالم انتربولوجيا أراد لويس اوسكار فهم الفقر والسمات المرافقه له كثقافة، كطريقة حياة تنتقل من جيل إلى جيل عبر مسارات العائلة. الأطفال يتشربون عادة القيم والسلوكيات الأساسية لثقافتهم مما يجعلهم غير مهيئين نفسيا للاستفادة من الفرص التي تتاح لهم لإحداث تغيير حقيقي في حياتهم[266].

264. خصصت مجلة رباط الكتب الالكترونية التي يشرف عليها الأستاذ عبد الأحد السبتي وعبد الحي موذن بشراكة مع مختبر المجتمعات الصحراوية يوما دراسيا عقد بكلية الآداب والعلوم الانسانية أكادير، ساهم فيه باحثون وطلبة باحثون في التاريخ والسوسيولوجيا والانتربولوجيا والآداب وعلم السياسة للتعريف بالإنتاج الانجلوساكسوني الذي أنجز عن المغرب اعتمادا على المنهج البيوغرافي.

265. المختار الهراس. منهج السيرة في السوسيولوجيا.م.س.ص84.

266. لويس اوسكار. «ثقافة الفقر». ضمن كتاب. من الحداثة إلى العولمة. رؤى ووجهات نظر في قضية التطور الإجتماعي، تأليف ج تيمونز روبيرتس،ايمي هايت، ترجمة سمير الشيشكلي ، مراجعة محمود ماجد عمر، كتاب عالم المعرفة، العدد309 نونبر 2004م ص168/170.

رواية أطفال سانشيز قدمت صورة وطريقة بيوغرافية في الاثنولوجيا أطلق عليها الاثنوبيوغرافيا، والتي يمكن عدها جنسا هجينا بين البيوغرافيا والسيرة الذاتية، وقد استخلص الفرنسيون من خلال رواية أطفال سانشيز فائدة كبيرة فيما يتعلق بأهمية «روايات الحياة»، وقد حققت هذه النوعية رواجا من خلال أعمال كثيرة مشابهة.

في نفس السياق دائما اتجه بعض المؤرخين الآخرين مثل الان كوربان للبحث في التاريخ الصامت لإحياء الذاكرة التاريخية من خلال التركيز على سير الفئات والأماكن المهمشة. وتعتبر الأبحاث التي أنجزها ذات أهمية كبرى خصوصا في باب سير حياة الناس العاديين، ويعد كتابه العالم المكتشف للويس فرانسوا بيناغوا: على خطى مجهول (1798-1876) الأكثر شهرة في هذا المجال. ولويس فرانسوا بيناغو الذي يتناوله المؤلف بالبحث في كتابه هو قباقيبي (sabotier)، عاش بين سنتي (1876م-1798م)، أميٌّ متزوج من خياطة، وأب لثمانية أطفال، لم يشر إليه أحد في أي مكان، ولم يترك أية مأثرة خاصة تبرر كتابة سيرة عن حياته. ومع ذلك لاقى هذا الكتاب نجاحا كبيراً على مستوى المبيعات.

لقد سعى المؤلف في هذا الكتاب لإحياء سيرة شخص غريب تماما اكتشفه صدفة من خلال مراجعته لسجلات منطقة اورن orne، لويس بيناغو هو بحث في «التاريخ المنسي» أو ما يسمى «التاريخ الصامت» لاستعادة «جزء من العالم المفقود» لهذه الشخصية التي لم يكن يملك عنها إلا معلومات قليلة، ففيما يخص الناس العاديين وبخلاف الشخصيات المشهورة يصطدم المؤرخ مع صمت النصوص، فهم أشخاص غير مرئيين، ولا تعطى لهم أي قيمة ولا أي رمزية إلا إذا ارتكبوا جرائم خارقة أو نالوا عقوبات قاسية، فقط في مثل هذه الحالات النادرة يسلط عليهم الضوء، وقد يصبحون شخصيات ضمن أعمال قصصية أو أدبية[267].

إن سيرة فرانسوا بيناغو عمل بيوغرافي رائع، استطاع فيه مؤلفه أن يعيد بناء حياة هذا الشخص من خلال تسليط الضوء على الأحداث التي عاشها خلال فترة حياته الطويلة التي قاربت 78 سنة، وهي فترة تزامنت مع أحداث كبرى عاشتها فرنسا. قصة هذا القراقيبي كما تناولها هذا الكاتب سمحت لنا بإلقاء نظرة مختلفة عن القرن 19م ببوادي وقرى فرنسا. فصورة هذا القرن كما تظهر من خلال هذه السيرة تختلف كليا عن الصورة المتداولة في الكتابات التاريخية التقليدية، فإذا كان القرن 19م عند المؤرخين هو قرن الثورات والتغيرات الكبرى، فإن فرانسوا بيناغو الذي عاش ثلاثة

267. Les mondes retrouvés de l historien .Entretien avec Alain Corbin. (L'histoire aujourd'hui) coord. Jean- Claude Ruano-Borbalan. édition Sciences Humaines. Nouveaux objets de recherche .courants et débats .le métier d'historie. p 258- 259

أرباع هذا القرن لا يرى عصره بهذا المنظور، فهو وأمثاله من سكان قريته لم يعرفوا أي شيء عن التحولات السياسية والاقتصادية التي كانت تجري خارج فضاء قريتهم والتي لم يغادروها ربما طيلة حياتهم.

من خلال النماذج السابقة الذكر والتي تنتمي إلى البيوغرافيات التاريخية الجديدة، ظهر نوع آخر من البيوغرافيات والمسمى البيوغرافيات الثقافية أو الفكرية، ففي شهر نونبر من سنة 2000م نظمت الجمعية الفرنسية للفلسفة نقاشا في موضوع «بيوغرافية المثقفين والفلاسفة»، وبهذه المناسبة أثيرت مسألة ندرة الدراسات البيوغرافية التي تناولت حياة المفكرين بينما جميع المهن الأخرى كانت موضوعات تحقيق واستقصاءات ناجحة، فقد كُتِبَتْ سير لزعماء ورؤساء وللاعبي كرة القدم، لكن بيوغرافيات الفلاسفة وأصحاب القلم لم يُعط لها الاهتمام الكافي، وكأن الفلاسفة «مضادات حيوية ضد البيوغرافيا» كما عبر دوس. كان السؤال المطروح للنقاش هو لماذا حياة الفلاسفة تسترعي اهتماما أقل مقارنة مع الأشخاص الآخرين؟ عموما تكون الإجابة الجاهزة هي أن كبار الفلاسفة يعيشون للأبد بسبب أعمالهم وأفكارهم الخالدة، وكأنهم بهذا المعنى مبعدين من الحياة المشتركة للفانين.

ميز جون ماري بايساد Jean-Marie Beyssade بين ثلاث أسباب تدعو لكتابة حياة الفلاسفة حاليا، الأول: يتمثل في الحاجة الملحة لفهم أعمق وجيد لأعمال الفيلسوف مرورا بمشوار حياته. الثاني: للحكم جيدا على أعماله من خلال قراءة تنبني على الشك والريبة، وتبحث عن النشاز والتنافر بين ما أعلن وبين الواقع المعاش. السبب الثالث: أن بيوغرافية الفلاسفة لا تكون موجهة للمختصين، وإنما للعاديين لمساعدتهم على فهم جيد لأفكارهم، هنا تصبح السيرة بديلا عن أعماله الكاملة.

لقد أصبح إذن الفلاسفة ورجال الآداب والفكر حاليا موضوع حب استطلاع وفعل بيوغرافي، لكن بأي طريقة يمكن تناول هذه الشخصيات؟

أكد هنري بيرغسون أن إقحام العائلة في العمل البيوغرافي أمر غير مُجد، ونصح من أراد كتابة بيوغرافيته «عدم الاكتراث بحياته، والتركيز فقط على أعماله»، كان مصرا على وجهة النظر التي تقول إن حياة الفيلسوف لا تسلط أي ضوء على مذهبه وتوجهاته، ونجد نفس الرأي عند رولان بارط الذي شبه السيرة بالنصب التذكاري المزيف، وعدها نوعا أدبيا كريها.إذ كان لا يحتمل أن تتشكل له صورة ويتعذب لدى ذكر اسمه هذا ما يقوله عن نفسه، وقد استعمل ضمير الغائب في كتابة سيرته الذاتية غير المألوفة رولان بارط بقلم رولان بارط (1975)[268] .

268.كتب رولان بارط سيرته الذاتية سنة1975م نشرت في كتاب بعنوان رولان بارط بقلم رونالد بارط وهذه السيرة

وسلك بيير ريفارد مسارا مختلفا تماما، إذ ركز على الحياة الخاصة للفلاسفة ولم يهتم بأعمالهم. وإذا أخذنا بالفكرة التي تقول إن الفلاسفة عقل خالص، فريفارد حاول بنهجه المناقض أن يبين لنا أن هذه العقول الخالصة هي كذلك كائنات من لحم ودم[269].

الدخول هنا في الحياة الخاصة لا يهدف إلى كشف الأسرار الحميمية ولكن لتقريب الشخصيات من الفكر، وذلك عن طريق إعطاء سلسلة من المعلومات الدقيقة حتى فيما يتعلق بالمأكولات المفضلة والعادات اليومية والحياة الإجتماعية والمظهر الخارجي.

البيوغرافيا الثقافية كما يطرحها فرانسوا دوس تقتضي إعادة الصلة للقطيعة التي سادت طويلا بين الفكر والوجود. فالفهم العميق لأفكار الفلاسفة ينطلق من تتبع حياتهم، والتقييم النقدي لأعمالهم لابد أن يمر من العلاقة المعقدة بين ما هو من صميم عمل المفكر وبين واقعه اليومي، من هنا تأتي أهمية حياة الفلاسفة، لابد من مقارنة الفكر والتصور بالواقع المعاش، لأن القارئ يطالب بنوع من الانسجام بين العمل والفعل والفكر، حياة الفيلسوف تتدخل في أعماله بطريقة أو بأخرى، هناك أشياء لا تظهر في الكتابات، لكنها أشياء مؤثرة ومهمة ويجب أن نستحضرها كالحياة الخاصة، فكل ما يحيط بعمل وفكر الفيلسوف له أهميته الخاصة، الأصدقاء، المعارف، الأسرة، المستوى الاجتماعي..، لذلك فإن إنجاز البيوغرافيا الثقافية يتطلب توسيع مجالات القراءة، وذلك من خلال البحث والتنقيب عن الحوارات والمراسلات والأرشيف الشخصي وكل الوسائط الممكنة، وفرصة اللقاء مع الشخصية إن كانت ما تزال على قيد الحياة يعطي للعمل قيمة أكبر.

البيوغرافي ليس مرآة للشخصية التي يدرسها لأنه لا يستطيع أن يكون كذلك. ولا يمكنه أن يزعم امتلاك مفاتيح الشخصية التي يقوم بتقصي سيرتها، بغض النظر عن الوقت الذي خصصه والجهد الذي بذله في سبيل ذلك، وإنما هو يعكس الشخصية من خلال روعة العمل البيوغرافي الذي يقدمه، ومهمته تتطلب منه إبراز وملامسة الخصائص والمميزات الفردانية، فكل فيلسوف له صرخة خاصة، سماها دولوز «الصرخة البيوغرافية»، وكتابة سيرة فيلسوف هو بحث عن تلك الصرخة: أي

نموذج لعمل خيالي متميز، كتبها بصيغة ضمير الغائب ليتملص من نبرة الاعتراف والبوح، وقد عبر أنه ليس كتابا عن أفكاره بقدر ما هو كتاب عن الأنا. انظر: اديث كريزويل عصر البنبوية ترجمة جابر عصفور. دار سعاد الصباح الكويت، الطبعة الأولى 1993م، ص250. و للمزيد بخصوص هذه السيرة انظر:

.R. BARTHES. *Roland Barthes par Roland Barthes*, Éditions du Seuil, Paris, 1975

.François Dosse. *Le Pari biographique. Écrire une vie* .op.cit. p.p 400.401.269

تفريد الفردانية. وذلك عكس «البيوغرافية النموذج» التي تبحث عن الأشياء العامة المشتركة.

رغم تعدد وجهات النظر حول الجوانب التي يجب التركيز عليها في سير المفكرين، لا بد أن نشير إلى أن التاريخ الفكري وتاريخ المفكرين بفرنسا اعتبر بدوره ولزمن طويل أحد الطابوهات المحرمة، فقد صرف المؤرخون اهتمامهم به، لأنه اقترن دائما بسير حياة الأفراد[270]. لقد اعتبر فرانسوا دوس أن فرنسا لديها تأخر كبير بالمقارنة مع أماكن أخرى كألمانيا والولايات المتحدة التي كانت سباقة للاهتمام بهذا النوع من المواضيع، لذلك فقد انخرط بقوة في إعادة الاعتبار لهذا الجنس من خلال كتبه مسيرة الأفكار: التاريخ الفكري وتاريخ المفكرين[271] وتاريخ البنيوية[272] وأيضا أطروحته التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد[273] التي هي تاريخ نقدي لتاريخ الحوليات. وبالموازاة قدم أنواعا مختلفة من البيوغرافيات التاريخية الفكرية لفلاسفة ومثقفين معاصرين بناءا على قراءات تأويلية «للهويات المتعددة» من خلال التغيرات في السياق الفكري[274]، ومن أهم البيوغرافيات التي أنجزها سيرة عن حياة الفيلسوف بول ريكور، الذي عاش بعيدا عن القارة العجوز التي لقي فيها من المتاعب الشيء الكثير[275]. لقد انطلق دوس في ظل غياب الأرشيف الشخصي لبول ريكور من أعماله، ومن النظرة المتعددة للآخرين عنه، لقد أعاد إحياء خط الحياة المتعددة لريكور من خلال الذين تقاطعوا معه في لحظات وسياقات مختلفة. وأكد أن فهم فكره لا يتأتى إلا عن طريق لقاءاته بالآخرين. إنها بيوغرافيا بحث عن المعنى والحياة من خلال مسح شامل لمسار حياته، إنها فصول من سيرة فيلسوف لم يحظ بالشهرة في فرنسا إلا بعد عقده السبعين، فالساحة كانت محتلة من قبل فلاسفة البنيوية

270. اعتبر جاك لوغوف على خلفية صراعه مع دوس أن تاريخ الفكر يدخل ضمن لغط الأجواء الباريسية، وعده مجرد موضة عابرة، واستهزأ بهذا النوع قائلا «دراسة الموضة الفكرية من الأمور الجدية وهي جديرة بأن تكون موضوع بحث تاريخي طريف». انظر: جاك لوغوف التاريخ الجديد م.س.ص 41.

271. انظر: François Dosse. *la marche des idées. Histoire des intellectuels, histoire intellectuelle*, Paris, La Découverte, 2003

272. تاريخ البنيوية لفرانسوا دوس في جزأين ، الأول صدر سنة(1991) والثاني سنة (1992) انظر:
François Dosse. *Histoire du structuralisme .Le chant du cygne*, Paris. La Découverte

273. François Dosse. *L'Histoire en miettes. Des "Annales" à la "nouvelle histoire"*, Paris, la découverte, 1987 (2e édition : Presses Pocket, "Agora", 1997)

274. لقد وضع تاريخ العقليات حاجزا كبيرا بين التاريخ الاجتماعي الاقتصادي وبين التاريخ الفكري الذي صنف خارج مجال التاريخ. و لقد استطاعت البيوغرافيات التاريخية بخصائصها الجديدة أن تحل العلاقة الصعبة والمتشنجة بين التاريخ الفكري والتاريخ الاجتماعي.

275. للمزيد راجع: François Dosse. *Paul Ricœur. Les sens d'une vie*. Paris La découverte. 1997.

والوجودية[276]. وقد خصص دوس لريكور أعمالا بيوغرافية أخرى[277].
كما أنجز سنة 2007م بيوغرافيا متقاطعة لشخصيتين بارزتين من الثقافة الفرنسية هما الفيلسوف جيل دولوز والطبيب النفسي فيليكس كاتاري[278].كشف فيه أسرار أعمالهما المشتركة، كما تناول أيضا فرانسوا دوس سنة 2002م سيرة الفيلسوف ميشال دو سيرتو [279]. وقد صدر له قبل أشهر سيرة المؤرخ بيير نورا مؤسس مجلة حوار le débat وصاحب مشروع أماكن الذاكرة [280].

3.عودة السرد

الرواية والتاريخ مصطلحان لغويان رضعا من ثدي واحد هو الخبر، هما مرهونان ببعد تاريخي متغير، وقد تأثرت كل من الكتابة التاريخية والرواية التاريخية ببعضهما البعض في القرن التاسع عشر(يعتبر هذا القرن قرن التاريخ وقرن الرواية الواقعية)، تطورت الرواية التاريخية في اتجاه أشكال روائية أخرى، واتخذ التاريخ أشكاله المتنوعة بدوره، لكن هذه العلاقة الزمنية واللغوية والسردية ما زالت تسكنهما

---

276. تولى بول ريكور منصبا بالسوربون، ثم انتخب بعدها عميدا لجامعة باريس10(نانتير)، غير أن نجاحه لم يستمر، فمباشرة بعد تراجع موضة الوجودية أصبح كل شيء بنيويا من الانتربولوجيا إلى اللسانيات إلى الفرويدية إلى الماركسية. فسيطرة ليفي ستراوس وكل البنيوية التي كان يمثلها مع اللسانيات وكذلك الفرويدية المتمثلة في جاك لاكان الذي حاول أن يجر ريكور ويستقطبه إلى فلكه دون جدوى، فحورب بلا هوادة. الموضة التي سادت باريس خلال هذه المرحلة تميزت بالانغلاق ورفض سماع الأصوات المخالفة، مما يفسر خيبة أمل ريكور وهجرته إلى الخارج. رفض بشدة المدارس الجديدة من موقع الناقد، ويمثل كتابه الاستعارة الحية رد مباشر في صميم معركة البنيوية واللسانية، وهو ما لم تغفره باريس لريكور خلال الستينيات والسبعينيات. وعند صدور أجزائه الثلاثة الزمان والسرد في الثمانينيات تصالحت فرنسا مع ريكور، وقد تزامن ذلك مع بداية أفول موجة البنيوية. راجع تقديم جورج زيناتي لكتاب بول ريكور الذاكرة، التاريخ، النسيان م.س.ص.ص5 - 20.

277. نخص بالذكر: François Dosse. *Paul Ricoeur, Michel de Certeau. Entre le dire et le faire*, Paris. C. de l'Herne.2006 /François Dosse Paul Ricoeur et les sciences humaines, Paris. La découverte. 2007
وقد تناول سيرة بول ريكور كتاب آخرون وعلى رأسهم ريتشارد كيرني أستاذ الفلسفة بجامعة دبلن وبوسطن للمزيد راجع: ريتشارد كيرني دوائر الهيرمينوطيقا عن بول ريكور ترجمة سمير مندي، أزمنة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،2009. وأيضا لنفس المؤلف:
On Paul Ricœur : The Owl of Minerva. Aldershot, England: Ashgate Publishing Company, 2004

278.للمزيد راجع: F. Dosse. *Gilles Deleuze et Félix Guattari, biographie croisée*, Paris. La découverte. 2007

279. راجع : François Dosse. Michel de Certeau. Le marcheur blessé, Paris. La découverte 2002 ، وقد أنجز فرانسوا دوس دراسات أخرى عن ميشيل دوسيرتو أنظر:
F. Dosse. *Paul Ricoeur, Michel de Certeau. Entre le dire et le faire*, Paris. Cahiers de l'Herne. 2006
'F. Dosse. *Michel de Certeau.chemins d histoire*, avec Christian Delacroix, Patrick Garcia, Michel trebitsch complexe2002

280. François Dosse. Pierre Nora. homo historicus. Op.cit.

بدرجة أو بأخرى[281]. في البداية كان جيش من عدم الثقة في الجنس البيوغرافي الذي يبدو في نظر المؤرخين أكثر قربا للأدب منه للعلوم الإنسانية، فالسيرة في الواقع نوع من العملية الإبداعية بالمعنى الأدبي للكلمة كما لاحظ بالفعل اندري موروا سنة 1930م[282].

كانت السيرة تعتبر فرعا من التاريخ العام و لكن الحركة الرومانسية في اهتمامها الشديد بالفرد ركزت على المشاعر والعاطفة، ومن هنا بدأ مجال السيرة يبتعد عن مجال التاريخ ويقترب من مجال الفن والأدب، يرى جورج لوكاتش أن الرواية التاريخية بمفهومها الاصطلاحي قد برزت في مطلع القرن التاسع عشر مع روايتي ويفري (1814) وايفانهو لوالتر سكوت(1771-1822) الملقب بأب الرواية التاريخية الحديثة، والذي يعتبر من أكثر كتاب السير شعبية في ألمانيا وانجلترا، انتقلت شهرته إلى باقي أوربا وأمريكا بسرعة، من أفضل ما كتب سيرة حياة الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت. كان الجمهور ينتظر بحماس صدور رواياته حتى لقد قيل «إن كل ألماني قبل أن يأوي إلى فراشه لا بد وأن يقرأ من رواية سكوت الشهيرة ويفرلي، وعندما يستيقظ يتصفح روايته روب روي ماكغريغور قبل أن يتناول فطوره». بفضل الروائي والتر سكوت دخلت القصة التاريخية إلى ميدان الأدب.

الرواية التاريخية عمل سردي يرمي إلى إعادة بناء حقبة من الماضي بطريقة تخيلية، حيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة. إننا في الرواية التاريخية نجد حضورا للمادة التاريخية لكنها مقدمة بطريقة إبداعية وتخييلية[283]. تستعير الرواية التاريخية من التاريخ أحداثه الكبرى، وتستمد منه أبطالها، ومن أمكنته وأزمنته تشيد إطارها، دون التزام بمقولتي الصدق والمطابقة بين ما حدث في التاريخ وما تقدمه الرواية[284]. إن الرواية جنس أدبي يقوم على التخييل والإبداع الفني، وإذا ما أزحنا عنها الجانب التخييلي تغيب عنها الجمالية الفنية.

إذا كانت الرواية تستند إلى التخييل فإن الكتابة التاريخية عملت لمدة طويلة على مقاومته وازدرائه، لأنها كانت تعطي دائما الأولوية للمعقول، سعيا منها إلى

281. أحمد بوحسن. الروائي والتاريخي في رواية كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد. جامعة محمد الخامس أكدال/ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة محاضرات مركز الدكتوراه، رقم2. ص15.

282. Catherine Valenti. La biographie historique en France. Un essai d'historiographie. Op.cit. P 150.

283. سعيد يقطين. «الرواية وقضايا النوع الأدبي». مجلة نزوى. العدد 44، 2005 عمان ص82.

284. منصور زيدان. التاريخي: تجلياته ووظائفه في رواية «كتاب الأمير» لواسيني الأعرج. بحث شهادة الماجستير في اللغة والآداب والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد الباردي 2006/2007م، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. ص7.

النقاء العلمي. إن المؤرخ استبعد الخيال ودعا إلى القطع مع السرد والرواية من مجاله باسم الطموح العلمي والرغبة في الوصول إلى الحقيقة.

لقد تم إقصاء المتخيل مع ديكارت وعادت أهميته مجددا مع فلسفة كانط، وفي القرن التاسع عشر أبعد مرة أخرى الخيال إلى الهامش في زمن سيطرت فيه المادية ومفاهيم التقدم والعصرنة. إن الاتجاه الذي أعاد الاعتبار للمخيال هو الاتجاه الفينومينولوجي، فمع أبحاث جان بول سارتر عن الخيال لم يعد هذا المكون عنصرا مشوشا على عمل العقل، دائما ومع المنهج الفينومينولوجي سعى جيليين دوران متأثرا بأستاذه غاستون باشلار إلى إبراز خصوبة المتخيل وفعاليته، ويعتبر بول ريكور الفيلسوف الذي وقف بشكل مطول مع مختلف أنواع التداخلات والتقاطعات بين التاريخ والسرد، مؤكدا من خلال نماذج متعددة على دور الخيال في التاريخ، فبدونه الزمان لن يكون إنسانيا[285].

إن هذا التوتر الموجود بين الحقيقي والخيالي طغى على النقاشات الكثيرة بشأن إشكالية العلاقة بين السرد والتاريخ في ظل أزمة عامة تعيشها حاليا مختلف العلوم الإنسانية. لقد تزايدت قوة دعوات العودة إلى السرد بعد أفوله لمدة طويلة في الكتابات التاريخية، أعاد ميشيل دوسيرتو وبول ريكور ومن قبلهما بول فاين ولورانس ستون وهايدن وايت طرح التساؤل بشأن علاقة السرد والتاريخ. كتب لورانس ستون مقالا بعنوان «العودة إلى السرد» يدعم فيه هذا التوجه الجديد في العلاقة بين الرواية التاريخ، وعالج أستاذ الأدب المقارن بجامعة ستانفورد والأستاذ الفخري بجامعة كاليفورنيا هايدن وايت في كتاب **الميتاتاريخ :الخيال والتاريخية في أوربا خلال القرن التاسع عشر**(1973) Metahistory إشكالية السرد والتاريخ، وحاول من خلاله أن يدلل العقبات ويزيل الاختلافات بين الكتابة التاريخية والأدب، إن الخطاب التاريخي في جوهره بالنسبة لهذه المقاربات الجديدة خطاب أدبي شعري يستعاد من خلال توظيف مختلف أنواع الحبكات. إن العودة القوية للسرد اليوم يعيد من جديد إلى الواجهة النقاشات الحادة بشأن هوية التاريخ ودلالاته.

يعتبر مؤلف بول فاين Paul Veyne الشهير الذي ينتمي إلى حقل ابستمولوجيا التاريخ **كيف نكتب التاريخ**[286] والذي نشر سنة 1971م استمرارا لأعمال هنري مارو وريمون آرون نسج فيه على طريقة ماكس فيبر الألماني. هذا الكتاب أثار ضجة كبرى

285.عبد الله عبد اللاوي. ابستملوجيا التاريخ -مداخل منهجية في صناعة المعرفة التاريخية-. ابن النديم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى الجزائر، 2009. ص36/37/38.

286. Paul Veyne, *comment on écrit l'histoire: Essai d'épistémologie*, l'univers historique (Paris: Editions du seul, 1971).

إذ صدر في قلب موجة سيطرة التاريخ الكمي، فقد وصفه فرانسو بيداريدا بأنه كان كتابا استفزازيا ومزعجا إلى حد كبير. بول فاين الأستاذ الفخري بكوليج دو فرانس هو المؤرخ الوحيد الذي دافع عن عودة فكرة الحبكة في التاريخ في زمن سيطرة الحوليات. استعار في أطروحاته عبارات أرسطو عن الحبكة، فالتاريخ بالنسبة إلى بول فاين رواية، قصة حقيقية، فقط الحبكة هي التي تعطي للحدث قيمته الفردية تبعا للأهمية التي يحتلها في السرد. الأحداث لا تتواجد منعزلة وإنما يتم الربط بين عناصرها، ونسيج التاريخ الذي يربط بينها هو ما يسمى الحبكة، وبهذا المعنى فالتاريخ في جوهره خليط فيه كثير من الإنسانية وقليل من العلم[287]، وعليه فإن الكتابة التاريخية يصعب أن تنفلت من تأثير الأشكال والأجناس الأدبية، فهي في نهاية المطاف ليست سوى سرد في صورة حبكة على حد تعبير فاين الذي اقترح الجمع بين الرواية والتاريخ باعتبار «أن التاريخ هو مثل قصة صادقة» لا يختلف عن «الحبكات الروائية»، للتاريخ في نظر هذا المؤرخ «طابع قصصي، وهو يثير الاهتمام مثل الرواية بأن يُحْكَى ويُسْرَدْ». لقد اعتبره «قص وسرد لأحداث حقيقية». ويضيف هذا المؤرخ مستعيدا تقسيمات جرار جونيت «أن التاريخ حكائي وليس محاكاة»[288]، فالوثيقة عنده ليست محاكاة للحدث بل هي حكاية عنه حسب جونيت دائما «التاريخ هو رواية على لسان المؤرخ المؤلف لا على لسان الشخصيات نفسها أثناء الفعل»، فالمؤرخ يقدم حكاية للأحداث.. و التاريخ مثله مثل الرواية الأدبية يقوم بالانتقاءِ والتبسيطِ والتنظيم والإلمام بقرن كامل في صفحة واحدة[289]، فما نسميه في التاريخ تفسيرا ليس شيئًا آخر غَير الطريقة التي ينتظم فيها السرد بشكل محبك ومفهوم، و ما نسميه السببية ليس شيئا آخر غير حدث مختار من بين أحداث أخرى من الحبكة[290].

لقد انتقدت أفكار بول فاين عن القصة التاريخية من قبل ايمانويل لوروا لادوري، لأنها تتضمن ما يمكن اعتباره ترحيبا بعودة السرد، وهو ما يتعارض مع الاطروحات التي قامت عليها مدرسة الحوليات، هذا الأمر وضحه بتفصيل أكثر جيرار نواريبل G.Noiriel في مقاله حول «أزمة التاريخ» والذي عقد فيه مقارنة بين كتاب مارك بلوك دفاع التاريخ وكتاب بول فاين كيف نكتب التاريخ. لقد استقبلت

.François Dosse *L'histoire*. Éditeur Armand colin édition 2010.p112 .287

288. ميشال دوشيه .تقاسم المعارف : الخطاب التاريخي والخطاب النياسي. م.س.ص20.

289. بول فاين. أزمة المعرفة التاريخية-فيكو و ثورة في المنهج -م.س.ص26/27/34.

.François Dosse *L'histoire*. Op.cit.p212/213.290

أطروحات بول فاين في البداية باستخفاف كبير لأنه وصل بفكرة التاريخ إلى النقطة الحرجة و المثيرة بالنسبة للحوليات، وذلك عندما اعتبر التاريخ حبكة، الآن أصبحت هذه الفكرة مقبولة وذات صيت مؤثر في الساحة الأوربية، فبعد استبعاد طويل للسرد من قبل المؤرخين باسم الوصول إلى الحقيقة وباسم تأسيس الفيزياء الاجتماعية هاهم يعترفون بأهمية البعد السردي في التاريخ.

في نفس السياق صدر سنة 1975م الكتاب الرئيسي لميشال دو سيرتو كتابة التاريخ[291] حول الممارسة التاريخية ككتابة. هذه الدراسة المستقلة والمفصلة هي تطوير لمقال بعنوان «صناعة التاريخ» سبق أن ساهم به مؤلفه في الكتاب الجماعي الذي أشرف عليه جاك لوغوف وبيير نورا سنة 1974م. في هذا الكتاب يموضع دوسيرتو الخطاب التاريخي في توتره بين الممارسة العلمية والقص الخيالي، يوضح فيه بالأساس كيف أن التاريخ يقتبس في نفس الوقت من الكتابة الأدائية التي ترتكز على صنع التاريخ، ومن الكتابة الانعكاسية التي ترتكز على رواية القصص، وهو ما يضع النوع التاريخي في منطقة التوتر بين العلم والخيال[292]. ميشال دوسيرتو قارن هذه الوظيفة بالنوع الأدبي من خلال العودة إلى القرن السابع عشر مشبها الكتابة التاريخية في بعدها الرمزي بطقوس العزاء، فهي تلعب دور القابر للتاريخ، ولذلك شبهها بالضريح أو التابوت الذي يقام للميت، حيث إن الكتابة التاريخية لا تتحدث عن الماضي إلا من أجل دفنه، وذلك بالمعنى المزدوج إما لتلميعه أو لتحقيره [293]. إن الميت هو غائب التاريخ و هناك أدب يصنع انطلاقا من بصمات سكتت إلى الأبد، فما مضى لن يعود مطلقا والصوت قد فقد نهائيا[294]، إن الآثار تبقى صامتة ولا تستطيع الكلام، فقط يبقى السرد التاريخي المتحدث الوحيد عند دو سيرتو، إنه واجب الصنع الذي يجر عمل التاريخ إلى أبعد من مجرد السردية إنه يقوم بدور إنشائي عن طريق اللغة[295]، إن التمثيل في نظر دو سيرتو لا يكون تاريخيا من دون ذلك الإخراج الأدبي الذي يحيل على السرد[296].

الكتابة التاريخية إذن تقع في توتر شديد بين الخيال والواقع، وهي تحاول

291. Michel de Certeau. *L'Ecriture de l'histoire*. Gallimard. 1975.

292. François Dosse. *L'histoire*. Op.cit.p113.

293. Ibid. p113.

294. Michel de Certeau. *l'absent de l'histoire*. Mame. 1973.p11.

295. بول ريكور. الذاكرة التاريخ النسيان. م.س. ص539/540.

296. عبد الله عبد اللاوي. ابستملوجيا التاريخ. مداخل منهجية في صناعة المعرفة التاريخية. م.س ص.115.

دمجهما معا وتركيبهما انطلاقا من السرد الذي يسمح بتمرير المحتوى عبر امتداداته الحكائية التي تظهر زمنيته، فأي كتابة تاريخية لا يمكن أن تتأسس في غياب تأثير الأدب، لأنها كتابة تستوحي وتقتبس من الأشكال الأدبية وخصوصا السرد، إن المؤرخ يقوم بإحياء المصادر الهامدة من خلال بعث روح جديدة فيها، ولا غنى له من الاستعانة بالسرد لإعادة تمثيل الماضي. أصبح مجتمعنا بشهادة ميشيل دو سيرتو وبسبب سيطرة وسائل الإعلام مجتمع سرد ورواية من ثلاثة نواح، أنه يعرف بالقصص، وكذلك يعرف بالاستشهاد بالقصص، وأخيرا يعرف بروايات القصص التي لا نهاية لها، ما يشير إليه هذا الفيلسوف هو أن هذه السرود ليست مجرد تسليات، وإنما لها دلالات اجتماعية وثقافية تؤثر في حياتنا، وتنفذ إلى أعماق أحلامنا[297].

في منعطف الفعل والتاريخ كما في منعطف سنواته الأخيرة اتجه بول ريكور إلى ملاحقة الذات خارج سياق انطولوجيتها، وفي مرآة آثارها وأفعالها، هذه الذات العائدة من أمريكا والمتشبعة بالفلسفة التحليلية الانجلوساكسونية، وهذا الخارج الذي يبدأ من الجسد يستعيد سطوته. لقد ناضل ريكور على جبهات التحليل النفسي والبنيوية والتيولوجيا والأسطورة واللسانيات من أجل إرساء دعائم الذات التراثية، وتحرير وجودها المغترب والمنفي في تاريخ محكي، ولكنه منخور بنسيان ليس له ماض[298] . لقد دخل ريكور إلى التاريخ من مدخل السرد والخطاب، فقد نشر هذا الفيلسوف حديثا كتابه التاريخ، الذاكرة، النسيان والذي يعتبر امتدادا لكتابيه الزمن والسرد (1983-1985) بأجزائه الثلاثة، والذات عينها كآخر (1990). استُقبل هذا المؤلف بحفاوة كبيرة مثله مثل كتاب الزمن والسرد[299]، تم الترحيب به من قبل المؤرخين الفرنسيين بعد فترة طويلة من الحذر، ومما يفسر هذا الإقبال والاهتمام المتزايد بكتابات ريكور في فرنسا، وفاة عدد كبير من رموز الفكر البنيوي الذين سيطروا لمدة طويلة على المناصب العليا في المؤسسات والجامعات، وعلى دور النشر والصحافة، وعلى الانتلجنسيا الفرنسية بشكل خاص، إذ بدأت تخفت سطوتهم تدريجيا على

---

297. ارثر اسا بيرغر. وسائل الاعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. ترجمة صالح خليل أبو أصبع. مارس 3012، العدد 386 عالم المعرفة. ص157/158.

298. عمارة الناصر. «بول ريكور ومسارات التأويل»، أوراق فلسفية، الفلسفة الفرنسية الراهنة، العدد33، السنة 2012م، ص106.

299. إن الاعتراف بريكور تم بشكل متأخر فقد ظلت أعمال هذا الفيلسوف خارج دوائر النقاش الفرنسي في سنوات الستينيات والسبعينيات، كتبه الأولى لم تستقبل في فرنسا بشكل جيد، فقد كان وقع صدور كتابه في التأويل مقالة حول فرويد صادما لأتباع المدرسة الفرويدية، وخصوصا على جاك لاكان الذي عبر عن امتعاضه وغضبه الشديد. لكن بعد1989م تمت إعادة اكتشاف هذا الفيلسوف، وبدأ الاهتمام من جديد بأعماله، فصدر عدد خاص عنه في المجلة الشهيرة (فكر) في يوليو سنة 1988م، كما نظمت في نفس السنة ندوة (سيريزي) حول فكره. وأنجزت بيوغرافيات متعددة عنه.

الساحة الثقافية بعد حقبة تعتبر الأكثر خصوبة في تاريخ الفكر الفرنسي الحديث، حتى إن البعض تحدث عن نهاية حقبة من سيطرة البنيوية وبداية عصر ينعت بفترة ما بعد البنيوية، ومن أهم رواده جاك دريدا وغيره. في ظل هذه المرحلة الجديدة تمت إعادة الاعتبار للجزء الظاهر والواعي في الفعل من خلال تأثيرات الفلسفة الانجلوساكسونية المسماة «التحليلية»، والتي نجد صداها في كتابات بول ريكور عن التأويلية التي هي من وجهة نظره تحررنا من سياج النص وتسمح بتجاوز الانغلاق الذي سقط فيه رواد التيار البنيوي، فالتأويلية كما يراها مثال جيد للتوفيق بين علوم الطبيعة التي تستند على التفسير والعلوم الإنسانية التي تستند على الفهم[300].

يتوقف بول ريكور على نحو مفصل عند النقلة المعرفية التي أحدثتها مدرسة الحوليات الفرنسية في تصور التاريخ ومناهجه وطرق تدريسه، متتبعا متغيرات هذه النقلة من مرحلة التأسيس مع مارك بلوك ولوسيان فيفر، إلى المرحلة التي ساد فيها تاريخ العقليات، مرورا بمرحلة فيرناند بروديل.

يتناول بول ريكور مدرسة الحوليات الفرنسية كتحول كبير في تصور التاريخ ومنهجية تدريسه، كَمُغامرة كبرى هيمنت عليها الصورة العالية لشخصية فيرناند بروديل. وتتجلى السمة الإبستيمولوجية الأبرز في الربط الذي أقامه هذا الأخير بين المقياس الاقتصادي والجغرافي، المقياس الماكرواقتصادي، أي «الاقتصاد الجمعي المهتم بالوقائع الشاملة الكبرى» من جهة، واختيار الحقبة الطويلة من جهة ثانية. ثم يقف عند جيل ما بعد بروديل الذي بلور توجها قائم الذات هو «تاريخ العقليات»، والأزمة التي أعقبت هذا التوجه. يُنَقِّبُ بول ريكور عن مفهوم العقلية منذ مرحلة تأسيس الحوليات، عند لوسيان فيفر في دراساته حول فرانسوا رابليه ومارثن لوثر ومارغريت دونافار، وعند مارك بلوك في كتابيه الملوك مُدَّعُو المعجزات، والمجتمع الفيودالي، ليصل إلى نتيجة هامة، مفادها أن تاريخ العقليات حفر أخدوده الطويل بين التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المشبع بمفهوم الأمد الطويل، والرد على التاريخ الفكري كما يمارسه الفلاسفة ومؤرخو العلوم، انطلاقا من الثقافة بمفهومها المتنبه للإحساس والسلوك والرموز، مخترقا بذلك تصور بروديل للتاريخ الشامل الذي يحتل فيه الاقتصاد مكانة كبيرة، وموجها التاريخ نحو التفتت، خلال السبعينيات من القرن العشرين، كما عبر فرانسوا دوس[301].

300. François Dosse .*De la structure au sujet. L'humanisation des sciences humaines*. Op.cit.

301. محمد حبيدة. «ابستمولوجيا المعرفة التاريخية».قراءة في كتاب بول ريكور. الذاكرة التاريخ النسيان، مجلة رباط الكتب الالكترونية، عدد11، 2012.قراءات.

في الفصلين «أفول السرد» و«دفاعات عن السرد» من الجزء الأول من كتاب الزمن والسرد يتناول بول ريكور الجذور المعرفية للكتابة التاريخية لدى مدرسة الحوليات الفرنسية، ولدى الوضعية المنطقية الانجليزية، محاولا تحقيق التقاء بَنَّاء بين منهجية الأولى وابستمولوجية الثانية. فتيار الحوليات أقرب إلى الممارسة التاريخية فهو منهجي أكثر منه ابستمولوجي، والثاني ينبع من أطروحة الوضعية المنطقية عن وحدة العلم، ولذلك فهو ابستمولوجي أكثر منه منهجي[302]، بالنسبة لكتابة التاريخ الفرنسية ينبثق أفول السرد كما يراه ريكور في الأساس من استبدال موضوع التاريخ الذي لم يعد الفرد الفاعل، بل الواقعة أو الحادثة الاجتماعية الكلية، أما بالنسبة إلى الوضعية المنطقية فينبع السرد بدلا من ذلك من القطيعة الابستمولوجية بين التفسير التاريخي والفهم السردي[303]. إنه هجوم مزدوج من أفقين مختلفين مدرسة الحوليات والوضعية المنطقية، فَكِلْتَاهُمَا تتخذ من فكرة عداء الحدث نقطة انطلاق لها. فالهجوم على الفهم من طرف أنصار الوضعية الانجليزية كان له النتيجة نفسها لهجوم الحوليات الفرنسية على الأحداث، ألا وهو أفول السرد[304].

بعد تأكيد بول ريكور على دور مدرسة الحوليات والوضعية المنطقية في أفول السرد، فتح نقاشا بين ابستمولوجيا التاريخ والنقد الأدبي والفينومينولوجيا في محاولة منه لمد قنوات الاتصال بين هؤلاء الشركاء المتفرقين، وجدل الزمان والسرد هو الرهان في هذه المواجهة التي لا سابق لها بين ثلاثة شركاء يتجاهل كل منهم الآخر في العادة، وقد نجح في هذا الحوار بفضل منهجه المنفتح على أنماط متنوعة من المعارف: أبرزها التحليل النفسي، الانتربولوجيا، التاريخ، التأويلية، وغيرها. إنها أهم عملية تأليف بين النظرية الأدبية والنظرية التاريخية أنتجت في قرننا هذا حسب وصف المؤرخ والناقد الأدبي هايدن وايت.

إن انسحاب السرد التاريخي لا ينفي الارتباط بين السرد والتاريخ في نظر بول ريكور، لذلك فإن هدفه ارتكز على استرجاع العلاقة غير المباشرة بين كتابة التاريخ والسرد خطوة خطوة، وذلك من خلال بناء الوساطة بين الزمان والسرد، وَعَبْرَ إبراز الدور التوسطي للحبك في عملية المحاكاة[305]. فالتاريخ عنده مضطر أن يستعين

302. بول ريكور. الزمان والسرد. م.س ص150.

303. المرجع نفسه.ص155.

304. نفسه ص179.

305. نفسه ص 98/148/151.

بالخيال بغية إعادة تصوير الزمان، فلكي يصير الزمن إنسانيا يجب التعبير عنه من خلال طريقة سردية، فالكتابة التاريخية وإن لم تفصح عن ذلك فهي تستبطن السرد التاريخي من خلال الوساطة التي تؤديها الحبكة أثناء توليفها بين الأحداث المتعددة والقصة الموحدة، فالخطاطات التفسيرية التي ينجزها المؤرخ هي نوع من السرد التاريخي، واللغة المستخدمة والاستعارات والرموز والأساليب البلاغية تتضمن ولو بشكل مدمج نوعاً من البناء السردي الذي هو نوع من الحبكة. فالأحداث مشتتة في فضاء الزمان على شكل سديم، والمؤرخ عن طريق السرد يقوم بتجميعها وترتيبها وإعطائها معنى.

السرد القصصي يحاكي السرد التاريخي. فرواية شيء ما تعني روايته كما لو كان ماضيا، فمهما كانت نوعية الشخصيات فإن المؤلف يتصرف بوصفه راويا، فرغم أن التاريخ مرجعه الأحداث الحقيقية والرواية القصصية مرجعها الخيال فإن الحبكة تحضر في خطابهما معا، لأن مرجعهما التجربة الإنسانية في الزمن[306]. الزمن الإنساني هو زمن سردي، لأن التجربة الإنسانية في الوجود كما يعيشها المرء في تاريخها و في الرواية التي يخترعها هي تجربة زمنية[307].

لقد توخى بول ريكور في كتابيه الزمن والسرد والتاريخ والذاكرة النسيان توضيح الوضعية الفريدة للقصة والتاريخ، موضحا أن هذين المجالين يخرجان من نظرة مختلفة، وفي نفس الوقت بَيَّنَ كيف أنه لا يمكننا إقامة قطيعة بين هذين البعدين الذين يوجدان دائما في وضعية صراع، فمع التاريخ نجد أنفسنا أمام حكاية مبنية. لقد تناول ريكور في كتابه الزمن والسرد وَهْمَ المدرسة التاريخية الفرنسية الحوليات التي أبعدت الرواية التاريخية من خلال إعادة قراءته لأطروحة فرناند بروديل، حيث برهن أن كتابة بروديل تستجيب لكل قواعد الحكاية في دراماتيكيتها التي تنقلنا من مركز عالم إلى آخر خلال القرن 16م[308]. فالتحليل الشهير لفرناند بروديل في كتابه البحر المتوسط في عهد الملك فيليب الثاني يبقى قصة، إذ الأمر يتعلق في نهاية المطاف بحكاية بطلها البحر الأبيض المتوسط، وبالتالي فإن موت فيليب الثاني ليس هو الذي يحدد نهايتها، وإنما اختفاء البحر المتوسط كبطل أسطوري وشطبه كمركز العالم[309].

306. عبد الله عبد اللاوي. ابستملوجيا التاريخ. مداخل منهجية في صناعة المعرفة التاريخية. م.س.ص95.

307. بول ريكور . الذات عينها كآخر. م.س.ص 25.

308. François Dosse. *La capabilité a l'épreuve des sciences humaines. Paul Ricœur et les sciences humaines*. Sous la direction de Christian Delacroix. François Dosse. et Patrick Garcia. Armillaire. Éditions la Découverte. paris 2007.p25/26.

309. حوار مع بول ريكور أجراه فرانسوا ازوفي ومارك دوروني نقله إلى العربية عبد الرحيم الرخوتي.

لتجاوز إشكالية السرد في التاريخ استعمل ريكور مفاهيم من قبيل «شبه حدث» ليحقق انسجاما منطقيا مقبولا بين تحليلاته الحكائية وتصريحات «ضد الحكائية» لمؤرخي الحوليات. كما يمكن اعتبار تحليله الخاص عن «إعادة بناء الحكائية» و«إعادة بناء السرد» في الابستمولوجيا التاريخية انطلاقا من مرجعية أطروحة بروديل نوعا من تقديم حلول لمساعدة مؤرخي الحوليات على الخروج من نفق التشوهات (nomalies بتعبير طوماس كوهن) التي تعرضت لها في سنوات 1980م[310].

بالنسبة للحوليات لم ينتج هذا الرفض للفرد والحدث والحكائي في نظر ريكور عن أي تأمل في الفعل والزمن، بل هو النتيجة المباشرة لنقل المحور المبدئي من التاريخ السياسي والديبلوماسي إلى التاريخ الاجتماعي. إن نقد تاريخ الأحداث وتاريخ المعارك لم ينشأ عن نقد فلسفي لمفهوم هو ذاته فلسفي بل نشأ عن صراع منهجي ضد التراث الوضعي الذي طغى على الدراسات التاريخية في فرنسا خلال الثلث الأول من القرن 20م. وهذا هو السبب في الإنكار المزدوج لتاريخ الحروب وتاريخ الأحداث باعتبارهما تواريخ سطحية[311]. لذلك فإن أروع أعمال هذه المدرسة وأكثرها غزارة دون شك كُرِّسَ للتاريخ الاجتماعي الذي تصير فيه الطبقات والجماعات والأصناف والبلدان أبطال التاريخ الجمعيين[312]، لقد تحول التاريخ مع فرناند بروديل إلى تاريخ جغرافي أكثر بنيوية، لا يأخذ بعين الاعتبار إلا القوى ذات التطور البطيء التي تنتمي إلى الأمد الطويل، لقد ازدهرت مع الجيل الثاني لمدرسة الحوليات سلسلة الدراسات المبنية على مفهوم الحقب الزمنية الطويلة التي تعتبر من أهم الأبحاث الجديرة بالاهتمام في كتابة التاريخ الفرنسي.

التاريخ الجديد بدوره ولكي يحرر نفسه من قبضة الأحداث كان عليه أن ينضم إلى مبحث آخر لم يكن الزمن عنده بالهم الأساسي، لقد تولد تاريخ الحقب الزمنية الطويلة بالاقتران مع الجغرافيا ، ثم ظهر التاريخ الكمي الذي بقدر ما هو تاريخ حقب زمنية طويلة اقترن بالاقتصاديات، ونفس الشيء بالنسبة للانتربولوجيا التاريخية، إن إقران التاريخ بمبحث آخر يؤكد أهمية السؤال عند ريكور عن مدى بقاء التاريخ تاريخيا في هذا الزواج النفعي[313]. فهل سيظل هذا التاريخ تاريخيا أم أنه

310. Christian Delacroix .*Ce que Ricœur fait des annales: méthodologie et épistémologie dans l'identité des annales*. *Paul Ricœur et les sciences humaines*. Op.cit.p213

311. بول ريكور .الزمان والسرد.ج 1،م.س،ص164/165.

312. المرجع نفسه ص165.

313. نفسه ص175/174.

سيتشتت[314].

لقد دافع بول ريكور عن الرواية ذات الحبكة والشخصيات في وجه الموضات الأدبية، كما كان مدافعا عن الحدث التاريخي في وجه كل المدارس التي قللت من شأنه[315]، بالنسبة إليه ليس الحدث بالضرورة قصيرا وعصيا مِثْلَ نوع من الانفجار. إنه من تنويعات الحبكة، وبوصفه كذلك فهو لا ينتمي فقط إلى المستوّى الثالث (الزمن القصير)، ولكن إلى كل المستويات ووظائفها المختلفة. وهذا هو السبب في أن بروديل بالرغم من تكتمه لم يكن قادرا على أن يتجنب إنهاء عمله الرائع بوصف موت ليس هو بالطبع موت البحر الأبيض المتوسط، بل موت فيليب الثاني، لماذا كان ضروريا الاختتام بمثل هذه الصفحات السخية حول موت فيليب الثاني (16شتنبز 1598م) في أطروحته، إن هذا الموت من وجهة نظر التاريخ الكلي ليس ذا أهمية كبرى بالنسبة لكل أبطال الحكاية[316]. ونفس الملاحظة قدمها فرانسوا دوس الذي اعتبر أن فرناند بروديل«اقترب من التاريخ التقليدي» الذي حاربته الحوليات عندما «أعطى للإنسان كفرد ذي نفسية معينة وزنا أساسيا في مصير الحضارات»، وذلك عندما اعتبر أن تدهور الإمبراطورية العثمانية بدأ مع وفاة سليمان القانوني(5 شتنبر 1566م)، بما أن العرش قد آل إلى رجل ضعيف هو سليم الثاني المتذوق لنبيذ قبرص[317].

مثال بروديل يعطي مرورا مناسبا لما سماه بول ريكور عودة الحدث، هذه العودة ارتبطت أيضا بعودة الاهتمام بما هو سياسي، فالأحداث السياسية الوحشية للقرن العشرين أعادت الحدث إلى الصدارة ليس فقط بالنسبة للمؤرخين، بل بالنسبة لجميع الناس، الحدث ببزوغه الحاضر يجد مكانا داخل الزمن التاريخي حيث تندمج ذاكرة ما وقع في الماضي مع استشراف ما سيكون مستقبلا، نحن إذن أمام سلسلة من الأحداث بصدد الوقوع كآثار لأحداث سابقة.

إن الحدث يظل منيعا وصعبا على مستوى الكتابة التاريخية، لأنه على مستوى التاريخ الحقيقي وكذلك بالنسبة للتصور الفردي تتقاطع داخل الحاضر المعاش ذاكرة الماضي واستشرافات المستقبل أيضا. داخل حدثانية الحاضر يندمج فضاء التجربة

---

314 بالنسبة لورشة التاريخ في كتابه التاريخ الذاكرة النسيان يقدم بول ريكور امتنانه لفرانسوا دوس خصوصا، بقوله: «بعد أن أنهيت عملي.. اعبر عن امتناني لكل القريبين مني الذين صاحبوا، بل أجرؤ على القول الذين أيدوا مشروعي ..إني أضع جانبا أسماء أولئك بالإضافة إلى صداقتهم جعلوني أشارك في كفاءتهم، فرانسوا دوس الذي نصحني بخصوص ورشة المؤرخ.» بول ريكور. التاريخ، الذاكرة النسيان.م.س.ص30.

315. من تقديم المترجم لكتاب بول ريكور. الذاكرة، التاريخ، النسيان.م.س.ص12.

316. بول ريكور. الزمن والسرد. م.س ص352/334/339.

317. فرانسوا دوس. التاريخ المفتت.م.س.ص242.

حسب تعبير روبير كوسليك Robert Koselleck أي الماضي المتصل والمندمج مع تجربة الحاضر مع أفق الانتظار، بمعنى هَمُّ المستقبل الذي يعطي اتجاهية للحاضر نفسه.[318] بالنسبة لجيل دولوز أيضا الأحداث يمكن أن تكون في الحقيقة كثيرة، لكن تفردها ليس له معنى إلا داخل سلسلة من تقاسمات الزمن بين الماضي والمستقبل، قبل الواقعة وبعد الواقعة[319].

4. انبعاث الحدث

في القرن التاسع عشر تعرضت المدرسة المنهجية ورموزها لانتقادات لاذعة، كيلت لها اتهامات من مختلف العلوم الإنسانية التي كانت في مرحلة تطور على مستوى المناهج المعتمدة. نهج مؤسسو مدرسة الحوليات الأوائل نفس المنحى، فقد انتقدوا التاريخ الحدثي والسرد الوصفي للظواهر واهتموا بالتاريخ الإشكالي. بدورها دقت موجة البنيوية المسمار الأخير في نعش المنهجيين، فقد ظهرت إلى الوجود مفاهيم جديدة مع الجيل الثاني لمدرسة الحوليات تناغمت مع موضة البنيوية مثل الزمن الطويل والتاريخ الجامد، وأصبح الحدث عنصراً مشوشا و غير معتبر في التاريخ الطويل الذي بدأ يهتم بالبنيات الكبرى.

في كتابه الجديد انبعاث الحدث[320] يعطي فرانسوا دوس نبذة تاريخية مفصلة عن تطور مكانة الحدث في الخطاب التاريخي وبشكل أوسع في مجموع العلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، نَسْبَحُ في هذا الكتاب مع الطفرات التي شهدها الحدث في الكتابة التاريخية الفرنسية.

يجب أن نؤكد هنا على الرؤية المتميزة للمؤلف الذي لم يُعْطِ للحدث شكلا خطيا أحاديا، وإنما وضعه ضمن سياق من التحولات التي صاحبت الكتابة التاريخية في مرحلة القرن العشرين.

إن اهتمام فرانسوا دوس بالحدث لا يمكن أن نربطها بصدور كتابه انبعاث الحدث بل البداية تعود إلى سنة 1978م، عندما نشر أطروحته الجامعية التاريخ المفتت[321].

318. Paul Ricœur.le *retoure de l'Événement*, In: Mélanges de l'Ecole française de Rome. Italie et Méditerranée T. 104, N°1. 1992. P35

319. Alban Bensa et Eric Fassin. *Les sciences sociales face à l'événement*. Terrain. Revues. Org.2002. p5.

320. اغتنم الفرصة لتقديم الشكر للزميل والصديق الأستاذ الباحث يوسف المهاجر المتخصص في البيولوجيا والحاصل على الدكتوراه في تاريخ العلوم عن مساهمته في القراءة التي خصصناها معا لكتاب انبعاث الحدث لفرانسوا دوس، والتي سيتم نشرها في العدد الثالث عشر من مجلة رباط الكتب الالكترونية.

321. François Dosse. *L'Histoire en miettes. Des "Annales" à la "nouvelle histoire"* op.cit.

القراءة الأولية لهذه الأطروحة تعطي الانطباع بأنها تأريخ لأجيال مدرسة الحوليات. لقد اعتُبر الكتاب في حينه موجه ضد الجيل الثالث من مدرسة الحوليات، بَيْدَ أنه يمثل في الجوَهر لبنة أساسية ضمن ما يمكن تسميته بالاسطوغرافيا التحليلية الجديدة[322].

بعد صدور هذا الكتاب بمدة يسيرة تقبل الوسط التاريخي بصعوبة فكرة وجود أزمة هوية في الكتابة التاريخية، فقد تلقى المؤرخون الجدد التاريخ المفتت في البداية بحذر شديد، تجنَّبه البعض منهم، في حين هاجمه البعض الآخر بشدة وعلى رأس هؤلاء المؤرخ جاك لوغوف الذي انتقد ما جاء فيه جملة وتفصيلا.

يوضح دوس في هذا الكتاب المأزق الذي أصبح فيه التاريخ، إنه ينتهي بالتخلي عن هويته ويتعرض لخطر كبير، لقد وجد التاريخ نفسه فجأة وبعد انفتاحه الكبير على العلوم الإنسانية معرضا لخطر الضياع والتحول إلى شظايا، إنه على وشك أن ينتهي مثل علم الحيوان بالأمس[323].

إن الخلاص من هذا الموت المعلن لمهنة المؤرخ هو أن يعود التاريخ من جديد «علم التغير» كما كان ينعته مارك بلوك، عليه أن يقطع بشكل نهائي مع الخطاب الحولياتي الثابت «للزمن الجامد» كما تبناه لوروا لادوري أحد رموز الجيل الثالث لمدرسة الحوليات، فمن أجل بناء تاريخ جديد لا بد من تجاوز القطيعة بين الحاضر والماضي.

بتحول التاريخ إلى اثنولوجيا نفى ذاته، لأنه بدأ يواجه إحدى أهم ركائزه الأساسية المتمثلة في الديمومة بإيقاعاتها السريعة والبطيئة. إن تجديد الخطاب التاريخي عند دوس يمر عبر بوابة إحياء ما نبذته مدرسة الحوليات من البداية: الحدث الذي يشكل هوية التاريخ كما كانت في الماضي، فنفي الحدث أو إقصاؤه يقود التاريخ على درب خطر انحلال ما كان يشكل قاعدة لخصوصيته ووظيفته، إن خروج التاريخ من نفق أزمته الحالية لن يتأتى إلا بالاعتراف بالحدث.[324]

رغم أن فرانسوا دوس لم يصرح بشكل واضح في كتاباته، فإننا نستنتج بسهولة أنه يعتبر المؤرخ ايمانويل لوروا لادوري عضو لجنة إدارة الحوليات المتهم الرئيسي، والعدو اللدود للحدث، وعبارته المستفزة «التاريخ الجامد» والتي جعلها عنوانا للدرس الافتتاحي الذي ألقاه سنة 1973م بالكوليج دو فرونس بمناسبة اختياره رئيسا

322. من القراءة التي قدمها فلوريان لويس لكتاب فرانسوا دوس للمزيد راجع:
Floriane Louis Publie sur Acte Le 31 Juin 2011.

323. فرانسوا دوس التاريخ المفتت.م.س.ص 368.
.Floriane Louis. Publie sur Acte Le 31 Juin 2011.Op. cit.324

لشعبة التاريخ والحضارة بها خلفا لفرناند بروديل مازالت راسخة في الأذهان. لقد أكد في هذه المناسبة «أنه منذ نصف قرن تقريبا أفضل المؤرخين الفرنسيين بعد مارك بلوك مِمَّنْ مارسوا البنيوية»[325]، في انسجام مطلق وتناغم مع مفاهيم إقصاء الذات كما طرحتها البنيوية، لَقَدْ سَانَد دعاة محو وإقصاء «التاريخ الحدثي» الذي وصفه مرارا «بالتاريخ الشوفيني». إن بلوغ الحد الأقصى لرفض الحدث في خطاب الحوليات يتجلى عند ايمانويل لادوري الذي تحدث عن تاريخ بدون بشر في الفصل الرابع من كتابه الشهير حقل المؤرخ[326]، إنه عنوان معبر عن الرفض المطلق للحدث. وهو بهذا يواصل النهج على نفس الدرب، إذ سبق وأن أصدر سنة 1967م كتابا بعنوان تاريخ المناخ منذ ألف عام دون أن يكون للإنسان أي حضور في بحثه ولو على الهامش[327]. يعطي هذا المؤرخ لهذا الإبعاد صبغة الثورة في كتابة التاريخ. فقد أعد تقسيما زمنيا للتغيرات المناخية في حد ذاتها دون أن يهتم بانعكاساتها على المجتمع.

في نظر فرانسوا دوس انتقلنا من التاريخ كعلم للتغير مثلما كان مع مارك بلوك ولوسيان فيفر، إلى تاريخ يكاد يكون جامدا مع فرناند بروديل، إلى تاريخ جامد بالفعل مع ايمانويل لادوري. إلا أن التاريخ حسب هذا المؤرخ لا يمكن أن يكون جامدا.

هاجم ميشال فوكو في كتابه حفريات المعرفة «التاريخانية» و«التاريخ الشامل»، فالتاريخ لن يكون أبدا وصفا لتطورٍ مَا كما هو الأمر عليه في علوم البيولوجيا. وبالمقابل رحب بالتحول الابستمولوجي الذي أنجز في التاريخ مع مدرسة الحوليات، وقد طبق مفاهيمه على دراسته حول الطب السريري وتاريخ الجنون والجنسانية والسجن والعقاب.

جعل فوكو من نفسه مدافعا عن جيل الحوليات الثالث، دافع عن التاريخ السلاسلي والتاريخ الجداولي، فالمهم عنده هو أن لا يأخذ التاريخ حدثا في اعتباره دون تحديد السلسلة التي ينتمي إليها. من الأكيد أنه بمنحه الأفضلية للانقطاعات يختلف في تصوره عن التاريخ الذي لا يتحرك لايمانويل لادوري، فهو يعمل في اتجاه إعطاء شأنٍ للحدث، في حين أن التيار السائد في الكتابة التاريخية ينحو إلى تهميش وزن ودور الحدث[328].

ذاب الحدث زمن سيطرة التاريخ الجديد في الأمد الطويل وتم دفعه إلى

325. Francois Dosse. *Structuralisme. historiographies.II. concepts et débats*. Op.cit.. P883

326. Emmanuel le Roy Ladurie. *Le Territoire de L'historien* .Galimard..1973.

327. Emmanuel le Roy Ladurie. *Histoire de climat depuis l'an mil*. Paris. Flammarion.1967

328. فرانسوا دوس .التاريخ المفتت. م.س.ص275.

الهوامش، ويمكن حتى «أن لا يتم الاهتمام به أبدا» حسب تعبير كريستوف بوميان. فمن منظور الماكروتاريخ الحدث لاشيء، لقد استهدف هجوم الحوليات تقديس الحدث لدى المؤرخين التقليديين، لقد أصبح التاريخ الحدثي خصمهم الأول منذ الوهلة الأولى.

لقد شكل حدث مثل ثورة 1789م جدلا كبيرا في الكتابة التاريخية الفرنسية، ففي عشية الذكرى المائوية الثانية لهذا الحدث، و من خلال بعض المداخلات التي ألقيت في هذا الملتقى حول جذور الثورة الفرنسية أعلن رئيس مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية السابق فرانسوا فوريه بأن الثورة الفرنسية انتهت.بل تساءل هل وُجدت الثورة فعلا؟ الثورة؟ إنها أسطورة. وعكس القراءة التقليدية التي تعتبرها انكسارا كبيرا في التاريخ الحديث، فرانسوا فوريه ودينيس ريشيه Denis Richit طورا قراءات جديدة للفعل الثوري، فتَشَكّل ثورة الأنوار الحقيقية وقع حقيقة قبل 1789م، أما الحدث في حد ذاته فكل ما فعله هو أنه كدر مسار هذه الآفاق التي يحملها التاريخ. لقد انعطفت نتيجة لذلك مسارات المجتمع الفرنسي، إذ لا ننسى أن صغار الفلاحين الفرنسيين عرفوا متنفسا لمدة قرن من الزمن. ومن خلالها كان ظهور الحدث أو قل «انحشار الزمن القصير»، وهو وإن لم يكن تافها، فإنه يخرج عن الخط المستقيم للتاريخ كما كان يجب أن يكون. وهذا هو معنى القراءة التي تبرز الثورة الفرنسية على أنها انزلاق في مسار التاريخ، فما يجب على المؤرخ وصفه والتركيز عليه يوجد في غالب الأحيان بعيدا عن ساحات الضجيج الكبرى. هذه هي بالضبط القراءة التي يقترحها ف.فوريه ود.ريشيه والتي أثارت الجدل بشأنها[329].

الثورة الفرنسية أزعجت مؤرخي الأمد الطويل، لذلك فإن هذه الثورة من منظور فوريه ماتت بشكل نهائي، فهي ليست في الواقع سوى أسطورة. لقد اعتبر دوس موقف هذا الأخير ايديولوجيا هدفه نزع الخطاب الكوني عن الثورة الفرنسية، والذي تبنته أوربا بأسرها في القرن التاسع عشر للوقوف في وجه السلالات الملكية المستبدة.

إن المؤرخ فرانسوا فوريه صَوَّر الثورة الفرنسية بفترة «انحراف التاريخ»، وبكونها «مجرد انزلاق» أو «مرحلة بين قوسين»، وأنها لم تكن إلا مثل جميع الثورات شمولية وراديكالية. لقد هجم على فكرة الثورة ذاتها، وليبرهن على صحة أطروحته أوجد علاقة عضوية بينها وبين الاستبداد، وقد وجد في كتابات سولجنتسين عن إرهاب الكولاغ السوفياتي ضالته لإعطاء مصداقية لهجومه. فالثورتان مترابطتان في

329. ميشيل فوفيل .«التاريخ والأمد الطويل». م.س ص175/176.

نظره. لقد اعتبر دوس قراءة هذا الأخير عبارة عن موقف مناضل قديم من صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي مصاب بخيبة أمل كبيرة .لكن الأمر ربما يتعلق بظاهرة حذف الأحداث الكبرى من قاموس مؤرخي الحوليات. إنه إعلان عن وفاة الحدث، فالكتابة التاريخية حسب لوروا لادوري كانت مجبرة لتقتل من أجل أن تحيا، فقد حكمت منذ عقود مضت على «التاريخ الوقائعي» وعلى «البيوغرافيا» بموت شبه كلي. وقبله هاجمت مجلة التوليف التاريخي لهنري بير قداسة الحدث واختزالية المدرسة المنهجية.

نفس الأمر حدث للتاريخ السياسي الذي أبعد إلى الهامش بدوره، كان الإنبهار بوصف الأحداث السياسية هو الأقوى حسب التحقيق الذي قام به الان كوربان حول المجلة التاريخية للمدرسة المنهجية للقرن التاسع عشر، لكن الأمر اختلف في معظم القرن العشرين وانتقل إلى النقيض تماما. ففرانسوا فوريه يضع نفسه خارج نفق التاريخ السياسي، ويؤكد ايمانويل لادوري على ضرورة فصل البحث التاريخي عن السياسة. إن الخطاب السياسي يبقى مثله مثل الحدث أفقا ميتا في الخطاب الحولياتي[330].

إن انتعاش خطاب مدرسة الحوليات خارج حقل السياسي ساهم بشكل أساسي في تجنب دراسة الظواهر التاريخية الأساسية في تاريخ الزمن الراهن، فقد جمع المؤرخ جاك جوليار في مقال شارك به في المؤلف الجماعي صناعة التاريخ مختلف الحجج لمقاضاة التاريخ السياسي الذي اعتبره «تاريخاً نخبوياً»، «بيوغرافيا»، «سردياً»، «حينياً»، لا يعرف الأمد الطويل، وفي كلمة واحدة وهي تلخص كل شيء في لغة المؤرخين إنه «تاريخ وقائعي»[331].

لتجاوز فكرة «التاريخ الجامد» وإعطاء معنى للتحولات الاسطوغرافية الجديدة، يرسم دوس في خاتمة كتابه التاريخ المفتت منحى مغايرا للمفهوم المغلوط عن عودة الحدث السياسي، إنه ليس بالتأكيد العودة للوقائعي كما في التاريخ الوضعاني، بل السعي لبعث الحدث المتعدد الدلالات والمعاني. فنفي الحدث الذي هو نقطة العدم في الأفق الحولياتي منذ الولادة لم يعد له ما يبرره.

لم يشر فرانسوا دوس في سياق حديثه عن انبعاث الحدث في أطروحته التاريخ المفتت إلى الدراسة التي قام بها قبله المؤرخ جورج دوبي. إن ما دعا إلى عودته فرانسوا دوس نجده في كتاب ثلاثين يوما التي صنعت تاريخ فرنسا. لا ندري

330. راجع للمزيد: فرانسوا دوس.التاريخ المفتت .من ص347 الى ص 364.

331. نفسه ص388.

كيف لم ينتبه إلى هذه الدراسة المتميزة التي خصصها دوبي لمعركة بوفين والتي نجد فيها النواة الأولى لتجديد ابستمولوجي عميق على مستوى تناول المعارك الحربية بطريقة مختلفة عما كانت عليه في القرن التاسع عشر مع المدرسة المنهجية. قدم طريقة مغايرة لتناول الحدث في التاريخ، بَيَّنَ كيف أن هذا الحدث (المعركة) شكل موضوعا لقراءات واستعمالات متباينة منذ وقوعه والى غاية الآن، وهكذا وضح استنادا إلى قرائن متعددة أن الحدث لا يدخل في تناقض وتضاد مع تاريخ الأمد الطويل، لأن الحدث داخل هذا الزمن يتخذ شكلا ومضمونا، وهو الأمر الذي أثار انتباه المؤرخين إذ ذاك إلى الحدث. لم يعد الأمر يتعلق بأهمية أسباب الحدث ولا بالنتائج الفورية المترتبة عنه، لكن بما يتركه من آثار في طيات الزمن. يمكن تشبيه الحدث عندما يقع بالبذور التي تزرع في الأرض، إذ تكون إذاك غير مرئية، وبمرور الأيام تتحول البذور إلى نبتة بارزة، كذلك الأمر بالنسبة إلى الحدث، قد يختفي لمدة ثم سرعان ما يطفو مرة أخرى على السطح.

جعل المؤرخ جورج دوبي من الحدث موضوعا للتاريخ من خلال تحليل عميق وشامل لمعركة بوفين التي جرت بين الفرنسيين والألمان يوم الأحد 27 يوليو سنة 1214م[332]. ركز على الآثار التي خلفتها هذه المعركة على مر الزمان، فالمعركة لا تعني ذلك الحدث المشهور ولكنها أصبحت ذكرى في المخيال الجماعي للأمة. هذه المعركة أصبحت منسية منذ القرن السادس عشر حينما أصبح الإمبراطور الألماني حليف ملوك فرنسا، لكن ذكرى حدث معركة بوفين سنة 1870م طفى من جديد على السطح مع عودة التوتر من جديد بين البَلَدَيْن، ونفس الأمر ينطبق على فترة الحربين العالميتين. ركز جورج دوبي في كتابه على آثار الحدث وتحولاته، وقد أسس بذلك تناولا جديدا للحدث الذي أخذ الآن أهمية أكبر. لقد اعتبر هذا الحدث بمثابة مَا طَافَ من جبل جليد عائم، ودراسته تمت باعتباره مؤشرا عنِ البنى ومبلورا لها[333]. إنه ينظر إلى هذه المعركة وإلى الذكرى التي تركتها بصفته عالما انتربولوجيا أيضا، يحاول بعبارة أخرى رؤيتهما جيدا، كلاهما، باعتبارهما مغلفين ضمن مجموع ثقافي مختلف عن ذلك

332.أصبحت معركة بوفين منسية منذ القرن السادس عشر حينما أصبح الإمبراطور الألماني حليف ملوك فرنسا، لكن عادت إلى السطح ذكرى حدث معركة بوفين فجأة سنة 1870 مع عودة التوتر من جديد بين فرنسا وألمانيا. كما كان لهذه المعركة صداها في التاريخ المعاصر، فقد صادف تاريخ مئويتها سنة 1914 اندلاع الحرب العالمية الأولى، وهو ما رأى فيه الألمان فرصة للثأر ورأى فيه الفرنسيون فرصة لتكرار النصر الوسيطي في الفترة المعاصرة، ركز جورج دوبي في كتابه على آثار هذا الحدث وتحولاته، وقد أسس بذلك تناولا جديدا للحدث الذي أخذ الآن أهمية أكبر، هذا ما فعله أيضا المؤرخ بيير نورا في عَمَله أماكن الذاكرة. للمزيد عن هذه المعركة:
Georges Duby. *Le Dimanche de Bouvines.27 juillet 1214. Trente journées qui ont fait la France*; 5(Paris). Gallimard.1973.

333. جاك لوغوف. التاريخ الجديد.م.س ص46 من مقدمة الطبعة الثانية.

الذي يحكم علاقتنا مع العالم. إنه يريد القيام بعمله كمؤرخ وبصفته عالما انتربولوجيا مهموما باختلاف المجاميع الثقافية. لقد استنفر كافة سجلات علمه كاختصاصي بالقرون الوسطى لكي ينتج التأويل الأكثر إحاطة ممكنة بالآثار التي خلفها هذا الحدث، لقد ركز على الآثار التي خلفتها هذه المعركة على مر الزمان، و جعل من ساعات المعركة القليلة كشافا لطرق عمل وتفكير مجتمع ما[334].

لقد تناول دَارِسُ القرون الوسطى جورج دوبي معركة بوفين من ثلاثة وجهات نظر، أولا بوضعِ المعركة في علاقتها مع الحرب ومع السلم في عالم القرون الوسطى (سوسيولوجية الحرب). ثانيا من خلال توضيح كيفية روايتها من طرف الكرونولوجيين، وكيف تناولتها المصادر. وأخيرا من وجهة نظر لها ارتباطات بالأوهام الأسطورية التي رافقتها حتى القرن العشرين (مثال انصهار فيليب اوغست وشعبه في المعركة). هكذا يتطور تاريخ المعارك وينفلت من الطوق القديم الذي أدمى عنقه. إننا أمام مفهوم مختلف من تاريخ المعارك الذي يهتم بذاكرات الحروب وبالروايات المتعددة للحدث الواحد، يشهد على ذلك كتاب لويست فالينسي Lucette Valensi حول معركة الملوك الثلاثة (معركة وادي المخازن) بالقصر الكبير التي شارك فيها الملك البرتغالي دون سيباستيان برفقة محمد المتوكل ضد عم هذا الأخير عبد الملك المدعم من طرف الأتراك العثمانيين في المغرب سنة 1578م (انظر: **خرافة الذاكرة- معركة الملوك الثلاثة المجيدة- 1992م**)[335]. تناول فيه نظرة كل من المنهزمين والمنتصرين حول حدث المعركة، إذ اختلفت طرق تشكل وانتقال ذكرى وادي المخازن في كتابات وذهنيات المنتصرين والمنهزمين. إن استحضار الخلاصات التي انتهت إليها فالينسي في دراستها حول معركة وادي المخازن يمكن أن تفيد كثيرا في الوقوف على مختلف التبدلات والتحولات التي تلحق نفس السلسلة من الأحداث مع مرور الزمن، كل الأحداث مهما طالت يَتِمُّ إعادة تحيينها وتأويلها حين تستدعي الظروف ذلك. فهل احتفظ الخطاب التاريخي البرتغالي والمغربي بنفس التصورات عن معركة 4 غشت 1578م[336].

أمام العجز عن استيعاب حجم الكارثة التي حلت بالبرتغال على إثر الخسارة

334. فرانسوا هارتوغ. تدابير التاريخانية- الحاضرية وتجارب الزمان-. ترجمة بدر الدين عرودكي، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2010،ص 75.

335. Lucette Valensi.*Fables de la mémoire-La glorieuse bataille des Trois Rois*. (Seuil, 1992).
قدم الأستاذ عبد الأحد السبتي قراءة موجزة في هذا الكتاب بعنوان «التاريخ والذاكرة». منشورة بمجلة الحوليات الفرنسية،سنة 1995، المجلد 50،رقم 6 من ص1283-1279.

336. محمد جادور. «الخطاب التاريخي بين امتدادات الذاكرة وحدود التأويل». بصمات، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بنمسيك، الدار البيضاء، العدد الأول، 2006، ص41/39.

النكراء لسيباستيان في المعركة اختار البرتغاليون الصمت، ثم نفي وإنكار الهزيمة، وهو ما اعتبرته الكاتبة فالينسي رفضا للذاكرة، ترجمه امتناع الناس عن ارتداء ألبسة الحزن أو النياحة أو زيارة القبور، بل عاد البرتغاليون إلى استحضار معركة اوريك التي انتصروا فيها على المسلمين سنة 1139م، ثم حولوا في كتاباتهم سيباستيان صاحب أكبر كارثة وطنية إلى الصورة المركزية للذاكرة الجمعية، فاختفى بذلك الزمن الجمعي وراء الزمن الميثولوجي. وبدأت قصة العودة المنتظرة للملك الغائب التي دلت على رفض تصديق كارثة موته والتشكيك فيها[337] .

بالمقابل في الجهة المغربية اتسمت رؤية الحدث بتعدد الأصوات وتباين التأويلات المفسرة للحدث. فابن القاضي في كتابه المنتقى المقصور على مآثر المنصور اعتبر هذه الغزوة من الغزوات الكبرى، و شبه الحدث بغزوة بدر الكبرى[338]، بالغ في إطراء ولي نعمته أحمد المنصور (افتداه من الأسر سنة 995هـ) على حساب دور عبد الملك السعدي كما هو واضح في كتابه الآخر درة الحجال في أسماء الرجال[339]، أما الفشتالي في كتابه مناهل الصفا الذي جعله وقفا على مآثر الخليفة المنصور والإشادة بأعماله في الداخل والخارج، فقد أولى عناية كبرى للحدث الذي استهدف منه إعداد ذاكرة سعدية وطنية لفائدة أحمد المنصور، لاستثمارها في مواجهته لطموحات العثمانيين ورغبتهم في ضم المغرب[340]، فبعد انتصار السعديين في معركة واد المخازن ستتغير الوضعية عما كانت عليه في السابق، إذ رغم استمرار بعث أحمد المنصور الذهبي (1603/1578) الهدايا إلى الباب العالي إلا أنه دشن من جهة ملامح سياسة تختلف عن سابقه، فقد أطاح براية الأتراك وأمر بتمزيقها[341]، واتخذ لقب الخليفة، وأصبحت الخطبة تلقى باسمه، وكان هذا تأكيداً من أحمد المنصور

---

337. نفسه ص39.

338. احمد بن خالد الناصري. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .الدولة السعدية، الجزء الخامس، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1955، ص81.

339. قال ابن القاضي في درة الحجال «فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك في يوم واحد، وهم أبو مروان بن الشيخ، وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ، والطاغية سيباستيان، وأقام واحدا وهو أبو العباس المنصور» وذهب الناصري إلى أن في إهلاك الثلاثة وإقامة الواحد إشارة واضحة لأهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد في ذلك اليوم!. الناصري. الاستقصاء... م.س ص84.

340. عرف أحمد المنصور كيف يستغل انتصار المغاربة في وادي المخازن لتدعيم نفوذه الداخلي، ولفرض احترامه على خصومه في الخارج، سواء على السلطان العثماني أو الملك الاسباني، فقد سلك سياسة التوازن والتفاهم محافظا على العلاقة التقليدية مع اسبانيا لدرء التهديد التركي والعكس، فأوجد بذلك للمغرب كيانا مستقلا استطاع من خلاله ولفترة طويلة الحفاظ على نوع من التوازن الدولي وعدم ترجيح أي كفة من الجانبين المتصارعين.

341. انطونيو دي صالدارنيا. أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب. تقديم وترجمة وتحقيق ابراهيم بوطالب عثمان المنصوري لطفي بوشنتوف، إعداد النص الأصلي انطونيو دياش فارينيا، الطبعة الأولى، 2011.م.ص 60/81.

على استقلالية المغرب عن الباب العالي[342]. ومما يؤكد ذلك استقبال المنصور الذهبي سفراء عثمانيين ببرودة شديدة، فقد ذكر الإفراني في النزهة أن المنصور تشاغل عنهم وتركهم بحضرته مهملين وتأخر عن جواب خاقان ملك القسطنطينية العظمى. يبدو أن هذا الاستقبال الذي كان المقصود به الاحتقار جاء نتيجة الأطماع العثمانية الملحة في ضَمِّ المغرب.

طمس الفشتالي في رواياته عن معركة وادي المخازن على غرار ابن القاضي مساهمة عبد الملك في الحدث بشكل مبالغ فيه، لدرجة أنه جعل من عهد محمد الشيخ مرحلة البناء والتأسيس للدولة السعدية، وعهد ابنه المنصور عهد الازدهار والعظمة[343]. صاحب مرآة المحاسن محمد العربي الفاسي أرجع سبب النصر إلى مشاركة الأولياء والمجاهدين. وركز على مساهمة والده وبلائه فيها قائلا «كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين وأظنه الميسرة. فوقع في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى ..فثبت الشيخ وثبت من كان معه إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون والشيخ لم يتزلزل ولم يلتفت منذ توجه إلى قتالهم حتى فتح الله عليهم»[344]. أما المؤرخ المجهول الذي كان أكثر تحررا فقد ركز على دور عبد الملك من خلال الاعتماد على الرواية الشفوية، وسار المؤرخ الافراني على خطى المؤرخ المجهول واستحضر معركة بدر على شاكلة ابن القاضي، واحتفظت ذاكرة كتابات التراجم والمناقب بالأدوار البطولية والمحورية لأبي المحاسن الفاسي ولمحمد بن علي بن ريسون والمجاهدين الذين قاتلوا استجابة لندائهم، مع تهميش دور الجيش بقيادة عبد الملك وأحمد المنصور. هذه القراءة المنقبية للحدث استمرت في البروز في لحظات تاريخية معاصرة فخطاب علال الفاسي في ذكرى تخليد ذكرى المعركة بالقصر الكبير سنة 1957م استحضر، دور أبي المحاسن الأساسي واعتبر مكانته مماثلة لجان دارك (1412-1431) في تاريخ فرنسا . كما حاول أن يجعل من المعركة حدثا لإثبات الهوية المغربية في بعدها الديني والوطني بهدف تدوينها في الذاكرة الجمعية.[345]

342.عبد الرحيم بنحادة. المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ،إشراف د. محمد مزين، موسم 1995/ 1996، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهراس فاس، مرقونة، ص58.

343.عبد العزيز الفشتالي. مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء. دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم منشورات جمعية المؤرخين المغاربة الرباط، المملكة المغربية، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة 2005م، ص15/23 من التقديم. وللمزيد بخصوص كتابة المنصور للسلطان العثماني بعلمه بالنصر من ص45 الى 48من الكتاب.

344. أحمد بن خالد الناصري. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدولة السعدية الجزء الخامس.م.س. ص80.

345. محمد جادور. «الخطاب التاريخي بين امتدادات الذاكرة وحدود التأويل». مقال سابق، ص.40

أمر الشريف أحمد وكلف بعض البرتغاليين بالبحث عن جثة الملك سيباستيان، وبعد ثلاثةأيام من البحث وجدوا جثة مشوهة، تأكدوا بعد غسلها بماء النهر أنها جثة الملك، فغطوها بإزار من كتان هولندي، وحملوها إلى خيام النبلاء الذين تعرفوا عليها ثم نقلت إلى القصر الكبير ومنه إلى سبتة، ولا أحد من النصارى مع ذلك قد شهد مقتل الملك، فعمت الريبة، وقد أثارت رواية التعرف على جثة سيباستيان جدلا كبيرا بين البرتغاليين ما بين مكذب ومصدق لها. قد تكون هذه القصة حيكت من طرف قائد الأسطول وقبطان قلعة أصيلا للتمويه على المغاربة، ليبقى المجال متسعا أمام سيباستيان للهرب في حالة بقاءه حيا في المغرب، وهو نفس التفسير الذي قدمه المشككون في صدقية شهادة النبلاء، ومنهم الأسير الدون فرانسيشكو دي مينيزش الذي اعتبر أن النبلاء وحتى لو كانت أمامهم جثة تركي مختون لادعوا أنها جثة الملك، ليبقى المجال أمامه مفتوحا للهرب إن كان ما يزال حيا[346]. مهما يكن من أمر هذه الروايات فإن الذين اغتروا بها في النهاية هم البرتغاليون، لدرجة صعب معه اقتناع الناس بأن الملك سيباستيان مات. على الأقل فكرة الملك المختفي التي برزت في الكتابات البرتغالية (سيباستيان الذي يعتقد أنه لم يمت في المعركة) والتي غذت مختلف الأوهام التي أدت إلى ولادة السيبستيانية كأسطورة وطنية برتغالية حقيقية[347]. قد يكون الملك دُونْ سيباستيان حيا ! كان هذا الأمل الجنوني ينمو ويتطور و ينتشر عبر البلاد، تذكيه الإشاعات الأكثر تناقضا حول الملك والتي يجري تداولها، أقواها تلك التي تؤكد أنه نجح في الإفلات من المغاربة. ففي الليلة التي تلت إبادة الجيش جاء ثلاثة ناجين يدقون بوابة مدينة أصيلا، و يطلبون الاستعجال لأن أحدهم هو الملك، فتحت البوابة لهم، وفور ذلك انتقلت إشاعة نجاة دون سيباستيان إلى لشبونة و باقي بقاع المملكة. و مع مرور الأيام والأسابيع أصبح الخبر المكرر والمضخم يقينا، و وصل إلى الجماهير الشعبية و الطبقات الوسطى، الملك حي فعلا !، إنه مُختفِي وخَجُول من الهزيمة و الندم، لأنه جر عددا من رعاياه إلى الموت! ولكنه سيأخذ مكانه على العرش بعد فترة قصيرة! فشكل ذلك بدايات ما يمكن تسميته السيبستيانية[348].

استمدت السيبستيانية (سيباستيان لم يمت) قوتها في البداية من الغموض الذي أحاط بموت العاهل البرتغالي والأمل الذي كان يحذو شعبا في استرجاع حريته. إن فقدان البرتغاليين لاستقلالهم الوطني كنتيجة مروعة لوفاة دون سيباستيان في ميدان

346. انطونيو دي صالدارنيا. اخبار أحمد المنصور سلطان المغرب. م.س ص31/34/35.

347. Nicolas Offenstadt. *Histoire battaille. Historiographies.I. Concepts et débats*. Op.cit.p167/168.

348. يونس نكروف. معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة. ترجمة وفاء موسى ويشو،حسين حيدر. منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1978م، ص197/198.

المعركة والتي أحيطت في الكتابات البرتغالية بغموض شديد، أدت إلى ظهور مُدَّعِين كثر بين الفينة والأخرى في البرتغال و خارجها زاعمين أنهم سيباستيان[349]. منذ بداية السيطرة الإسبانية أظهر البرتغاليون استياءهم وكرههم الشديد تجاه الحكام الأجانب، ونمت هذه المشاعر بسبب سوء تصرفات السلطة الجديدة. بقدر ما كان عداء الناس للإسبان والتأسف على الإستقلال المفقود يتزايدان، فإن الإشاعات المتعلقة بوجود دون سيباستيان على قيد الحياة تعود و تنتشر لتكسب مؤيدين لها من جديد. كان مؤيدو سيباستيان يحركون دعايتهم وإشاعاتهم المغرية، في ظل هذا المناخ من التحريض المفرط ظهر أربعة أفراد منذ1583م على امتداد ثلاثة عشر سنة، انتحل كل منهم اسم دون سيباستيان. (المتحلون الأربعة: ملك بينا ماكور، ملك ايريسيرا، صانع الحلوى ملك مادريغال، المشعوذ الكالبري). أوصلت هذه المحاولات ثلاثة منهم إلى المقصلة[350]. إن السيباستيانية بقيت أملا و طنيا حتى استرجاع استقلال البرتغال، ظلت الخرافة حية في ذاكرة العامة، انتعشت خلال الأوقات الصعبة التي اجتازها البرتغال طوال تاريخه، فقد بعث الانتظار الشعبي للملك خرافة «الملك المنتظر» عدة مرات[351]. و كان للشائعة الدور الأكبر في نجاح هذه الظاهرة التي استمرت لعقود طويلة.

الشائعة تعني الخبر غير المؤكد و الذي يتم تداوله على نطاق واسع داخل وسط اجتماعي قد يضيق أو يتسع حسب الحالات، وحين نحفر بعض الشيء في دلالات الكلمة داخل بعض الثقافات التقليدية، فإن الشائعة تحيل بشكل قدحي على العامة، والاختلال، والنميمة، والمرأة[352]. يجب استحضار دراسة أشكال الشائعات وأدوارها في مختلف المجتمعات التاريخية خصوصا أثناء الحروب، على سبيل المثال يمكن التذكير هنا بمثال معركة ايسلي، فالمغاربة حسب رواية الناصري «أحسنوا دفاع العدو و صدموه صدمة قوية»، غير أن سقوط المظلة عن الخليفة السلطاني، واختفائه عنهم بسبب تغيير زيه أدى إلى انتشار شائعة مقتله، فقد «قال المرجفون: إن الخليفة هلك فماج الناس في بعضهم البعض، وتسابق الناس إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه و تقاتلوا عليه، وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب ملك قلبه،

349. بيير بيرتي. معركة وادي المخازن. تعريب امحمد بن اعبود، خديجة حركات، احمد عمالك. النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة1، 1991م، ص71.

350. يونس نكروف. معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة. م.س. ص201/202.

351. بيير بيرتي. معركة وادي المخازن، م.س. ص74.

352. عبد الأحد السبتي. «الشائعة من منظور علم الاجتماع». قراءة في كتاب Philippe Aldrin, *Sociologie politique des rumeurs*، المجلة الالكترونية رباط الكتب، العدد التاسع.

وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة»[353].

استمرت ظاهرة السيباستيانية في الوجود إلى غاية القرن التاسع عشر بسبب الشائعات المغلفة بالطابع الديني [354]. فقد تحولت السيبستيانية بعد خفوت صيتها في البرتغال إلى أسطورة عابرة للحدود في التاريخ، تجاوزت المحيط لتصل إلى البرازيل وتنتشر لدى فئات واسعة من السكان في المدن المكتظة والقرى البائسة بها، وامتزجت بالتنبؤات والرؤى والأحلام والإعتقادات التي ساهم في رواجها «الأدب السيباستياني»[355]. ففي عام 1863م، وفي زاوية نائية من شمال شرق البرازيل (قرب بحيرة فيلاريكا) حدثت مجزرة «بيدرا بونيتا»، حيث أدى انتظار عودة قدوم دون سيباستيان إلى جنون جماعي، قَدَّمَ خلاله عدد من المؤيدين لفكرة عودة سيباستيان (كمسيح منقذ حامل لواء العدالة والسعادة في كل مكان) أنفسهم قرابين ضمن طقوس الموت الجماعي. انتعشت فكرة عودة سيباستيان مرة أخرى في ريو دي جانيرو سنة 1930م متزامنة مع أزمة توزيع المؤن[356].

نفس الشيء حصل في فرنسا بعد الثورة فيما يخص ظاهرة عودة البطل، فقد تزايدت نسبة المجانين الذين اعتقدوا أنهم نابليون بونابرت. تؤكد ذلك المؤرخة الفرنسية لورا مورا في دراستها الحديثة التي تتبعت فيها الآثار العميقة للحروب والمعارك و الثورات على التوازن النفسي و العقلي لأفراد المجتمع[357]. حاولت الباحثة في هذه الدراسة المثيرة للإهتمام الكشف عن العلاقة بين السياسة و الجنون. ما الذي يربط الثورات والإضطرابات السياسية بتنامي حالات الحمق والهذيان

353. لقد تنبه الناصري إلى دور الشائعة في هزيمة ايسلي.انظر: الناصري أبو العباس أحمد بن خالد. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.الدولة العلوية، القسم الثالث، الجزء التاسع، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956،ص52.

.Nicolas Offenstadt. *Histoire battaille. Historiographies.I. Concepts et débats*. Op.cit.p167/168.354

355. تَكَوَّنَ أدب سيباستياني هام جمعته المكتبة الوطنية في لشبونة تحت اسم «البابوية السيبستيانية». يضم العديد من القصائد الشعرية و الكتابات المتنوعة المصحوبة بتفسيرات ذات طابع تنبؤي، المليئة بأحاديث ورؤى صوفية امتزجت بأفكار غامضة اختلطت بتنبؤات مسيحية حول عودة المسيح الذي كان في نظرهم سيباستيان المخلص، إن ولادة السيباستيانية والشخصيات المزيفة للملك المقتول تعود إلى المؤرخ البرتغالي ميغل انتاس الذي أكد على فكرة كون المهزوم في القصر الكبير يمكن أن يكون على قيد الحياة بعد هزيمته. وأيضا إلى المؤرخ الاسباني دوهيريرا. أما الكتابات المغربية والإسبانية في أغلبها أكدت على وفاة سيباستيان في ساحة المعركة، وتحدثت عن تسليم السلطان أحمد المنصور جثه المشوهة (تعرف عليها بصعوبة بعض الأسرى المقربين منه) إلى خاله فيليبII ملك اسبانيا، حيث حملت الجثة إلى سبتة يوم 4 دجنبر 1578م، وحفظت هناك في تابوت بكنيسة الثالوث حتى العام 1582م، حيث طلب الملك فيليب الثاني نقله إلى كنيسة في بيليم. و في العام 1682م تمت إقامة ضريح رسمي لرفاته. راجع يونس نكروف م.س ص200.

356. للمزيد بشأن السيباستيانية يراجع: يونس نكروف. معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة.م.س.من ص195 الى ص247/ بيير بيرتي. معركة وادي المخازن.م.س. من ص71 الى ص74/. MIGUEL D'ANTAS, *les faux don Sébastian*, paris, 1866

Laure Murat *.L'homme qui se prenait pour Napoléon: Pour une histoire politique de la folie*. Editions .357 Gallimard (22 septembre 2011).

بين أفراد المجتمع؟ عثرت الباحثة بداية في الأرشيف الفرنسي على حالة رجل ادعى أنه نابليون بونابرت، فقامت برحلة طويلة استغرقت زهاء ثلاث سنوات من التحقيق والبحث في أرشيفات الطب النفسي ومحفوظات المصحات العقلية بباريس والضواحي لفترة ما بعد الثورة الفرنسية، وإلى غاية سبعينيات القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي تميزت بتصاعد حدة الإضطرابات السياسية وحالات العنف الدموي بفرنسا، وبالخصوص سنوات (1789-1871-1848-1830-1815). إنه قرن مليء بالإضطرابات السياسية الرهيبة.

مظاهر العنف و الشنق و الإعدام بالمقصلة في الشارع العام على مرأى من الجميع أذهلت الناس، إذ ساهمت بشكل مباشر في ارتفاع نسبة حالات الإنتحار والهذيان والجنون، خصوصا في صفوف أقارب الضحايا بسبب الأجواء الرهيبة التي صاحبت تنفيذ الإعدامات الجماعية. إن الخوف من الموت ومن الإعدام بالمقصلة انتشر بشكل سريع وسط فئات المعتقلين بسبب انتماءاتهم السياسية، وتَزَايدَ بسبب تصاعد حالات الإنتقام عقب الثورة، مما ساهم في ارتفاع حالات الجنون و الحمق. هناك إذن صلة وثيقة بين فقدان الرأس بمعناه الحقيقي(بالمقصلة) ومعناه المجازي (الحمق)، بل إن الهذيان أصاب حتى بعض المنتسبين إلى الأوساط الحكومية بسبب الرعب والخوف من المقصلة التي انتعشت بعد الثورة[358]. لم يتوقف الموت بقطع رأس الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري انطوانيت ولا بمقتل المقربين إليه من النبلاء و الإكليروس، بل امتد القتل إلى صفوف الثوار أنفسهم الذين انقسموا فيما بينهم، فماكسيميلين دي روبسبيير الذي عين أول رئيس جمهوري ثوري أَعْدَمَ حوالي 25 ألف بتهمة التآمر على الجمهورية الفرنسية في ظرف سنتين من حكمه، لكنه بدوره لم يَنْجُ من المقصلة التي سارت رمزاً من رموز الثورة الفرنسية[359].

اعْتُبِرَ القائد نابليون بونابرت في ذهنية العامة بمثابة المخلص و المنقذ الذي استطاع القضاء على حالة الفوضى والاضطراب التي عاشتها فرنسا ما بعد الثورة، الأمر الذي جعل منه شخصا محبوبا لدى الكثير من الفرنسيين، تَوَّجَ نفسه بعد القضاء على رعب

358.اعتبر فرانسوا فوريه أن الثورة الفرنسية جاءت بالخوف كما أن السحب جاءت بالعاصفة. انظر:
François Dosse, La Renaissance de l'Evénement, op.cit .p 16.

359.أطلق على فترة حكم روبسبيير التي دامت سنتين عهد الإرهاب، إتسمت قراراته بالشدة والقسوة، بدأ حكمه بالقضاء على كل من اعتبرهم «أعداء الثورة»، أعدم حوالي 7000 شخصاً في ظرف سبعة أيام فقط. تخلص من معظم زعماء الثورة الفرنسية و خصوصا الجيرونديين (الحزب الجمهوري المعتدل). سببت سياسة التشكيك التي نهجها الخوف لكل رجالات الدولة بمن فيهم الثوار من رفاقه الذين كانوا يخشون على أنفسهم من الإعدام في أية لحظة، فدبرت مؤامرة ضده من قبل بعض كبار أعضاء المؤتمر الوطني انتهت بالقبض عليه و تقديمه للمقصلة هو و أخوه اوجستان و بعض من أتباعه في 28 يوليو 1794م.

الثورة امبراطورا لفرنسا. اتجه بعدها إلى توسيع حدود الإمبراطورية الفرنسية على حساب الدول الأوربية، فاستولى على ايطاليا و البرتغال واسبانيا وبروسيا، وبذلك زادت شعبيته وأصبح في نظر شعبه قائدا عظيما و بطلا قوميا و مقاتلا شجاعا. عقب انهزامه في معركة واترلو في يونيو 1815م استسلم للإنجليز الذين نفوه إلى جزيرة سانت هيلينا التي ظل بها إلى أن توفي سنة 1821م بسبب سرطان المعدة الناتج عن تسممه البطيء بمادة الزرنيخ. تعاطف الفرنسيون بقوة مع نابليون بونابرت، ذكرتهم مأساته بقصة البطلة الأسطورية جان دارك. لاحظت لورا مورا في دراستها تنامي ظاهرة تعدد المرضى الذين اعتقدوا أنهم نابليون أو أبناء له (25% من المرضى بين انطلاق الثورة و أسر نابليون بونابرت إما تقمصوا شخصيته أو ادعوا أنه عائد، وحتى بعد وفاته هناك من ادعى أنه لم يمت)، إنه نوع من الهذيان التَّخَيُّلِي والجنون الثوري المرتبط بارتفاع حالة الحمق والذهان العقلي نتيجة الأحداث المأساوية و الاضطرابات السياسية العنيفة التي عرفتها فرنسا بعد الثورة. فحسب لغة الأرقام نفذت الثورة الفرنسية في مرحلتها الأولى أزيد من سبعة عشر ألف حكم بالإعدام العلني قطعا للرؤوس بالمقصلة في مجموع البلاد.

هكذا تمّ إقحام تاريخ الحروب و المعارك و الثورات بهذا النوع من الدراسات المجددة في مجموع التساؤلات الإسطوغرافية المعاصرة، هذا ما نلاحظه بشكل بارز لدى المؤرخ بيير نورا أيضا في مُؤَلَّفِهِ «أماكن الذاكرة». نحن الآن كما يوضح دوس في فترة عودة تأويلات الحدث، لقد انتقلنا من مجرد الاهتمام إلى دعم هذه الطريقة الجديدة في تناول الحدث، إنه منعرج في الكتابات التاريخية في نهاية القرن العشرين، فالعديد من الكتابات ازدهرت في هذا الميدان ومنها العمل المتميز الذي صدر سنة 2000م بعنوان الذاكرة، التاريخ، النسيان، يثير فيه بول ريكور دور الذاكرة والكتابة حاملة الهوية الحكائية في العمل التاريخي.

منذ الدراسة المؤسسة لجورج دوبي تزايد الاهتمام بالحدث، وهو الأمر الذي نستشفه من خلال عودة سلسلة «الأيام التي صنعت فرنسا» برعاية مؤسسة غاليمار، وأيضا من خلال المساهمة المتميزة للعديد من المؤرخين المشهورين في مشروع مكتبة «التواريخ الكبرى لتاريخ فرنسا» التي يشرف عليها الان كوربان. من جهة أخرى خاض بيير نورا تجربة مشروع «أماكن الذاكرة» والذي يمكن النظر إليه على أنه استعادة لمعنى. إن فكرة الأثر هي الفكرة الأساسية التي تستند إليها هذه الكتابة التاريخية، سواء أكانت مادية أو معنوية، فهي المحرك الأساس في مشروع بيير نورا. إنه عبء ثقيل يهدف إلى وصل الماضي بالحاضر عبر إعادة ترتيب الزمن بواسطة

آثاره التذكرية، يرى بيير نورا في ذلك شكلا من أشكال القطيعة الجديدة في كتابة التاريخ والتي يمكن تسميتها بإعادة رسم التاريخ، وقد شرح فرانسوا هارتوغ بشكل أكثر تفصيلا هذا الأمر في كتابه تدابير التاريخانية.

يدعو جورج دوبي المؤرخين إلى زيارة الماضي بشكل مختلف انطلاقا من الآثار التي تركتها في الذاكرة الجماعية الأحداث والرجال والرموز وشعارات الماضي. إنها لعبة استرجاع الأحداث، فليس المهم الأعمال المحفورة في الذاكرة، ولا حتى تلك التي نسترجعها في عملية التذكر، بل أثر تلك الأعمال ولعبة استرجاعها، ليست الأحداث في حد ذاتها هي الغاية وإنما بنيانها في الزمن، اندثار معانيها وانبعاثها، وليس الماضي كما حصل ولكن إعادة توظيفه الدائم والتخلي عنه، ومدى الضغط الذي يمارسه على أزمنة الحاضر. جورج دوبي واحد من الذين أعادوا للحدث وهجه، فكتابه ليس مجرد رواية للمعركة، و إنما يتناول الحرب والمجتمع في العصور الوسطى. تاريخ الحدث كما تناوله يتيح الوصول إلى استنتاجات تتعلق بتاريخ القرون الوسطى، ليس الهدف الترويج للحدث، و إنما الهدف منه التعرف على آثاره ونتائجه و تقييم تأثيراته في أذهان الناس[360]. يُوَلِّدُ هذا الطموح مفهوم أماكن في الذاكرة، والتي لا تَشْمَل في نهاية المطاف الأحداث، وإنما الأماكن و المباني والنصب التذكارية، إنه تتبع للهوية الوطنية و مدى استمراريتها من خلال تعاقب الأجيال.

إن عودة الحدث كما وضحها فرانسوا دوس بدأت تتحقق تدريجيا على أرض الواقع، وهي عودة محمودة، وليست عودة بسيطة للمواضيع التقليدية لمرحلة ما قبل الحوليات، حيث كان الحدث يسجل ضمن منطق خطي غائي. إن الأمر ليس ارتدادا ونكوصا إلى الوراء، بقدر ما هو تجديد في طريقة التناول بشكل جذري، فالحدث الذي عاد ليس الحدث الذي تم نبذه سابقا مع المدرسة المنهجية.

فرانسوا دوس في كتابه الجديد يميز عن قصد بين كلمتي العودة والانبعاث، فهو يعتبر الإهتمام الجديد بالحدث كانبعاث وليس كعودة. إنه يصر على أن الأمر يتعلق بإعادة اكتشاف عوض عودة بروز، وبهذه الطريقة فإنه يختلف ويتميز عن التشخيص المشهور الذي قدمه بيير نورا لعودة الحدث سنة 1974م في المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه إلى جانب جاك لوغوف وجاك روفيل، وهو مقال سبق أن نشره سنة 1972م بعنوان الحدث الوحش. بالنسبة لبيير نورا جاءت خلاصاته تحت وقع حدث ماي 1968م، هذه الثورة الطلابية الشبابية التي عاشها العديد من المفكرين والمؤرخين

360. هناك فرق بين الحدث عند وقوعه والحدث المنحل في آثاره، الحدث المثقل بكل سوابقه ولواحقه ليس هو الحدث نفسه عند وقوعه حسب عبد الله العروي. راجع مفهوم التاريخ .م.س. ص 75/76.

الفرنسيين كشهود عيان كان لها تأثير كبير عليهم. في نظر بيير نورا ليس المؤرخون من قاموا بإعادة الحدث و لكن وسائل الإعلام.

فرانسوا دوس ينحو منحى مغايرا، فقد قدم في دراسته انبعاث الحدث كعودة تعدد واختلاف، مستعيرا هذا التعبير من الوصف الذي يوسم به الفيلسوف جيل دولوز (فيلسوف الاختلاف)، فمن تحولات الحدث بين الأمس واليوم يرسم فرانسوا دوس جينيالوجيا الحدث من خلال تتبع دقيق لمعاني الكلمة وتطورها منذ الإغريق إلى الآن. يبين بشكل واضح أن الحدث الذي صرعته الحوليات أرضا بالضربة القاضية في بداية نشأتها هو الحدث التبخيسي الذي كان يسجل ضمن منطق التاريخ الموجه، أما الحدث الذي عاد فإنه أصبح معيارا أو أثرا دالا ، إن الحدث الذي عاد إلى الساحة لم يعد كما كان.

تغيرت مهمة المؤرخ في الفترة الحالية، الأمر أصبح مختلفا عما كان عليه في القرن التاسع عشر، لم يعد المؤرخ يبحث عن القوة المتسببة في الحدث لوضعه بشكل محدد في صيرورة تاريخية معينة، بل يقوم بإعطائه قيمته الإشعاعية عبر تتبع أصدائه على المدى البعيد، فما هو الحدث الذي عاد إذن؟ وما هي طبيعته؟ السؤال الرئيسي الذي تبرزه قراءة فرانسوا دوس ليست فقط معرفة لماذا عاود الحدث الإنبعاث والظهور من جديد، و لكن التساؤل عن ماهية من عاد تحت مسمى «حدث»، بصيغة أخرى إن طبيعة الحدث هي موضوع السؤال، لأن تعدد الإجابات عن سؤال ماهية الحدث هي التي تشرح مرونة استعمالات كلمة الحدث.

أي المعاني أعطيت للحدث المعاصر و كيف قدمته الكتابات و الأبحاث الحالية؟، لا ينبغي أن نبحث عن أسباب الحدث و لا تشخيص نتائجه الآنية، أبدا ليس هذا هو الهدف، مع رؤية ميشيل دو سيرتو «الحدث ليس أن نرى أو نتعلم منه، ولكن هو ما يؤول إليه. إن من أهم ما كتبه ميشيل دو سيرتو بسرعة في خضم حدث ماي 1968م عبارته الخالدة السابقة الذكر «الحدث ما يؤول إليه». ما يهم هنا ليس الحدث في حد ذاته، وليس الحدث كما رواه المؤرخون والكتاب وقدمه الإعلاميون، وإنما تكمن الأهمية في صداه كما عبر جان لاكوتور، في النتائج والآثار المترتبة عنه، هذا هو أكبر تحول جديد عرفه الحدث، والذي بفضله لا يمكن الحديث عن عودة بسيطة للحدث بالمعنى القديم للمصطلح، ففي حين كانت العادة في السابق إعطاء القيمة لما قبل الحدث الآن الأهمية أصبحت لما بعد الحدث[361].

باعتبار الحدث ما سيؤول إليه يجعل من غير الممكن التحكم في مآله وامتداداته،

.François Dosse *la Renaissance de l'Evénement*. .op.cit .p1/6.361

فالحدث هو في حركة دائمة، ولا يمكن أبدا تحديده أو ضبطه لأنه مُلَغَّز لا يُفَكُّ سِرُّه. وليس هناك أجمل من تعبير ميشال فوكو الذي انتبه إلى وجود الحدث في كل مكان، والذي قال بشأنه: إنه ليس وحدة قارة يمكن تحديدها بدلالة واحدة في إحداثيات زمكانية، قبل أن يقترح تعريفه الخاص و المميز «الحدث هو دائما تشتت، تعدد، هو ما حدث هنا وهناك، إنه متعدد الرؤوس»[362]. اعتبر فوكو أيضا أن المؤرخ في ثوبه التقليدي كان يتعامل مع الحوادث المعطاة أمامه، مهمته لم تكن سوى الوصل والربط وفقا لقوانين الترابط كعلاقات العلية أو الصراع مثلا بين الحوادث، أما الملمح الجديد للكتابة التاريخية فهو الاهتمام بفرادة الحدث، وتعيين حدوده وتفريده بزمن مخصوص[363].

نعيش حاليا عودة محتفى بها للحدث. إنها عودة مدمرة تطفو على السطح من جديد. إننا نعيش أكثر من مجرد عودة بسيطة، نحن نعيش عملية إحياء الحدث وعودة الاختلاف من جديد، لقد أصبح الحدث يشغل باستمرار المهتمين، هناك تساؤل متجدد حول الحدث و نتائجه، فالحدث يقتحمنا بشكل مباغت، و وراء كل بداية للحدث يكمن دائما و باستمرار شيء خفي يصعب علينا تملكه و إحكام القبضة عليه، إن الأحداث تختفي لكنها لا تموت بشكل نهائي، هناك أحداث كبرى شهدها التاريخ أصابت طبقاته الجيولوجية بتصدع و انشقاق[364].

نشهد اليوم خصوبة توليد الأحداث في زمن الإعلام المتنوع، إنها ولادة لنظرة جديدة، وذلك بالانتقال من أسبابه إلى أثره، هذا التجدد الكبير يغير جذريا علاقاتنا مع الحدث وذلك بإعادة إحيائه، لا نتحدث عن عودة بسيطة للحدث بمعناه القديم بعد الكسوف الطويل الذي شهده في العلوم الإنسانية، فالعودة مثيرة ومحتفى بها، و هي ليست عودة غامضة كما عبر جاك لوغوف، ولا علاقة لهذه العودة بمفاهيم وأفكار النظرة التقليدية للمدرسة التاريخية المنهجية للقرن التاسع عشر، إنها ليست عودة للحدث المعطر في كفن قديم، فالحدث المعاصر تدشين لمرحلة جديدة في الخطاب التاريخي، إن الأمر ليس مجرد تقليد أو استنساخ أو اقتفاء لأثر ما اندثر في السابق.

لقد ازدهر خطاب تاريخي جديد يمثل قطيعة مع إرث الحوليات، تزعمه جيل من المؤرخين من داخل وخارج التاريخ الجديد ما زالت خطوطه الرئيسية لم تتبلور

.Floriane Louis. Public sur Acte Le 31 Juin 2011.Op. Cit.362

363. عبد الرزاق بلعقروز. «في استمداد فوكو من نيتشه تجنب إسقاط المعنى على المعرفة التاريخية». مقال سابق. ص214.

364. ميشيل فوكو. حفريات المعرفة. ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ص28.

بشكل كامل، أقواها التيار الذي يعتبر أن نهضة الخطاب التاريخي تمر عبر بعث ما رفضته الحوليات منذ البداية، والمقصود الحدث الذي قاد إقصاؤه التاريخ على درب الانحلال. بالطبع بالنسبة لدُوسْ وغيره، لا مجال إلى العودة للتاريخ الوقائعي بمفهوم لافيس، و إنما الهدف السعي إلى بعث الحدث الذي له معنى مرتبط بالبُنَى التي جعلته يكون ممكنا ومصدرا للتجديد. تتقاطع رؤية فرانسوا دوس مع نظرة مارسيل غوشي من حيث الدعوة إلى إعادة تقييم دور الفاعل الفردي وتناول السياسي كمستوى شامل للتنظيم الاجتماعي. وكل هذه الاقتراحات تسعى إلى وضع قطيعة تامة مع باراديگم النموذج البنيوي المتراجع[365].

إن نهضة الكتابة التاريخية لن تبدأ إلا مع الاعتراف بالحدث، ومن خلال الاقتراب أكثر من التاريخ اليومي كما عاشه الناس العاديون، إعادة الاعتبار للحدث لبنة أساسية في بناء صرح التاريخ من جديد، فلكي يعود التاريخ من جديد علم التغيير لابد أن يقطع مع الخطاب التاريخي الجامد لمدرسة الحوليات[366].

لمدة طويلة أقصي الحدث من ميدان التاريخ والعلوم الاجتماعية. مداخلة كروبلييه سنة 1965م في برنامج ملتقى التاريخ الاجتماعي الذي عقد في سان كلو اعتبرت تمجيدا للحدث، قيل آنذاك أن محاولته ليست سوى مرافعة دفاعية عن قضية خاسرة. وعندما أعلن بيير نورا عشر سنوات بعد ذلك في الكتاب الجماعي صناعة التاريخ عن عودة الحدث، فهو ليسجل بوصفه مؤرخا للعصر الحاضر عنف الحدث الذي يفرض نفسه من دون مناقشة، تفرض الأداة التقنية بصورة متسلطة ومستبدة الحدث حسب جان لاكوتور. و يزداد الحدث ضخامة من خلال المبالغة التي تضيفها عليه وسائل الإعلام، إنها تجسيد للفكرة-القوة التي تتحول إلى واقع مادي عندما تجتاح الجماهير بحسب الفكرة الشهيرة لماركس[367].

الكتابة التاريخية للحوليات بنت تفوقها على محو الحدث وإلغاء أهميته. والعلوم الاجتماعية الأخرى بدورها واجهت الحدث بنوع من الريبة والشك. فهل نعيش اليوم تحت نظام عودة الأحداث، تتساءل مارتن فورنيي؟ الواقعة التي تجعل الحدث يبزغ اليوم هي الواقعة التي تحرر في لحظة واحدة وفجأة شهابا من الممكنات كانت إلى حد قريب غير متصورة: هجوم 11 شتنبر، هروب رئيس دولة، نجاح ثورة

---

365. عبد الأحد السبتي- محمد حبيدة، «ما بعد التاريخ الجديد». قراءة في كتاب فرانسوا دوس، التاريخ المفتَّت. من الحوليات إلى التاريخ الجديد، مجلة رباط الكتب الإلكترونية، العدد التاسع.م.س.

366. فرانسوا دوس. «التاريخ المفتت» . م.س.. ص377/378.

367. ميشيل فوفيل. «التاريخ و الأمد الطويل». م.س. ص178.

عربية، مقتل زعيم عربي متجذر في السلطة. الحدث المهم يظهر كبداية لمرحلة جديدة مختلفة.

إن حدث مثل هجمات 11 شتنبر 2001 م كانت لها مضاعفات ممتدة، وبعض الأحداث الأخرى كسقوط جدار برلين حملت تغييرات كبرى لمجتمعات وأنظمة بأسرها، نفس الشيء ينطبق حاليا على الثورات العربية. هذه الأحداث العملاقة اليوم تشكل موضوعات آنية وفورية لوسائل الإعلام، تصبح موضوعات لتناولات متعددة وأحيانا متناقضة، إن هذه الأحداث أضحت «وحشية» توجه تاريخنا الحاضر، و هي بذلك تطرح نفسها بقوة على نقاشات المؤرخين. لقد ساهم تزاحم وسائل الاعلام الكبرى على الأحداث التي تشغل الرأي العام في هذه العودة، إنه اكتساح كبير للحدث، وهو ما أفرز ردة فعل مدرسة الحوليات التي انبرت تدافع عن نفسها ثانية أمام دكتاتورية ما هو وقائعي. فعادت لتؤكد من جديد نبذها المطلق لعودة الحدث ما دام أن هذا الأخير معطر في كفن قديم[368].

مجال التاريخ في السابق كان فقط الماضي، فالتاريخ لا يولد بالنسبة لعصر إلا عندما يموت نهائيا. اليوم وبفضل قوة وسائل الإعلام أصبح الآني المعاش يُفرض «كتاريخ حاضر لا يكف عن الإحتراق في الراهنية» كما عبر فرانسوا هارتوغ[369]، فالحدث المعاصر يمر بشكل فوري ومباشر حتى قبل اكتمال صورته، لدرجة أن الحاضر بدأ يأخذ مكان الماضي و يفرض علينا مزيدا من المعاش. فالأحداث تواجهنا بقوة أينما اتجهنا. فعن طريق وسائل الإعلام وعبرها يواجهنا الحدث. نتابع ونشاهد يوميا نماذج من الأخبار والوقائع وهي تقع على الهواء مباشرة، لدرجة أن المواطن أصبح يعيش تحت وقع ضغط الأحداث المباغتة، إنه زمن متابعة الحدث في زمن عصر الصورة إلى أبعد الحدود، فبفضل آلات التصوير المتطورة، وفي ظل التنافس القوي بين القنوات التلفزيونية، وعبر فضاء الأنترنيت الحر شاهدنا أحداثا مفاجئة ومباغتة، صور حية تعرض على الفضائيات لاحتراق مبنى التجارة العالمية بنيويورك، بعدها بقليل شاهدنا بشكل مباشرة الطائرة الثانية و هي تصطدم بالبرج الثاني أمام دهشة وذهول الجميع، هذا ما تكرر أيضا تحت عدسات الكاميرا في أحداث الثورات العربية التي لم يكن يحلم بها أو يتصورها أحد، إن وسائل الإعلام المختلفة وتقنيات الاتصال الجديدة تقحم المشاهد في ميدان الحدث، وتشعره بأن التاريخ لا يكتب بعد

368. جان لاكوتور. «التاريخ الآني». مقال منشور ضمن المؤلف الجماعي. التاريخ الجديد، إشراف جاك لوغوف ص397.

369. فرانسوا هارتوغ. تدابير التاريخانية.ص43.تناول المؤلف في هذا الكتاب بالدراسة نشأة نظام وتدبير جديد للتاريخ قوامه الحاضرية وتاريخ الراهن.

حين، بل يشاهد وهو يقع الآن في الحاضر. هذا ما حصل مع 11 شتنبر 2001م، وحرب الخليج الثانية، وحرب أفغانستان، وثورات تونس ومصر وليبيا و اليمن، و مازال يحصل بالنسبة لثورة سوريا[370].

إن وسائل الإعلام اغتصبت التاريخ و جعلت الحدث وحشيا، ليس لأنه حسب تعريفه يخرج عن العادة، لكن لأن التأثيرات الداخلية للنظام تؤول إلى إنتاج تأثيرات حسية، صناعة دائمة للجديد، تغذية مستمرة للأحداث، ليس بالنسبة للمؤرخ بيير نورا الحدث العصري سوى حدث وحشي، فنزول الإنسان إلى القمر ورحيل دوغول هي أحداث وحوش تكررت وستتكرر دائما وبشكل دوري، لأن وسائل الإعلام تتعقب مثل هذه الأحداث وتسلط عليها الأضواء[371]. وسائل الإعلام هي إذن من أعادت للحدث نضارته، فالحدث المعاصر اكتسح وسائل الإعلام بجميع أنواعها، إنه الديكتاتور الجديد الذي فرض نفسه بالقوة[372]. حياتنا أصبحت مشبعة بوسائل الاعلام ووسائل الاعلام مشبعة بالسرد، هذه الفكرة أوردها الفيلسوف ميشال دو سيرتو في كتابه الحياة اليومية قائلا «منذ الصباح حتى الليل يملأ السرد على الدوام الشوارع والمباني، إنه يعرب عن وجودنا وذلك بتعليمنا ما يجب أن يكون.إن السرد يغطي الحدث أي أنه يصنع أساطيرنا (ما يجب أن يقرأ ويقال) من الحدث، بمجرد أن يستيقظ المستمع تستحوذ عليه الإذاعة. ويمشي طوال اليوم في غابة من سرديات الصحافة، والاعلانات، وسرديات التلفزيون، والتي لا تزال تجد متسعا من الوقت بينما يستعد الفرد للنوم لتمرير رسائل نهائية قليلة تحت بوابات النوم حتى أكثر مما قاله علماء الدين في قديم الأزمان عن الله[373].

ربط بيير نورا بين وسائل الإعلام والأحداث، فالعلاقة بينهما تبدو قوية وشديدة إلى درجة تبدو معها غير قابلة للانفصال، ووسائل الإعلام هي الفضاء الأفضل والملائم لنقل التاريخ الآني، تجعل الحدث أكثر جماهيرية وديموقراطية. اعتبر بيير نورا أن أول بروز للحدث المعاصر في زمن المجتمعات الصناعية يعود إلى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر مع قضية درايفوس الشهيرة التي هزت الجمهورية الفرنسية، وأحدثت انقساماً كبيراً في المجتمع الفرنسي سنة 1894م. هذه

370.عبد الأحد السبتي.الشعوب العربية وعودة الحدث. عرض قدم في المائدة المستديرة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتعاون مع معهد جاك بيرك في 15-3-2011م حول الأوضاع الراهنة في العالم العربي.ونشر في جريدة أخبار اليوم 6/4/2011م.

371. Pierre Nora. *Le retour de l'événement. Faire de l'histoire. Nouveaux problèmes*. Sous le directeur de jacques le Goff et Pierre Nora. Gallimard. p215.

372. جان لاكوتور .«التاريخ الآني». ص395/370.

373. ارثر اسا بيرغر .وسائل الاعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. م.س. ص157.

القضية التي شغلت الرأي العام الفرنسي أخذت كل شيء من الاعلام وأعطته كل شيء، ومثل ما خلقت قضية درايفوس الذي اتهم بالخيانة والعمالة للألمان ضجة في الوسط السياسي والثقافي الفرنسي، احتلت قبل سنوات من الآن أطوار محاكمة عمر الرداد اهتماما مشابها، فقد خصصت لها الجرائد والمجلات الفرنسية الصفحات الأولى، وتابعتها بكثافة القنوات التلفزيونية، وتدخلت أيضا دور النشر على الخط، فصدرت كتب منقسمة بشأنه. فهناك من عده مجرما وهناك من دافع بقوة عن براءته، بل هناك من ذهب إلى وصف محاكمته بالعنصرية، وهو ما عبر عنه صراحة المحامي الشهير «جاك فيرجيس» في إحدى مرافعاته الدفاعية عن المتهم، فقد قارن بين محاكمة البستاني عمر الرداد والضابط ألفريد درايفوس قائلا «أدين الأول لأنه يهودي ويدان الثاني لأنه عربي». ورغم أن هذا الأخير قد تم العفو عنه بقرار رئاسي بعد أن قضى سبع سنوات في السجن من محكوميته البالغة ثمانية عشر سنة، فإن القضية لم تنتهي بعد، فعمر الرداد ومعه الكثير من المثقفين الفرنسيين وعلى رأسهم الأكاديمي جان ماري روارت (أصدر كتابا في الموضوع) طالبوا بإعادة المحاكمة. وقد عاد هذا الحدث إلى الواجهة من جديد بعد أن تحول إلى عمل سينمائي شهير بعنوان «عمر قتلني»، وهي العبارة التي وجدت مكتوبة بجانب الضحية. فهل ستنجح هذه الجهود في تهيئة الرأي العام الفرنسي لقبول إعادة محاكمة عمر الرداد مرة أخرى كما نجحت في السابق جهود المثقفين الذين التفوا حول الضابط درايفوس وطالبوا بفتح تحقيق جديد في قضيته؟[374].

الحدث أصبح اليوم معاشا بفضل التطور الهائل الذي عرفته وسائل الإعلام و الإتصال، فسرعة انتشار و إعادة انتشار الأحداث من الأسباب التي ساهمت في تحولات الحدث. تضاعفت وتيرة صناعة الأحداث في زمن وسائل الإعلام إلى درجة كبيرة، فهي لا تكف عن إنتاج واستهلاك الحدث، و مع ذلك فإن ما تعرضه من المعلومات و التعليقات و المناقشات و الوثائق و الشهادات لا تستطيع أن تفك الغموض الذي يحيط بالحدث، فالحدث لا يُعطَى أبدا في حقيقته العارية، و إنما يتم إنتاجه إعلاميا، فليس للحدث معنى داخل الفراغ، لذلك ينبغي تحديد الإطارات التي تعطيه معنى سواء بالنسبة لعلماء الاجتماع أو الانتربولوجيين أوالمؤرخين،

374. من أشهر المثقفين الذين دافعوا عن درايفوس الكاتب والروائي إميل زولا الذي كتب مقاله الشهير «إني اتهم» مندداً بالقضاء الفرنسي الذي أقر حكم الإدانة على درايفوس، وقد جمع توقيعات متضامنين آخرين نشرت تحت اسم بيان المثقفين، فلم يكن أمام الحكومة إلا الإذعان لإعادة محاكمته سنة 1898م، لكنه لم يحصل على البراءة بصفة نهائية إلا سنة 1902 عندما قررت محكمة النقض ذلك، وأمرت بعودته الى عمله السابق، وقد رقي بعد ذاك إلى رتبة مقدم، كما شارك إلى جانب القوات الفرنسية في الحرب العالمية الأولى.

وضع الحدث في المقام المناسب يمكن أن تبين أن الحدث ليس في حقيقته ظهور ما كان مختبئا أو خفيا، هذه المقاربة يمكن أن تزيح حقيقة الحدث بعرض كيف أنه يمكن أن يكون فقط نتيجة اختراع، أوعلى الأقل مشكوكا فيه. بالنسبة للفيلسوف جيل دولوز «الأحداث مثالية»، هذا يعني أن التمييز ليس بين نموذجين من الأحداث، إنه بين الحدث بطبيعته المثالية وتجلياته الزمكانية[375].

هل كان بالإمكان مثلا أن تنجح الثورات العربية لولا الزخم الإعلامي الكبير الذي فرضته على الأحداث القنوات الفضائية و مواقع التواصل الاجتماعي؟ ما الأدوار التي قامت بها الأجندة الإعلامية ؟ هل قناة الجزيرة هي السبب في حدوث الثورات العربية كما يشاع؟ ما مدى حيادية الإعلام العربي أثناء التعاطي مع الثورات العربية؟ هل شاركت المحطات التلفزيونية في الثورات العربية من خلال طريقة تغطيتها ؟ كيف ساهمت شبكات الإعلام في صنع الحدث الآني؟

لم يكد يمض شهر كامل عن اللحظة التي أضرم فيها محمد البوعزيزي النار في جسده حتى وجد الرئيس التونسي زين العابدين بن علي نفسه خارج السلطة. لم يتصور أحد أن هذا الفعل الفردي الذي حدث في بلدان مجاورة سابقا ستكون له كل تلك الآثار على تونس والبلاد العربية. من كان يتصور أن قائدا عربيا بإمكانه الفرار من بلد حكمه سنوات عديدة بقبضة حديدية. من كان يظن أن الثورة ستنتقل بتلك السرعة الفائقة إلى بلدان مجاورة لتطيح بأنظمة عتيقة في كل من مصر و ليبيا واليمن. وما زال شبح الخطر يتهدد إلى اليوم أنظمة الحكم في سوريا والبحرين حيث الانتفاضات مازالت متواصلة.

انتقلت عدوى الثورة في الوطن العربي كالنار في الهشيم، وسط تغطية إعلامية مكثفة و موجهة، ما أطلق على تسميته الربيع العربي مَثّل انتفاضة جماهيرية قوية قامت فجأة ضد أنظمة قمعية ظنت نفسها سرمدية، ثورات أطاحت برؤوس كبيرة لزعماء ورؤساء دول حكم معظمهم أزيد من أربعين سنة. حدثت هذه الثورات المتتابعة بغتة بعد عقود طويلة من الفساد و الظلم و القهر و الاستبداد ويأس الشعوب، هذا الإنتشار السريع والمذهل عائد في جزء منه إلى الفورة التي عرفها الإعلام العربي. لا أحد ينكر أن انبثاق مجموعة من القنوات التلفزيونية خلال العقدين الأخيرين إلى الوجود كان له تأثير كبير على المشاهدين في المنطقة العربية. لا أحد بإمكانه أن يشكك في الدور الذي قامت به المحطات التلفزيونية في دينامية الثورات العربية. ولا

375 Alban Bensa et Eric Fassin. *Les sciences sociales face à l'événement*. Terrain. Revues. Org.2002. p3/4.

شك أنها عندما ستكتب في المستقبل سيكون موضوع دور وسائل الإعلام والشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الإجتماعي حاضرا.

وظفت القنوات العربية و على رأسها قناة الجزيرة و منافستها قناة العربية كل إمكانياتها و خبرتها للتأثير على مجرى الأحداث، لم يكن الرهان الإعلامي وحده المتحكم في تغطيتهما، بل كان الرهان السياسي محوريا. الدور السياسي الذي قامت به قناة الجزيرة و قناة العربية تجلى بوضوح في تغطيتهما لثورات مصر و ليبيا و اليمن وسوريا، فالدعم كان واضحا لثورة الشعب المصري ضد نظام حسني مبارك، ونفس الشيء ينطبق على الثورات في ليبيا واليمن وسوريا، الإنحياز الذي لاحظناه بشكل مطلق لحركة الشارع في هذه البلدان لم ينطبق بتاتا على التغطية التي قامت بها القناتين للاحتجاجات التي جرت في البحرين مثلا[376]. بالتأكيد لم تكن تغطية هذه القنوات محايدة في التعاطي مع الثورات العربية، أيضا نحن بدورنا ومن موقع المتابعين للأحداث لم نكن محايدين البتة، فالحدث المباشر الذي تابعناه سبب لنا انفعالات عابرة وقوية.

كيف استطاعت دولة قطر الخليجية ذات عدد سكاني لا يتجاوز المليون نسمة، ورقعة جغرافية صغيرة لا تتعدى اثنا عشر ألف كلمتر مربع، أن تصبح فجأة وفي ظرف وجيز ذات وزن و تأثير على مسرح الأحداث في المحيط الدولي و الإقليمي؟ يعود الفضل في ذلك بالإضافة إلى الثروة النفطية إلى قناة الجزيرة التي يتحكم فيها حكام قطر بشكل، كامل، وذلك من خلال الإمكانيات المالية الضخمة التي تُرْصَدُ لها. بفضل الذراع الإعلامي القوي أصبح لدولة قطر وجود مؤثر، يصعب تصور مكانة ما لهذه الدولة الصغيرة الحجم دون هذا الدرع الإعلامي القوي الذي أصبحت بعض نشراته تفوق في تأثيرها قوة أسلحة الدمار الشامل في حالة توجيهها ضد نظام أو دولة ما، فتغطيتها لثورة ما تعني الرفع من حظوظ نجاحها، والتعتيم عليها إعلاميا يشكل سببا حقيقيا لفشلها، ويكفي المقارنة بين التستر الذي مورس على حركة المعارضة بالبحرين وبين مصر وليبيا اللتان وضعتا تحت مجهر الضوء

376. اعتبر محمد أحمد محمد أبو الرب في كتابه الصادر مؤخرا قناة الجزيرة حارسة بوابة قطر، لاحظ كما لاحظنا جميعا تجاهلها تغطية الشأن الداخلي القطري على عكس ما تفعله مع غالبية البلدان العربية، قدم مثالا عن غياب تغطيتها لانتهاكات حقوق الإنسان في قطر حينما تم سحب جنسية 5200 شخص من أفراد عائلة آل الغفران اكتوبر 2004م، إلى جانب تسريحهم من وظائفهم وسجن بعضهم. السبب كان قيام بعض الأفراد العاملين في الشرطة من هذه العائلة بمحاولة انقلابية لإعادة الأمير جاسم بن خليفة إلى الحكم، في حين تبرر السلطات القطرية اجراءاتها بازدواجية الجنسية لدى العائلة. راجع: محمد أحمد محمد أبو الرب.الجزيرة وقطر. خطابات السياسة وسياسات الخطاب.افريقيا الشرق، 2012، ص205.

على مدار الساعة[377].

عقب الثورة المصرية تداول المصريون نكتا كثيرة انتشرت على نطاق واسع، ومن أهمها تلك النكتة التي تتحدث عن التقاء رؤساء مصر السابقين: جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسني مبارك بعد الموت، فسأل بعضهم بعضا عن أسباب سقوطهم، أجاب عبد الناصر سقطت «بالسم»، وقال السادات سقطت «بالاغتيال»، أما مبارك فأجاب سقطت بسبب قناة «الجزيرة». ترمز هذه المزحة المصرية إلى الدور الفعال الذي قامت به وسائل الإعلام، فقناة الجزيرة بلغت الذروة في دعمها الصريح للثورات العربية و بالخصوص الثورتين المصرية والليبية، انخرطت الجزيرة بشكل كامل في تغطية حية ومباشرة للأحداث من خلال التركيز على الحشود الكبيرة من الجماهير التي اندفعت إلى الشوارع والساحات مطالبة بتنحي الأنظمة الحاكمة عن السلطة، تغطيتها المستمرة وحماستها في نقل الأخبار كانت أشبه بالتعبئة منها إلى نقل المعلومات و الوقائع، شاهدنا توقف البرامج العادية بشكل نهائي في هذه القناة، ونفس الشيء بالنسبة لقناة العربية ذات التمويل السعودي، تحولت استوديوهات القناتين إلى ورشة عمل تستقبل على مدار الساعة محللين سياسيين وخبراء عسكريين ومعارضين من الداخل والخارج على الهواء مباشرة، كان الانتقال الفجائي والسريع من ثورة إلى أخرى بسبب دور وسائل الإعلام والتواصل الإلكتروني.

لا أحد ينكر الدور الإيجابي الذي تقوم به وسائل الإعلام في نقل الأخبار والمعلومات، عن طريقها وعبرها يواجهنا الحدث بشكل يومي، فالإخبار بالواقعة هو الذي يمثل الحدث. هناك وقائع رئيسية قد تحدث و لا نهتم بها، فكونها وقعت يجعلها فقط تاريخا، و لكي تصبح أحداثا يجب أن تُعرف[378]، المؤرخون لعبوا دور الاشبين (parrain) فهم الذين لهم القدرة على تحويل أحجية أو وقائع إلى حدث تاريخي. الحدث ينتظر اشبين وضامن وواسطة للمرور إلى خانة التاريخ، يحتاج إلى كفيل، تتحول الواقعة إلى حدث تاريخي بعد أن تمر عبر هرم للرقي في الأهمية[379]، وسائل الإعلام اليوم هي من تقوم بالدور الذي كان يقوم به المؤرخ في السابق، ونقصد تحويل الوقائع إلى أحداث. الحدث المعاصر لم يكن ليوجد لولا وسائل الإعلام التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من الواقع اليومي المعاش.

نأخذ على سبيل المثال أكبر وأعنف مآسي العنف الكروي التي حدثت في العالم

377. حسين مجدوبي. «كيف استطاعت قطر أن يصبح لها دور على مسرح الأحداث بفضل ذراعها الإعلامي الجزيرة»، مقال بجريدة أخبار اليوم العدد 441 بتاريخ 2011-05-11. ص16.

378. Pierre Nora. *Le retour de l'événement*. Op.cit.p212.

379. François Dosse. *La renaissance de l'événement*. Op.cit. p6.

كنموذج، في روسيا وقبل 30 سنة من الآن، حدثت مأساة في أحد ملاعب كرة القدم بموسكو خلفت 340 قتيلا وحوالي 1000 جريح، هذه الكارثة التي وقعت في20 اكتوبر من سنة 1982م لم يعلم بها أحد بما في ذلك لاعبو الفريقين. عدد قليل من مسؤولي الدولة كانوا يعلمون بالفاجعة، لقد ظل هذا الحدث الذي وقع مجهولا إلى أن كشفته الصحافة الروسية سنة 1989م بعد انهيار الاتحاد السوفياتي استنادا إلى الأرشيفات السرية. فالمباراة التي جمعت بين فريقي سبارتاك الروسي وهارلم الهولندي برسم إقصائيات كأس الاتحاد الأوربي لكرة القدم شهدت مأساة كبرى. فقد بدأ الجمهور بمغادرة أرضية الملعب دقائق قبل نهاية المباراة التي كان الفريق السوفياتي فائزا فيها بهدف لصفر، لكنهم عادوا فجأة من الخارج بعد أن سمعوا هتافات قوية قادمة من مدرجات الجمهور الهولندي فرحا بهدف التعادل الذي سجل في الوقت بدل الضائع، وفي طريق عودتهم إلى المدرجات حصل تدافع عنيف راح ضحيته المئات بسبب انهيار بعض الحواجز الحامية للجماهير بفعل الفوضى الهستيرية. في اليوم الذي أعقب المباراة نشرت الصحيفة الرسمية «فيشيرنيايا موسكفا» خبرا مقتضبا وصفت فيه ما حدث أثناء المباراة بأنه تدافع عادي بين مشجعي المباراة أسفر عن جرح عدد قليل منهم، بعدها لم يعد أحد يتذكر شيئا عن الموضوع الذي ظل طي الكتمان سنوات عديدة، لقد قام الحرس الأمني بإخراج لاعبي الفريقين من الملعب عند أول مظاهر التدافع فظنوا أن لاشيء وقع، أما ذووا القتلى فكل منهم ظن أن فقيدهم هو الضحية الوحيد في المباراة، وبهذه الطريقة لم يعلم أحد بوجود قتلى آخرين سقطوا في تلك المباراة إلا في سنة 1989م عندما أعادت الصحافة القضية إلى الواجهة. في 20 أكتوبر 2007م وإحياءاً للذكرى 25 من هذه المأساة، نُظِّمَت مباراة ودية بين الفريقين على ذات الملعب خُصصت عائداتها المالية لأسر الضحايا، كما تم نصب تذكار لهم عند مدخل الملعب، و قد عَبَّر اللاعبون خلالها عن استغرابهم من الأمر، فقد مضت بهم الحياة سبعة أعوام دون أن يدركوا بأنهم كانوا أبطال أكبر كارثة عرفتها ملاعب كرة القدم في التاريخ منذ نشأة هذه اللعبة. نفس الشيء ينطبق على حدث حماة في سوريا الذي وقع بعيدا عن عيون وسائل الإعلام، ومر في ظل تكتم شديد فرضته السلطات السورية آنذاك، لدرجة أن الناس لم تعلم بما جرى من أحداث مؤلمة في تلك المدينة التي قتل فيها أزيد من 20 ألف قتيل إلا بعد مرور أشهر عديدة. اليوم تغير كل شيء، فما يجري الآن يعرفه الناس بعد دقائق معدودة، فالعالم أصبح قرية صغيرة بسبب تقدم وسائل الإعلام والإتصال.

وسائل الإعلام هي التي تساهم في صناعة الأحداث اليوم، فلا أحد يتحدث

عن القطارات رغم أنها موجودة بشكل دائم، لا أحد يتنبه لها إلا عندما تحيد عن مساراتها، القطارات لا توجد أصلا إلا بعد أن تحيد عن سكتها، وكلما كان عدد القتلى كبيرا زاد وجود القطارات، نفس الأمر بالنسبة للطائرات فهي لا تبرز للوجود إلا بعد اختطافها، الحدث العصري هو في الحقيقة لا شيء بدون الحامل التواصلي «أنا موجود لأن الآخر يراني»، و يكفي تقديم المثال التالي لتتضح الصورة أكثر، فقد قام احتجاج للطلبة في إحدى الجامعات الفرنسية سنة2007م دام مدة طويلة. مهما كانت دوافع وأهداف الطلبة المحتجين، فالمؤسسة الجامعية توقفت فيها الدراسة لعدة أشهر. هذا الحدث تجاهلته وسائل الإعلام بالمرة. هذه الحركة الاحتجاجية تمثل حالة حدث حقيقي واقعي تم تبخيسه إلى وضعية اللاحدث، لأنه مر في ظل صمت إعلامي رهيب، و بالتالي لم يره الرأي العام على حقيقته، النتيجة كانت مختلفة وعكسية بالنسبة لحدث مماثل سابق ضخمته وسائل الإعلام، وبالتالي نجح في أن يأخذ صفة وضعية حدث، واستطاع أن يجعل النظام يتراجع عن مشروعه.[380]

الآن نحن نشارك جميعا في عودة الحدث الذي ظل لمدة طويلة مبعدا عن التاريخ الأكاديمي، الحدث أو مكان الذاكرة يجد حاليا مكانه في الكتابات التاريخية، ويثبت شرعيته من جديد، فلا شيء يمنع الباحث حاليا من أن يتناول التاريخ من خلال الحدث أو الفرد أو مكان أو نصب. لقد انتهى زمن الطابوهات والمحظورات التي كرستها الحوليات ومن بعدها التاريخ الجديد، هذا ما صرح به فرانسوا دوس، فإحياء التاريخ السياسي و الاهتمام الذي بدأت تقيمه العلوم الاجتماعية المختلفة لتجارب الفاعلين الاجتماعيين، وعودة الاحتفالات الجماعية التي ظلت محظورة في فرنسا بدءا من تخليد الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية. هذه التغيرات كلها أعادت للحدث تألقه ووهجه مرة أخرى.

ما يحدث اليوم مختلف عن القرن التاسع عشر الذي تميز بتقديس المؤرخ للأحداث، الكتابة التاريخية في عهد ارنست لافيس كانت مغرمة بالحدث، المؤرخ آنذاك كان يحب الحدث و يعشقه إلى درجة الجنون، صيرورة الوقائع والأحداث الماضية شكلت مادته الأساسية، وحتى عندما تشكل التاريخ كعلم من العلوم، فإنه أسس وجوده اعتمادا على الحدث، كان يكفي التخلص من التعابير الأدبية للمرحلة الرومانسية للوصول الى الحقيقة. إنه تاريخ تميز بخطية الزمن التاريخي وبتسلسل الأحداث الكرونولوجية، وقد تكرست هذه المفاهيم حول التاريخ الحدثي مع أجيال كاملة من المتمدرسين الذين نهلوا من الكتب المدرسية التي ألفها مؤرخو المدرسة

380. François Dosse. *La renaissance de l'événement*. Op.cit. p317.319.

المنهجية. لقد ظل الحدث طيلة القرن التاسع عشر المادة الأولية للتاريخ المنهجي قبل أن يقع رفضه من طرف مدرسة الحوليات[381] .

فرانسوا دوس في كتابه انبعاث الحدث يثير التغيرات المعاصرة التي ساهمت في الصعود السريع للحدث، فالتاريخ أصبح آنيا بسبب دور وسائل الإعلام المتعددة، وأصبح للأحداث بهذه الطريقة معنى جديدا، فالحدث ليس هو ما يمكن رؤيته أو معرفته، ولكن ما سيؤول إليه. وإذا كان ادغار موران قارن عودة الحدث بأبي الهول لقدومه غير المتوقع ولمعناه الغامض. فإن فرانسوا دوس شبهه بالطائر الخرافي فينيكس لطبيعته المتجددة.

ظل تمثال أبو الهول مزارا للناس إلى حدود القرن الرابع، ثم ما لبث أن تعرض بعده للإهمال، إذ طمرته الرمال حتى لم يعد يظهر منه شيئا، بقي أبو الهول مختفيا في الرمال إلى فترة الحملة الفرنسية على مصر حيث أعيد اكتشافه من جديد. يُعَدُّ هذا التمثال الراقد في رمال الجيزة من أعجب الآثار الفرعونية، ليس بسبب شكله المعماري فقط، ولكن للتساؤلات والأساطير العديدة التي نسجت حول شخصه حتى أصبح يمثل لغزا حير على الدوام و مازال يحير إلى اليوم علماء الآثار، فأبو الهول يكتنفه غموض شديد مثله في ذلك مثل الحدث.

فرانسوا دوس يشبه الحدث بالطائر الأسطوري فينيكس، لأنه يُولَد بشكل متجدد من رماده. الوضع المعطى للحدث بدوره أصبح موضوعاً للعديد من التناولات المتجددة على مر الزمان. الفينيكس أو الفينيق (العنقاء) طائر يحترق ويتحول إلى رماد، و من الرماد يخرج مرة أخرى طائر جديد يعود إلى موطنه الأصلي حاملا بقايا الجسد القديم إلى معبد الشمس في هيليوبوليس بمصر. هذه الأسطورة ذكرها هيرودت وتوجد عند العديد من الشعوب بصيغ أخرى مشابهة. العنقاء طائر يحيا فردا ويجدد ذاته بذاته، وتشير الروايات الأسطورية إلى أنه يعيش ما بين 500 و 600 سنة إلى أن يحين وقت التجديد والتغيير، فيتجه رأسا إلى معبد إله الشمس رع، حيث ينتصب طائر الفينيكس حاملا جناحيه إلى أعلى، وما هي إلا لحظات تمر حتى يلتهب الجناحين ومعهما جسد الطائر الذي يتحول إلى رماد. ومن وسط الرماد ينبعث طائر فنيكس جديد شبيه بالقديم لكنه ليس هو تماما. هكذا هو انبعاث الحدث عند دوس، هو كالعنقاء لا يختفي أبدا بما أنه يترك العديد من الآثار يعود بدون توقف ليساهم بوجوده الطيفي في أحداث موالية، ويتسبب كل مرة في ظواهر غير مسبوقة، بهذا المعنى هناك عدد قليل جدا من الأحداث التي يمكن اعتبارها انتهت لأنها قابلة دائما

381. Alban Bensa et Eric Fassin. *Les sciences sociales face à l'événement*. Op.cit.p2

للظهور والطفو على السطح من جديد[382].

الحدث في نفس الوقت أبو الهول والعنقاء، لكونه يتميز بخاصيتي الغموض والتجدد، الحدث يبقى غامضا باعتباره فرديا وغير متكرر، والحدث بطبيعته متجدد قد يختفي لكنه يعاود الظهور مرة أخرى ليضرب ضربته. بهاتين الخاصيتين يفلت الحدث من كل محاولة تبخيسية.

أكيد أن الحدث لا يختفي نهائيا، يمكننا القول إن التاريخ يعممه، كل شيء يمكن أن يصبح حدثا، فاللاأحداث هي أحداث لم تُسَمَّ بعدُ لكنها متوقعة، و بما أن كل شيء يمكن أن يصبح حدثا، فإنه لاشيء هو حدث حقيقة. فالحدث المستجد ليس دائما جديدا كما نظن، بروزه يدخل ضمن صيرورة تاريخية، منطق اجتماعي، أحيانا يتم تقديم «الحدث المفاجأة» بينما كل شيء مفبرك في زمن عصرنة وسائل الإعلام والديموقراطية. مع انتشار الصحافة وتطورها تم تثمين الحدث اليومي المعاش، عناوين تصنع في كل طبعة أحداثا هي في معظم الأحيان «مولود ميت». إن الحدث لا يُعرَف بأهميته الإعلامية و إنما بآثاره، لا يجب أن نُعطي هذا الإسم إلا للأحداث الكبيرة التي تذيب جليد الروتين، والمتفق على كونها مهمة بشكل كاف من طرف المعاصرين، أي الأحداث القصوى المكسرة للبنية. حسب بيير نورا ينبغي أن نتخلى عن الحديث عن أشباه أحداث، والتي تحاول التطفل على الأحداث الحقيقية بأحداث زائفة[383]. العصرنة الحالية تعيش حالة من وفرة المعلومات إلى درجة الإغراق، بحيث يستحيل معها متابعة كل شيء. بالنسبة لبيير نورا الإعلام صنع التضخم الحدثاني، والدمقرطة الإعلامية فرضت نوعا من الكشف «الفضائحي الحدثاني»: أحداث مكررة، متشابهة، أحيانا نمطية، ذات أفق محدود، في الغالب يتم تبخيس السياق. دلالة الحدث تُفهم عن طريق إنشاء سلاسل ذات صلة كما بينه على سبيل المثال البان بينسا واريك فاسان في دراستهما لحدث 11 شتنبر 2001م. وأيضا كما تناوله فيلسوف التفكيكية جاك دريدا.

قامت وسائل الإعلام بتضخيم حدث 11 شتنبر. نفس الشيء ينطبق على التغطية الإعلامية لإعصار كاترينا، والذي بين إلى أي حد ينتشر الفقر في أماكن السود في الولايات المتحدة الأمريكية. تغطية الإعلام لهذا الإعصار أثرت بشكل كبير على شعبية وسمعة الحكومة نفسها.

أعداد كبيرة من الناس في العالم تابعت نشرات الأخبار بشكل مسترسل

382. François Dosse. *La renaissance de l'événement*. Op.cit.p 6/7

383. Alban Bensa et Eric Fassin. *Les sciences sociales face à l'événement*. Op.cit.p4

لفهم ما جرى في يوم 11 شتنبر2001م، فضول الجمهور حول الحدث والتساؤل عن من كان يقف وراءه كان من القوة بحيث إن الناس شاهدوا قدرا كبيرا وهائلا من التغطية الإخبارية لأحداث 11/9 (يسميه الانجليز 911 لتطابقه مع الرقم الذي يرمز إلى طلب الإغاثة -المستعجلات- في بلدهم)[384]. وتنطبق نفس الملاحظة على أحداث الثورات العربية وبالخصوص الثورتين المصرية والليبية[385]. نجد في وسائل الإعلام بعض أعمال العنف قد تكون أكثر أهمية بكثير من حدث 11 شتنبر، لكن لم تُغطَ لها نفس القيمة ولم تَحْظَ بنفس التغطية. فالنصوص والمواضيع التي ينقلها أو ينتجها التلفزيون هي التي تؤثر في مشاعرنا وليس الأحداث التي يتم تجنب ذكرها. يتبادر إلى ذهننا التساؤل التالي: ماذا لو لم تكن لدينا التغطية التلفزيونية لحدث مثل 11 شتنبر أو الثورات العربية؟ ماذا لو لم نر كل تلك الصور والتقارير؟ هل كنا سنخضع لنفس التأثيرات ؟

على عاتق العلوم الإنسانية إذن حسب الباحثين البان بنيسا واريك فاسان مسؤولية تجاوز القراءة الإستهلاكية للحدث كما تقدمها وسائل الإعلام في زمن العولمة والعصرنة. فالحدث مثار شك[386]، والعديد من الناس أحسوا بأنه لاشيء سيبقى على حاله، والتوضيحات التي تقدمها العلوم الاجتماعية تتمثل في المآل وفي التساؤل حَوْلَ هذا الحدث. هل كان تعبيرا عن نهاية مرحلة أم بداية لمرحلة جديدة؟

يتميز الحدث في نفس الوقت ببداهة القطيعة والشك بخصوص المعنى، هذه النقطة المزدوجة المميزة للحدث، ونقصد الغموض والتعقيد، هي منطلق بحث العلوم الإجتماعية بخصوص تناول الحدث. الحدث وقع لكن ما هو أهم بالنسبة لنا هو ما يقوله الحدث[387]، فَهُوَ يظهر وكأنه تفاصيل بسيطة في قصة إخبارية لَكِنْ يمكن

384. ارثر اسا بيرغر .وسائل الإعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية.م.س. ص166.

385.لم تحض الثورة السورية بنفس المتابعة الجماهيرية التي حضيت بها الثورتين المصرية والليبية، فقد فقد الحدث جاذبيته، وتراجع الفضول لدى العموم الذي تحول مع مرور الوقت الى لامبالاة، فنتيجة لكل العنف الذي تعرضنا له بوصفنا مشاهدين للتلفزيون فقدنا الحساسية اتجاهه. لذلك فنتيجة الثورة السورية في ظل الظروف المحيطة بها ستكون مختلفة عن الثورات في تونس وليبيا ومصر على المدى القريب والمتوسط ، وهذه النتيجة ستؤثر على ما سمي الربيع العربي الذي قد يتوقف في حال فشل ثورة سوريا.

386. شكك الصحافي والناشط الفرنسي تيري ميسان Thierry Meyssan في كتابه الخدعة الرهيبة *L'Effroyable Imposture* في الرواية الرسمية لأحداث 11 سبتمبر 2011م. شكك عبر مجموعة من الأدلة في رواية البيت الأبيض وطرح عددا كبيرا من التساؤلات حول ما وقع، اتهم أطرافا في الأجهزة العسكرية الداخلية بالتواطؤ في التفجيرات، هذا الكتاب أصبح من المؤلفات الأكثر رواجا بعد صدوره، ترجم إلى 28 لغة.

387. Alban bensa et Eric fassin.*les science sociale face à l'événement*. terrain. numero38-Qu'est-ce Qu'un événement (mars 2002). [En ligne]. mis en ligne le 06 mars 2007. p11

أن يكون له انعكاسات وتداعيات كبيرة[388]. وهنا يمكن للعلوم الاجتماعية أن تفيدنا أكثر من أي طَرَف آخر حول حدث تتناوله وسائل الاعلام، فهي مطالبة بأن تُنتج خطابا معرفياً يتجاوز الخطاب الإعلامي[389].

قدم البان بنيسا واريك فاسان قراءة لحدث 11 شتنبر من خلال شبكة تأويلية اعتبراها إحدى القراءات الممكنة. في البداية هذا الحدث بالنسبة لهما يتطلب بلا شك تأويلا لعلاقاته المتشابكة والمعقدة في إطار العلاقات الدولية.

حدث 11 شتنبر في الشبكة التأويلية الأولى من هذه القراءة لدى الباحثان في العلوم الإجتماعية أتى كنهاية لسلسلة من الهجمات الأخرى السابقة ضد الولايات المتحدة الأمريكية، فالمركز التجاري العالمي سبق وأن تأذى سنة 1993م، وَالجنود الأمريكيون في الجزيرة العربية تعرضوا للإعتداء سنة 1996م، بالإضافة إلى الاعتداء بالمتفجرات على السفارتين الأمريكيين في نيروبي ودار السلام بافريقيا سنة 1998م. يمكن أيضا أن نعود إلى ما قبل هذه الهجمات، وبالضبط إلى سنوات حكم جيمي كارتر مع غزو أفغانستان من طرف الاتحاد السوفياتي، وكيف تحول المسلحون المحميون من طرف أمريكا وحلفائها إلى أعداء بامتياز، ويُمكن أن نعود إلى أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران سنة 1979م، وإلى حرب الخليج الثانية (عاصفة الصحراء) سنة 1991م.

يُفهم حَدَثُ الحادي عشر من شتنبر بهذه الطريقة كانتهاء سلسلة أعمال إرهابية لما بعد فترة الحرب الباردة، وفي نفس الوقت يمكن اعتبار الحدث نشأ عن الحرب الباردة نفسها، أي عن مخلفاتها. هذه الشبكة المؤَسَّسَة على الصراع والتوتر الذي يميز العلاقات الدولية لا تؤدي إلى اعتبار الحدث كنهاية لمرحلة سابقة فقط، بل إن الحدث كما عشناه في ظل وسائل الاعلام اعتبره ميشيل فيهر كبداية، وَالحادي عشر من شتنبر 2011م في الشبكة التأويلية الثانية من قراءة هذا الأخير تَعتبر هذا الحدث أول «حدث مَا بعد كولونيالي». في ظِلٍ هذا المنطق الكولونيالي الجديد تَخوضُ القوى الامبريالية معارك فوق أراضي خارج ترابها (التدخل في العراق، في الصومال..)، وأحيانا تتدخل بالنيابة عن أطراف أخرى حليفة، ما حدث في نيويورك يعتبر بمثابة رد فعل عن هذه السياسة التي تبنتها الخارجية الأمريكية. هو هجوم على أراضي دولة جعلت من نفسها سيدا وشرطيا ووصيا على العالم بعد نهاية الحرب الباردة، إنه هجوم على دولة قوية تقنيا وعلميا وعسكريا، وهو كذلك هجوم على دولة

388. ارثر اسا بيرغر. وسائل الاعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. م.س. ص167.

Alban Bensa et Eric Fassin.*les science sociale face à l'événement*. Op.cit. P12.389

تلعب دور الحَكَمْ في المنازعات، وَتهيمن على مجلس الأمن والكثير من المؤسسات الدولية، لذلك كانت نهاية الحرب الباردة من خلال نتائجها وآثارها أكثر سُوءاً من بدايتها[390].

بهذا المنطق تم النظر إلى حدث 11 شتنبر، بحيثُ لا يبدو فقط كنهاية، ولكن كبداية لسلسلة جديدة من النتائج والتغيرات الممكنة التي يمكن نعتها بـ «ما بعد كولونيالية». لقد شاهدنا الاستراتيجيات الأمريكية في المنطقة يعاد تعريفها وتوضيحها من خلال صيغة جديدة لأشكال التحالفات والتدخلات الإقليمية، وذلك من أجل مجابهة الأعداء المحتملين في المستقبل[391].

شبكة ثالثة من التأويل ضمن نفس القراءة تعتبر حدث 11 شتنبر قَلْبٌ للْمَفَاهِيم، صفحة من التاريخ الوطني الأمريكي وليس فقط في العلاقات الدولية فُتِحَتْ، ودلالة الرموز تغيرت. عاد ظِل فرانكلين روزفيلت ليخيم على الأمة مِن جديد. وَفي هذا السياق نسَجِّل عودة الوطنية القومية الأمريكية إلى الواجهة. فقد قُدِّمَ أبطال جدد على الساحة الشعبية، منهم ساعي البريد والاطفائي والشرطي والجندي. فالاطفائي يضحِي ويخاطر بحياته لإنقاذ العالقين في مركز مبنى التجارة العالمي، وَالجندي يُرَابط في ساحة المعركة وهو يقاتل أعداء امريكا المحتملين، وَ الشرطي يُحافظ في الداخل على أمن الوطن والمواطنين حتى لا تتكرر الاعتداءات مرة أخرى، وَساعي البريد يتعرض بدوره للخطر وهو يحمل رسائل الجمرة الخبيثة.

تمت إعادة الاعتبار لهذه الفئات المهمشة في السابق في احتفالية إعادة افتتاح وول ستريت، حيث تم استدعاء إطفائي وشرطي وتم دق الجرس. إنها طقوس مُتَعمَّدة، تحيل إلى الدور المهم الذي قامت به هذه الفئات التي ينتمي إليها الجندي والشرطي وساعي البريد والاطفائي، كل هذه الصور التي ركزت عليها وسائل الإعلام بمختلف أنواعها جعلت الطلبة يندفعون بشكل تلقائي للعمل ضمن هذه المجموعات أكثر من طلب العمل في البنوك الخاصة[392]. وَجعلت هذه المعايير المختلفة من نماذج المواطن من موظفي الخدمات العمومية رموزا للوطنية، ووجوها جديدة بعيدة ومختلفة بشكل جذري عن نماذج سابقة كانت ينظر إليها بشكل دوني.

أدت الهجمات على أمريكا إلى انتعاش جديد للنزعة القومية لدى الجمهور الأمريكي، فجأة بدأ الناس يعرضون العلم الأمريكي خارج منازلهم وعلى

390. جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ حديث دار في 22 اكتوبر 2001م مع جيوفاني بورادوري. ترجمة صفاء فتحي-مراجعة: بشير السباعي. دار توبقال للنشر، الدارالبيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2006م.

391. Alban Bensa et Eric Fassin.*les science sociale face à l'événement*. Op.cit.p11

392. Ibid.p11

سيارتهم[393]. وَعلى المستوى الوطني 11 شتنبر لا تحدد نهاية مرحلة، بل بداية مرحلة جديدة لانبعاث المفاهيم والقيم الوطنية التي تُلْمَسُ في آثارها على المستوى الاجتماعي. هنا يتفق آرثر آسا بيرغر المتخصص في مجال الاتصال والإعلام مع قراءة الباحثين في علم الاجتماع بينسا وفاسين، والذي اعتبر هذه الآثار الإجتماعية ناتجة عن صور وسائل الإعلام التي أعطت لمأساة 11 شتنبر أهمية بارزة على المستوى العالمي، ربما ليست هناك أي صور تلفزيونية في التاريخ الحديث مروعة مثل صور الطائرتين وهما تتحطمان على مركز التجارة العالمي. وَتلت تلك الصور صور أخرى مروعة نرى فيها الناس وهم يقفزون من المباني إلى حتفهم، ومن ثم صور أبراج عملاقة تنهار في كِومة هائلة من الأنقاض، مع الدخان المتصاعد من الحرائق التي ملأت السماء، قال بعض الناس الذين سئلوا حول مشاهدة هذه الأحداث على شاشات التلفزيون إنّهَا بدت لهم وكأنها فيلم من الأفلام السينمائية. وقد غيرت هذه الصور والبرامج الإخبارية أمريكا بشكل جذري. وحَصَلَ تغيير كبيرِ في السياسة الخارجية للولايات المتحدة، فقد تبين أن ما حَدَثَ في بلد فقير بعيداً عن سواحل أمريكا يمكن أن يؤثر في الولايات المتحدة بطرق عميقة[394].

غَيَّرَ حدث شتنبر مفاهيم متعددة على المستوى الداخلي، وَتغيرت أشياء كثيرة في الحياة اليومية للأفراد العاديين داخل أمريكا وخارجها، على سبيل المثال الجالية المسلمة في أمريكا وأوربا أصبحت فجأة محل اهتمام كبير بسبب تصاعد ممارسات الكراهية وأعمال العنف التي تصلِ أحيانا إلى درجة جرائم القتل. وَفي المطارات الحقائب والأشياء التي كانت تُحْمَل بشكل عادي تخضع الآن لتفتيش دقيق ومراقبة صارمة، مجال الخصوصيات والحريات الشخصية يُنْتَهَكُ في بلدان كانت تُعتبر من أعرق الديموقراطيات باسم الإجراءات والإحتياطات الأمنية، الهواتف النقالة للأفراد يسمح بمراقبتها وتعقبها، ورسائل البريد الالكتروني تخضع لمسح دقيق.

قَدَّمَ الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا بدوره رؤية تتقاطع في نقاط عديدة مع وجهة نظر البَاحِثَيْن في العلوم الإجتماعية البان بنيسا واريك فاسان، وتختلف عنهما في نقاط أخرى. يُقِرُّ بداية بأن هذا الحدث (11شتنبر) لا يمكن محوه من الأرشيف المشترك لتاريخ عالمي -أو من المفترض فيه أن يكون عالميا[395]، لكن من أين أتى إلينا

393. ارثر اسا بيرغر. وسائل الإعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. م.س. ص165.

394. المرجع نفسه ص164/165.

395. جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ حديث دار في 22 اكتوبر 2001 مع جيوفاني بورادوري. م.س.ص36

هذا الحدث؟ وكيف فَرَضَ علينا سطوته من بين أحداث مشابهة؟ لقد أعطتنا في نظره وسائل الإعلام انطباعا بأن ما وقع «حدث عظيم»، فالحدث الذي تم تكرار صوره في المحطات التلفزيونية مارس علينا نوعا من التأثير القوي، فهذا التكرار القهري والترديد اللانهائي لكلمة 11 شتنبر جعلا من اليوم والشهر حدثا عظيما حتى من دون ذكر السنة التي شهدت واقعة نيويورك.

تَشَكَّل الانطباع بوجود حدث عظيم بواسطة هيمنة اللغة ووسائل الإعلام التي قامت بتضخيم صورته، إن الحدث من خلال النفوذ الإعلامي الكبير للقنوات الأمريكية فرض سلطة الإسم والتسمية، وإلا كيف نفسر تحول مجرد تاريخ يوم عادي إلى ذكرى حدث رَسَخَ في ذهن العالم. إننا حسب جاك دريدا إزاء شيء استحدث تاريخا. فالحدث يأخذ ثراءه بقدر ما يزلزل علاقاتنا التقليدية بالمعاني، إن جزءاً كبيراً من الأفكار التي وُرثت هي حصيلة أحداث تاريخية مضت، وبقدر ما تتجدد الأحداث تتغير العلاقات بين الذات ومعانيها، بين الإنسان وبقية الشبكات التي ارتبط بها وارتبطت به، فحين يكون الحدث زلزالاً على المستوى البصري، فإنه يحرّك من خلال التدوير الإعلامي المجتمعات. وحين قرأ جاك دريدا حدث 11 أيلول (سبتمبر) ربط بين الحدث الواقعي والدورة الإعلامية، فقد كانت صورة ذلك الحدث زلزالاً تاريخياً سَاهَمَتْ في تكريسه سطوة الصورة، وحين تصحب الصورة المؤثرات الصوتية أوالتلاعب البصري بالمشهد، تكون النتيجة وشماً أكبر في ذاكرة الإنسان، فالحدث له علاقة بالرؤية البصرية، وبالرؤية الثقافية أيضا[396]. لا أحد ينكر أن 11 شتنبر برز عن طريق البهرجة الإعلامية، فقد أظهرت تغطية هذا الحدث والأحداث التي تلته أن التلفزيون يستطيع أن يؤدي خدمة ثمينة لا تقدر بثمن، تَحْدُثُ وقائع في كل لحظة وفي كل مكان، ولا يذكر في نشرات الأخبار كل الوقائع. هناك إذن عملية تمييز وفرز. فبعضها يذكر وبعضها لا يذكر[397]. يتساءل جاك دريدا: كيف كان حدث شتنبر سيمر دون وجود أجهزة التلفزيون؟ طَرَحَ هذا السؤال أيضا آرثر آسا بيرغر وغيره[398].

لقد أعطانا 11 شتنبر الانطباع بأنه «حدث عظيم»من خلال جسامة الحدث والأبعاد الكونية التي أعطيت له، ففي البدأية حاولت الصين مثلا أن تَحُدَّ من امتدادات هذا الحدث بحصره في زاوية الحدث المحلي الأمريكي، ربما بسبب

396. فهد سليمان الشقيران. «أسئلة يخاف منها الجبناء». الحياة السعودية،2 ابريل 2012م.

397. عبد الله العروي. مفهوم التاريخ. م.س.ص68.

398. آرثر آسا بيرغر. وسائل الإعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. م.س. ص163/167.

العلاقات المتوترة آنذاك بين القوتين، لكنها لاحقا تبنت مفهوم «الحدث العظيم» كما أبرزته القنوات الأمريكية، والتحقت بركب التحالف المضاد للإرهاب[399].

فهل يعتبر فعلا هذا الحدث حدثا فريداً وغير مسبوق في التاريخ، حدث غير متوقع وطاريء وجديد، هل يتضمن عنصر المفاجأة، المخالفة، الخروج عن المألوف؟ هل وَلّدَ نتائج؟ هل مثل قطيعة في مسار الزمان؟ ما طبيعة الحدث الجدير بتسمية «الحدث العظيم»؟. الحدث العظيم في نظر جاك دريدا يجب أن يكون طارئا ومباغتا، لدرجة جعل أفق المفهوم نفسه يهتز، كما أنه يشوش أيضا على الجوهر الذي يتيح لنا التعرف على ذات الحدث باعتباره حدثا. الحدث يكمن قبل كل شيء في ألا يُفهم بشكل أولي، فهل يعتبر حدث 11 شتنبر حدثا لا سابق له؟ حدثا كان من غير الممكن التنبؤ به؟ حدثا فريدا من جميع الجوانب؟[400].

يعترض جاك دريدا على تسمية ما حصل في ذلك اليوم بالحدث لأن اللغة في نظره انطباعية و ليست حيادية دائما، والوصف هنا يعود إلى الهيمنة السياسية والإعلامية والاقتصادية واللغوية الأمريكية، هو لا ينكر الواقعة بقدر ما يدفع بها إلى التحليل الأكثر عمقا،كونه من المستحيل فصل الحقائق العارية عن جهازها المعلوماتي، لا بد من إعادة الرؤية، وتفكيك اللغة المركزية المستعملة من خلال التفكير في مفهوم الحدث، وإعادة تأويله بروية.

ميز جاك دريدا في قراءته لحدث شتنبر بين انطباعين، من ناحية أولى واجب الشفقة على الضحايا، والنقمة على المجزرة المثيرة للحزن، والتي يجب إدانتها مبدئيا ودون شروط أو حدود. من الناحية الأخرى هناك الانطباع المسؤول اتجاه الحدث الذي تشكل إعلاميا، والذي يقبل التأويل والتفكيك، أي هذا التقييم الخاص للشروط، والذي يحاول أن يجعلنا نؤمن بأن هناك حدثا عظيما حصل[401].

ينطلق جاك دريدا من فرضية اعتبار 11 شتنبر حدثا عظيما، لينظر فيما يحويه من مفاجآت متفردة، يتساءل ما المقصود بكلمة الحدث العظيم، هل المقصود بذلك أبعاد الأبراج أو الأراضي التي شُنَّ عليها الهجوم أو عدد الضحايا؟ لا أحد أحصى عدد الضحايا بنفس الدقة في أماكن أخرى من العالم في حالات أخرى، لذلك وبغض النظر عن حقيقة التعاطف الحقيقي مع ضحايا البرجين، فإنه ذكر أن الأصداء التي أثارها عدد الضحايا لم تكن أصداء طبيعية أو عفوية صرفة، بل هي أصداء تخضع

399. جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س.ص71/72.

400. نفسه.ص43،42،41.

401.رضوان جودت زيادة، تفكيك دريدا لحدث 11 سبتمبر، جريدة المستقبل، الثلاثاء 12 اكتوبر 2004م، ص18.

لآليات تاريخية وسياسية وإعلامية مركبة. فالحقيقة التي يوضحها جاك دريدا في هذا السياق تتعلق بكون الاضطرابات التي تقع خارج الأراضي الأوربية والأمريكية، في كمبوديا والعراق وفلسطين ورواندا وأفغانستان حتى وإن زاد عدد الضحايا بها عن ضحايا 11 شتنبر، ومهما كانت فورية، لا يمكن مقارنتها مع حالة الحادي عشر من شتنبر[402]، يمكن هنا الإشارة على سبيل المثال إلى الإحصائيات المقارنة التي قدمها كتاب نعوم تشومسكي *An open media book 11-9* لعدد ضحايا 11 شتنبر، وأعداد ضحايا عمليات أخرى تنتمي لإرهاب الدولة،لم يعد يكفي قتل ما يناهز 4000 شخص من المدنيين في عدة لحظات باستعمال التكنولوجيا المتطورة لخلق حدث عظيم، هناك الكثير من جرائم القتل الجماعي التي لِم يتمِ تسجيلها ولا تأويلها، والتي لم نشعر بها، ولم تقدم باعتبارها أحداثا عظيمة، وَلَمْ يُعْطَ الانطباع بأنها تمثل كوارث لا تمحى.[403]

هذا فيما يخص عدد الضحايا، أما بخصوص فرادة الحدث، يؤكد جاك دريدا أن هناك مؤشرات بوجود تنبؤات سابقة بإمكانية تعرض المنشآت الامريكية لهجومات، لذلك فإنه لم يكن من المستحيلِ إبداً توقع مثل هذا الهجوم على الأراضي الأمريكية. كانت هناك هجمات سابقة ذُكرَ بها في هذا السياق (عملية اوكلاهوما،تعرض البرجين التوأمين لهجوم بالمفرقعات سنوات قبل 11 شتنبر، بالإضافة إلى الاعتداءات الأخرى ضد المصالح الأمريكية في الخارج. فإمكانية التنبؤ بما وقع كانت واردة، وإلا بماذا نفسر الغضب الرسمي لفشل جهازي المخابرات الأمريكية CIA وFBI اللذين تم التنديد بفشلهما الذريع، وكان من المفترض فيهما توقع حدوث هذه الهجمات[404].

يعد حدث 11 شتنبر أيضا ومن زوايا كثيرة واحدا من الآثار البعيدة للحرب الباردة نفسها حتى قبل نهايتها، حيث كانت الولايات المتحدة الأمريكية تدعم أعداء الاتحاد السوفياتي بالسلاح والتدريب، وهاهم اليوم قد تحولوا إلى أعدائها. لقد هيئت أمريكا لهذه القوى المناخ الملائم، ومهدت لهم الطريق للهجوم عليها من خلال سياستها في فترة الحرب الباردة. في نظر جاك دريدا يجب إعادة تأويل ومن زوايا متعددة لهذا الشيء المسمى بنهاية الحرب الباردة، ويتفق في هذه القراءة مع التأويل الذي قدمه البان بنسا واريك فاسان لنفس الحدث، فالجماعات المتهمة بالتنفيذ تشكلت وتدربت في زمن الحرب الباردة، ومن ثم فإن الحدث من النتائج

402. جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س.ص 45.

403. نفسه. ص41. نشير هنا إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تقف دائما إلى جانب الضحايا كما هو في حالات أخرى، المدنيين في هيروشيما وغزة وأفغانستان والعراق على سبيل المثال.

404. جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟م.س. ص43.

التي خلفتها هذه الحرب.[405].

إن ما سيظل مريعا في حدث 11 شتنبر، وما سيحيا بدون نهاية هو ذلك الجرح الذي أحس به أهالي الضحايا والأمريكيين عموما، إنه الشعور المستمر بالمأساة، والذي ساهمت السياسة الأمريكية نفسها في ترسيخه. إن الإجراءات التي قامت بها الحكومة الأمريكية من قبيل عدم اجتماع الشخصيات الكبيرة للدولة في مكان واحد أو في وقت واحد، ساهمت في خلق حالة من الخوف والقلق والترقب، فالحدث الذي وقع في الماضي القريب أصبح حاضرا في الراهن. إنه إيحاء بإمكانية قرب اعتداءات أسوأ من تهديدات الحرب الباردة، هذا هو الخطاب الذي تم تسويقه إعلاميا ورسميا. وَفي نظر جاك دريدا كانت النتائج ستكون مختلفة لو قيل للأمريكيين: إن ما حدث لتوه بالفعل يمثل نكبة كبرى، ويشكل مصدرا لآلام لا نهاية لها، لكن كل شيء انتهى الآن، وَلَنْ نشهد أبدا حدوث نكبة بمثل هذه الجسامة أو أشد وطاة منها. فبعد فراغ الأمريكيين من الحزن والحداد، كانت الأمور ستعود إلى نصابها العادي ومجراها المعتاد، فواجب الحداد كان بإمكانه المساهمة في التخفيف من آثار الصدمة والتقليل من الشعور المستمر بالمأساة من الناحية النفسية، لأنه يقوم بإضفاء السمو على الشخصيات المتوفاة والتي كانت سابقا على قيد الحياة. في تصوره كانت ستطوى الصفحة مثلما حدث في أماكن أخرى من العالم حيث أحداث مأساوية أخرى خلفت ضحايا أكبر. ذلك لم يحدث بالنسبة لحدث 11 شتنبر، فقد كانت هناك رغبة في استمرار آثار الصدمة أريد لها أن تستمر في الوجود، فقد أشيعت إمكانية مجيء شر أسوء، وأعطيت إشارات قوية بذلك، أي إمكانية تكرار الحدث في المستقبل بشكل أخطر، فالصدمة هنا نتاج ما يتوعد به المستقبل، وليس الاعتداء الذي مضى وانتهى، لقد تحول الحديث في اتجاه إمكانية وقوع اعتداء بالأسلحة الكيماوية أو الجرثومية، بل ذهبت التنبؤات بعيداً، إذ تحدثت وسائل الإعلام عن احتمال حدوث اعتداء نووي[406].

الحدث الذي يحتوي على جانب من الصدمة في تصور جاك دريدا هو حدث عظيم، لذلك يجب التفكير في زمانية الصدمة حتى نتمكن من التفكير في الأسباب التي قد تجعل 11 شتنبر حدثا عظيما، إنه لن يكون كذلك إلا اذا أخذنا بعين الاعتبار أن الصدمة التي أصابت الوعي واللاوعي لم تكن بسبب ما حدث، ولكنها أصابتنا بسبب المخاطر الغامضة التي يتوعدنا بها مستقبل أشد خطورة من الحرب الباردة

Alban Bensa et Eric Fassin.*les science sociale face à l'événement*. Op.cit. P11.405

406. جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر ؟ م.س.ص 47/54.

نفسها، وذلك لأن الجرح سيظل مفتوحا من الرعب أمام المستقبل وليس فقط من الرعب أمام ما حدث في الماضي.«امتحان الحدث له مرادف مأساوي وهو ليس فقط ما يحدث في اللحظة الراهنة، أو ما حدث في الماضي، بل دلالات ما ينذر بالحدوث في المستقبل إذ من الممكن أن يحدث ما هو أسوء مما حدث»، عندما يتعلق الأمر بالصدمة فهو يتعلق بالحدث الذي لا تنبثق آنيته من الحاضر الآني، ولا من الآن التي أصبحت ماضيا، ولكن من الحاضر القادم والذي لا يمكن تمثله بعد، من مستقبل مجهول. إذ يصبح التهديد شاملا، لكنه لا يأتي من دول بعينها كما هُوَ الشَّأن في توازن الرعب، بَلْ يأتي من قوى مجهولة لا يمكن توقعها ولا رؤيتها[407].

يوضح جاك دريدا من خلال ثلاث حالات إرهاب الحصانة الذاتية المتبع من قبل الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة الخطر المحدق بها، فالوسائل التي تستخدمها هذه القوة لمواجهة ما تمت تسميته بشكل مريب «الحرب على الإرهاب»، بما في ذلك جميع أشكال الحرب، تعمل جميعها على إحياء أسباب الخطر الذي تَزْعُمُ القضاء عليه، وذلك في الأمدين القصيرِ والطويل معا. فما قتل من الجنود الأمريكيين في ساحات المعارك خارج أمريكا يُمَثِّلُ أضعاف عَدَدِ من لقوا حتفهم في أحداث نيويورك ومنهاتن، وسواء تعلق الأمر بأفغانستان أو العراق أو فلسطين، فإن القنابل الذكية المستعملة لا تتيح إمكانية منع سقوط الضحايا من المدنيين، مما يبقي على إمكانية قيام الرد عبر حالات انتقامات مشروعة، من خلال الإرهاب المضاد لإرهاب أمريكا الدولة، وهكذا إلى ما لانهاية.[408]

إن الحرب ضد الارهاب تعبير شديد الغموض، فجورج بوش الإبن يتحدث عن الحرب، لكنه غير قادر على تحديد العدو، الإرهاب الدولي أدانته أغلبية الدول إرضاءا لأمريكا، في حين تحفظت عليه قلة قليلة. إن هذا المفهوم ملتبس وليس له تعريف دقيق، وَهُوَ يطرح العديد من الأسئلة بخصوص المعايير المعتمدة للتمييز بين الإرهاب والدفاع عن النفس. وقد ذَكَّرَ جاك دريدا محاوره بأمثلة كثيرة تمت فيها الإشادة بإرهابيين باعتبارهم مكافحين من أجل الحرية، وفي سياق آخر تمت إدانتهم باعتبارهم إرهابيين حقيقيين، ثم ماذا بشأن إرهاب الدولة؟ نحن إذن حسب دريدا بصدد تشوش في الحقل الدلالي للكلمات والتعابير المستعملة، فحدث شتنبر أفرز عددا من المفاهيم المبهمة التي تحتاج إلى مراجعة وتحليل، أو حتى إلى تفكيك على طريقة دريدا. أفرز الحدث تعدد المفاهيم وتعدد التأويلات والرؤى، فجميع أنواع

407. للمزيد راجع جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س ص ص 52/53/60.

408. نفسه ص57.

الإرهاب تقدم نفسها باعتبارها مجرد ردود أفعال ودفاع عن النفس ضد من هو أكثر إرهابا، وَهكذا يتم اتهام اسرائيل والولايات المتحدة والقوى ذات الطابع الإمبريالي بممارسة إرهاب الدولة، فهم أكثر إرهابا وخطرا من الإرهابيين الذين تدعي هذه الدول أنها ضحية لهم، وهكذا تحول الإرهاب إلى مصطلح متداول يرمي به كل ممارس له الآخرين من أعدائه، إنه اتهام متبادل استفاد من الخلط والفوضى الذي واكب استخدام هذا المفهوم[409].

يُحذرنا جاك دريدا في خضم حواره مع جيوفاني بورادوري من الحروب المحتملة مستقبلا، فالاعتداءات التي تحمل الطابع الإرهابي لن تعود في حاجة إلى الطائرات، ولا إلى القنابل، ولا إلى الفدائيين الإنتحاريين، بَل يكفي التسلل إلى نظام إلكتروني له قيمة استراتيجية، وإدخال فيروس فيه، أو تشويشه، أو العبث بمعطياته، أوتعطيله بشكل خطير قد ينتج عنه شل الموارد الاقتصادية والعسكرية والمعلوماتية لدولة أو قارة ما، بهذا المعنى الجديد سيصبح حدث 11 من قَبيل الحروب القديمة، إذ يمكن غدا أو بعد غد أن تكون هناك حروب موجهة ضد الشبَكات الإلكترونية التي تعتمد عليها الحياة الإنسانية في الوقت الراهن.[410]

تظل إعادة الاعتبار للحدث وقد قام بها بيير نورا بداية، حتى وإن بدت مقنعة، غامضة من بعض وجهات النظر، فإذا أخذتْ بصورة سطحية ضمن قراءة موجزة يمكن أن نرى فيها موقفا من المواقف المختلفة حول الموضوع القديم بتسارع التاريخ[411]. يمضي الزمان أمامنا اليوم في زمن عصرنة الإعلام بوتيرة سريعة، لدرجة أصبحت معها كتابة التاريخ تواجه صعوبة في متابعة التاريخ، تضاهي بكثير الصعوبة التي عبر عنها منظر التاريخ لورنز فون شتاين سنة 1843م، يبدو الأمر أشبه ما يكون بممارسة التاريخ من فوق عربة متنقلة، فالمؤرخ لا يستطيع تسجيل كل ما يمر به من أحداث بسبب التطور الهائل في سرعة انتقال المعلومات[412].

409. اعتبر جاك دريدا أن الإرهاب الحقيقي لم يقع إلا في اللحظة التي بدأت فيها التعبئة الإعلامية وعرض واستغلال الصور التلفزيونية. لقد وقع انحراف للحدث منذ اللحظة التي وقع فيها. للمزيد راجع جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س. ص69/67.

410. نفسه ص59.

411. ميشيل فوفيل. «التاريخ و الأمد الطويل». ص178.

412. حول تسارع التاريخ كتب جان نويل جانيني في عام 2001 م «هل يجري التاريخ بسرعة». فرانسوا هارتوغ. تدابير التاريخانية .ص175./213.

خاتـمة

عالجنا في هذا الكتاب موضوع الكتابة التاريخية خلال الفترة المعاصرة من خلال ملامسة مستويات استمرار النسق التقليدي و مستويات التطوير والتجديد في مناهج الكتابة التاريخية ما بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وكشفنا عن طفرات تطور الوعي التاريخي في هذه الحقبة المتميزة من تاريخ التاريخ.

إن تناول هذه القضايا فرضت علينا تتبع مسار الإنتاج التاريخي لهذه الفترة من حيث طبيعته ومميزاته، وكذا رصد مختلف التحولات التي راكمها هذا الإنتاج من حيث المناهج المتبعة والمواضيع المدروسة.

تركزت دراستنا بالأساس على خصائص الكتابة التاريخية لا على فلسفة التاريخ، ومع ذلك فإننا لم نهمل هذا المجال، بل خصصنا له الباب الأول من هذه الدراسة بغية فهم الترابط الموجود بين القضايا التاريخية.

لم تصل الأبحاث التاريخية درجة من التطور في أوربا من حيث المناهج وطرق البحث كما وصلت خلال القرن التاسع عشر، فقد أحرز التاريخ في هذا القرن إنجازات هائلة، إذ صار الفكر التاريخي مبحثا مستقلا عن الأدب، قائما بذاته على المستوى الأكاديمي، وقد أطلق على هذا القرن بامتياز قرن التاريخ، ففيه انتعش هذا الفرع المعرفي أكثر من أي وقت مضى، وفيه وُضعت قواعد صارمة للتعامل مع المستندات والوثائق.

في القرن العشرين الذي يوصف عادة بقرن الحروب العالمية، وقرن الصراعات والإيديولوجيات الكبرى، كان للتاريخ فيه صولات وجولات جديدة سواء على مستوى المواضيع المطروقة أو على مستوى المنهج المتبع. لقد أدين التاريخ الحدثاني، وتم تبخيسه إلى المنزلة الأخيرة باعتباره تاريخ وقائعي، إذ نُعت هذا التاريخ من قِبل الحوليات بتاريخ المعارك، وهو تعبير سجالي وُسِمَ به التاريخ المرتكز على الأحداث

الأكثر بروزا في المجال السياسي والعسكري كما مارسته المدرسة المنهجية التي ارتبطت بشكل حميمي بالأصنام الثلاثة التي دحضها سيميان: التاريخ السياسي، التاريخ الفردي، التاريخ الكرونولجي. لقد اتجه المؤرخون إلى ميادين مختلفة وجديدة، تخلى خلالها التاريخ اللاحدثاني عن أصله باسم تاريخ المدة الطويلة، فقد أزيح السرد و الحدث و الفرد من مسرح الكتابة التاريخية في عصر طبعته البنيوية بخصائصها.

انفتحت مدرسة الحوليات الفرنسية في إطار مشروعها الجديد على باقي التخصصات الاجتماعية الأخرى، لكن كان لذلك ثمنه الباهض، فالمخاطرة بظهور التفتت و التجزء في الكتابة التاريخية ظل أمرا واردا، وبالفعل أصبح التاريخ في مرحلة الثمانينيات من القرن الماضي أكثر تشعبا وتفككا من أي وقت مضى. فقد التاريخ خصوصيته ومعالمه، والمؤرخ لم يعد يشتغل في حقله، إذ ابتعد كثيرا عن ميدانه الأساسي، وضاع وسط العلوم الإنسانية، إنه تائه إلى أن يعود مرة أخرى إلى الاهتمام بما كان يشكل هويته وأصله، لقد دخل التاريخ نفقا مظلما أصبح فيه مهددا في وجوده، إنها مرحلة أزمة التاريخ التي لاحت في الأفق مع الجيل الثالث لمدرسة الحوليات. فهؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم حماة للتاريخ العتيق، وحراسا لإرث الحوليات، بدؤوا يبتعدون شيئا فشيئا عن القلعة المحاصرة، فالانتربولوجيا التاريخية اكتنفها غموض شديد، ومشروع التاريخ الشمولي دخل في أزمة منذ سنوات الثمانينيات، وما كان مرفوضا وغير مستساغ لدى مؤسسي الحوليات أصبح مقبولا.

نعيش الآن زمن عودة الحدث، وعودة البيوغرافيا، وعودة السرد، هذه الأنماط الثلاثة أثبتت شرعيتها من جديد، ووجدت مكانتها في الكتابات التاريخية، لا شيء يمنع اليوم المؤرخين و الأكاديميين الجامعيين من أن يتناولوا التاريخ من خلال الحدث، أو من خلال تجربة الفاعلين الاجتماعيين. لقد انتهت حقبة الطابوهات والمحرمات التي فرضتها في السابق أجيال مدرسة الحوليات. علماء الاجتماع والأنتربولوجيون بدورهم، وفي ظل التحولات الجديدة يفضلون مواضيع اليومي المعيش، إنهم يُعيدون بناء الأحداث من جديد انطلاقا من تصور اجتماعي للحدث، ولإنجاح هذا النوع من التحليل نراهم يركزون اهتمامهم بشكل خاص على التجارب كما واجهها معايشو الحدث، من خلال إعادة تركيب تجربة الفاعلين الاجتماعيين، و توضيح دور الأفراد وحقيقة الفعل، مع الأخذ بعين الاعتبار السياقات والسلاسل ذات الصلة.

أشياء كثيرة أخرى تغيرت في المسار الطويل من البحث التاريخي حسب المؤرخ بيير نورا، فالتحولات التي يشهدها العالم من حولنا اليوم أدت إلى بروز

تحول عميق في المفهوم التقليدي لمهنة المؤرخ. قد تغير دور المؤرخ هو وعمله وفكره خلال هذه العقود. لم يَكُنْ يُعَدُّ في السابق مؤرخاً من كان يتناول العالم المعاصر وأحداث الراهن، أمَّا اليوم فَيُنظر إلى وظيفة المؤرخ على أنها معالجة لمواضيع هذا العصر بالذات، وهو ليس وحده في الساحة لرصد الماضي القريب، بل عليه العمل في عالم يوجد فيه الصحافي والشاهد والناجي والقاضي شركاء له في فك ألغاز هذا الماضي القريب.

صعود تاريخ الزمن الحاضر في زمن الثورة الرقمية والمعلوماتية، وفي مجتمع يكرس أكثر وقته للإعلام، هو أحد التغييرات المهمة التي تلقي بظلالها اليوم على مشهد الكتابة التاريخية.

بيبليوغرافيا

المصادر والمراجع بالعربية

الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م.

الهراس، المختار، «منهج السيرة في السوسيولوجيا». في إشكاليات المنهاج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، 2001م.

بنحادة، عبد الرحيم، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، إشراف محمد مزين، موسم 1995/ 1996، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراس، فاس، مرقونة.

ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.

آرون، رايمون، فلسفة التاريخ النقدية، بحث في النظرية الألمانية للتاريخ، ترجمة حافظ الجمالي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999م.

اقلمون عبد السلام، الرواية والتاريخ، أطروحة دكتوراه، شعبة اللغة العربية، إشراف أحمد اليبوري، محمد مفتاح، الموسم الدراسي 2000/2001م.

التوسير، لوي مونتسكيو: السياسة والتاريخ، ترجمة نادر ذكرى، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ودار الفارابي، بيروت.

التيمومي الهادي (إشراف وتنسيق)، نظريات المعرفة التاريخية وفلسفات التاريخ في العالم الغربي في النصف الثاني من القرن 20م، مختارات معربة-إشراف- المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ؟ بيت الحكمة، 2008م.

الجابري محمد عابد، فكر ابن خلدون-العصبية والدولة- معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة 4، 1984م.

الجفائري، محمد عبد السلام مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي. تونس، ليبيا، بدون طبعة، 1984م.

الحصري، ساطع، دراسات في مقدمة ابن خلدون، بيروت، الطبعة الثالثة.

الخطيب، سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.

الخطيب، محمد كامل، المجتمع المدني والعلمنة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1994م.
الدواي، عبد الرزاق، موت الانسان هايدغر، ليفي ستراوس، ميشيل فوكو. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
الساعاتي، حسن، علم الاجتماع الخلدوني،قواعد المنهج، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1974م .
السبتي، عبد الأحد، التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى،2011م.
الطالبي، محمد، منهجية ابن خلدون التاريخية، دار الحداثة، الطبعة الأولى، بدون.
العروي، عبد الله، مفهوم التاريخ. جزئين.1.الألفاظ والمذاهب 2.المفاهيم والأصول. المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة 2005م.
الفشتالي، عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، 2005م.
إمام، عبد الفتاح، المنهج الجدلي عند هيغل، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.
باتسيفيا، سفيتلانا العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة رضوان ابراهيم، ليبيا، تونس، 1978م.
بارنز، هاري المر، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة محمد عبد الرحمان برج، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.
بنعيد العالي، عبد السلام، التاريخانية والتحديث دراسات في أعمال عبدالله العروي، دار توبقال، الطبعة الأولى، 2010م.
بوبر، كارل، أسطورة الإطار،في الدفاع عن العلم والعقلانية، تحرير مارك نوترنو، ترجمة يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت، عدد 292، أبريل/ مايو 2003م.
بؤس الايديولوجيا، نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، ترجمة عبد الحميد صبرة، دار الساقي،الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992م.
حبيدة، محمد، من أجل تاريخ إشكالي، ترجمات مختارة، جامعة ابن طفيل ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، الطبعة الأولى، 2004 م.
بوركي، بيتر، (تحرير) نظرات جديدة على الكتابة التاريخية 2، ترجمة وتقديم قاسم عبده قاسم، سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين، عدد 1591، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010م.
فاين، بول، أزمة المعرفة التاريخية، فيكو وثورة في المنهج، ترجمة وتقديم إبراهيم فتحي، الطبعة الأولى، مدار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون، القاهرة، 1993م.
بوميان ،كريستوف، نظام الزمان، ترجمة بدر الدين عردوكي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى، 2009م.

بيرتي، بيير، معركة وادي المخازن، تعريب امحمد بن اعبود، خديجة حركات، أحمد عمالك، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،1991م.
بيرغر، آرثر آسا، وسائل الإعلام والمجتمع، وجهة نظر نقدية. ترجمة صالح خليل ابو اصبع.كتاب عالم المعرفة، عدد 386، مارس،2012 م.
توينبي، ارنولد، تاريخ البشرية، الجزء الأول، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1983م.
بوحسن، أحمد، (إعداد) رهانات التاريخ الاجتماعي، قراءات في كتاب بين الزطاط وقاطع الطريق لعبد الأحد السبتي، جامعة محمد الخامس، أكدال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة كراسات الكلية، رقم 2.
خورشيد، فاروق وذهني، محمود فن كتابة السيرة الشعبية. منشورات اقرأ، الطبعة الثانية، 1980م.
دريدا، جاك، ماذا حدث في حدث11 سبتمبر، ترجمة صفاء فتحي، مراجعة: بشير السباعي، دار توبقال للنشر، الدارالبيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006م.
دوس، فرانسوا، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد. ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، يناير 2009م.
دوشيه، ميشال، تقاسم المعارف: الخطاب التاريخي والخطاب النياسي، ترحمة السيد حسين جواد قبيسي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2010م.
دولوز، جيل، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1987م.
دي صالدارنيا، انطونيو أخبار احمد المنصور سلطان المغرب، تقديم وترجمة وتحقيق ابراهيم بوطالب، عثمان المنصوري، لطفي بوشنتوف، إعداد النص الأصلي انطونيو دياش فارينيا، الطبعة الأولى، 2011م.
ديورانت، ويل، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 1965م.
ريكور، بول، الزمن والسرد، ترجمة الغانمي وفلاح رحيم، مراجعة جورج زيناني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2006م.
الذاكرة، التاريخ، النسيان. ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة 1، 2009م.
الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة لبنان، الطبعة الأولى، 2005م.
بعد طول تأمل، تقديم عمر مهيبل، ترجمة فؤاد مليت، منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون، الاختلاف، المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى، 2006م.
زريق، قسطنطين، نحن والتاريخ. الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1974م.
زيدان، منصور، التاريخي: تجلياته ووظائفه في رواية «كتاب الأمير» لواسيني الأعرج، بحث شهادة الماجستير في اللغة والآداب والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد الباردي، جامعة تونس، كلية

العلوم الإنسانية والاجتماعية. 2006/2007م.
القدوري ، عبد المجيد، و كنكاي، عبد القادر و قاسم مرغاطا (إعداد)
عبد الله العروي: الحداثة وأسئلة التاريخ، عبد القادر كنكاي، قاسم مرغاطا، جامعة الحسن الثاني، المحمدية،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسيك، الطبعة الأولى 2007م.
سينوبوس، شارل و لانغلوا، المدخل إلى الدراسات التاريخية، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ضمن النقد التاريخي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الرابعة، 1981م،
شوفاليه، جان جاك، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985م.
طحطح، خالد، في فلسفة التاريخ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت،2009م.
عبد اللاوي، عبد الله ابستملوجيا التاريخ، مداخل منهجية في صناعة المعرفة التاريخية، ابن النديم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2009م.
غادامير، جورج، الحقيقة والمنهج: الخطوط الرئيسية لتأويلية فلسفية، ترجمة حسن ناظم، علي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية جورج كتوره، دار اويا للطباعة والنشر، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 2007م.
فهمي، ماهر حسن، السيرة: تاريخ وفن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى.
فوكو، ميشيل، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية.
فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ، ترجمة وتعليق حسنين الشيخ، دار العلوم العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1993م.
كار، ادوارد، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر كيالي، وبيار عقار، الطبعة الثانية، لبنان، 1980م.
كريزويل، اديث، عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، الطبعة الأولى، 1993م.
كوثراني، وجيه، تاريخ التأريخ: اتجاهات،مدارس،مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 2012م.
كولنجوورد، ر.ج، فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، مراجعة محمد عبد الواحد خلاف، الطبعة 2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1968م.
لوغوف، جاك، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى،2007م.
ليشته، جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2008م.
ماركس، كارل، الرأسمال: نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة محمد عتياني، الجزء الأول، بيروت، لبنان، بدون.
موران، ادغار، النهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، الطبعة الأولى، أبوظبي،

2009 م.
مؤنس، حسين، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، عالم المعرفة، الكويت، عدد شتنبر، 1998م.
ميكيافللي، نيقولا، الأمير، تعليق بينتو موسوليني، تعريب خيري حماد، وفاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة العشرون، 1994م.
نصار، ناصف، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، الطبعة الأولى، بيروت، 1987م.
نكروف، يونس معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة، ترجمة وفاء موسى ويشو، حسين حيدر، منشورات عويدات، باريس، الطبعة الأولى، 1987م.
نور، عبد المنعم، الحضارة و التحضر، دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري، القاهرة، بدون، 1978م.
هارتوغ، فرانسوا، تدابير التاريخانية، الحاضرية وتجارب الزمان، ترجمة بدر الدين عرودكي، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2010.
هوبزباوم، ايريك، العولمة والديمقراطية والإرهاب، ترجمة أكرم حمدان، و نزهت طيب، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009م.
هوركهايمر، ماكس، بدايات فلسفة التاريخ، ترجمة محمد علي يوسف، الطبعة الأولى، بيروت، 1971م.
هيغل، فريديريك، محاضرات في فلسفة التاريخ-العقل في التاريخ- ترجمة عبد الفتاح إمام، الجزء الأول، لبنان، الطبعة الثانية، 1981م.
وافي، عبد الواحد، عبقريات ابن خلدون، القاهرة، بدون طبعة، 1973م.
ويدجيري، البان المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة ذوقان قرقوط، لبنان، الطبعة الأولى، 1972م.
ويلسن، كولسن، سقوط الحضارة. ترجمة أنيس زكي، الطبعة الثانية، بيروت، 1971م.
يقطين، سعيد، قال الراوي: البنيات الحكائية في السيرة الشعبية. المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1997م.

الدوريات بالعربية

السبتي، عبد الأحد و محمد حبيدة ما بعد التاريخ الجديد، قراءة في كتاب فرانسوا دوس،التاريخ المفتَّت. من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، بيروت، منشورات المنظمة العربية للترجمة، 2009 مجلة رباط الكتب الإلكترونية، العدد التاسع.
السبتي، عبد الأحد الشعوب العربية وعودة الحدث. عرض قدم في المائدة المستديرة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتعاون مع معهد جاك بيرك في 2011-3-15م حول الأوضاع الراهنة في العالم العربي.ونشر في جريدة أخبار اليوم 6/4/2011م.
السماك، محمد موقع الاسلام في صراع الحضارات، مجلة الاجتهاد، عدد 26، 27، بيروت،

1995م.

العيادي، محمد المدارس التاريخية الحديثة ومسألة الحدود بين العلوم الاجتماعية، مجلة أمل، التاريخ، الثقافة، المجتمع، العدد 15.

بلعقروز، عبد الرزاق في استمداد فوكو من نيتشه. تجنب إسقاط المعنى على المعرفة التاريخية. أوراق فلسفية،كتاب غير دوري، المحور: الفلسفة الفرنسية الراهنة. العدد 33، سنة 2012م.

بدر، أحمد محمود تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، عالم الفكر، مجلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، المجلد 29، محور الفكر التاريخي، 14 أبريل، يونيو 2001م.

بوردي، غي مدرسة الحوليات الفرنسية، مقال منشور في كتاب بعنوان المدارس التاريخية، نشر لوسوي باريس 6، ترجمة العروسي الميزوري، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 96-95، سنة 1983م.

جادور، محمد الخطاب التاريخي بين امتدادات الذاكرة وحدود التأويل، مجلة بصمات01،جامعة الحسن الثاني المحمدية،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك.الطبعة الأولى، 2006م.

جال، بول البيوغرافيا والتاريخ في روما القديمة. ترجمة عبد العزيز بل الفايدة. مجلة أمل، التاريخ، الثقافة، المجتمع. العدد7، السنة الثالثة، 1996م.

حبيدة، محمد ابستمولوجيا المعرفة التاريخية. قراءة في كتاب بول ريكور الذاكرة، التاريخ ، النسيان. العدد 11 من مجلة رباط الكتب الالكترونية، 2012م.

تاريخ جديد أم كتابة جديدة، قراءة في المؤلف الذي أشرف عليه جاك لوغوف، التاريخ الجديد. العدد الخامس، مجلة رباط الكتب، 2008م

حميش، سالم الخلدونية في مرآة فلسفة التاريخ، مجلة الاجتهاد، بيروت، لبنان، عدد 22، 1994م.

طحطح، خالد عودة البيوغرافيا، قراءة في كتاب فرانسوا دوس، الرهان البيوغرافي-كتابة سيرة- رباط الكتب الالكترونية، قراءات، العدد العاشر.

مرتان، هرفي و بوردي غي المنهج التاريخي الجديد وريث الحوليات، مقال منشور في كتاب بعنوان المدارس التاريخية، نشر لوسوي، باريس 6، ترجمه العروسي الميزوري، المجلة التاريخية المغاربية، العددان 97/98،سنة 1983م.

معزوز، عبد العالي مشكلة الزمن، بصمات سلسلة جديدة -03- ملف العدد: الزمن والمجال في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، الطبعة الأولى، 2008 م.

يقطين، سعيد الرواية وقضايا النوع الأدبي، مجلة نزوى، العدد 44،عمان، 2005م.

المصادر والمراجع بالأجنبية

BRAUDEL, Fernand *La méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de Philippe II* (1558-1598) Paris, Edition 1986, vol 2.
CARBONELL, Charles-Oliver, *L'HISTOIRE ET LES HISTORIENS, Une mutation idéologique des historiens français*, 1865-1885, Edouard Privat, 1976, Toulouse.
De CERTEAU, Michel, *L'Ecriture de l'histoire*, Gallimard, 1975.
l'absent de l'histoire, Mame. 1973.
DELACROIX, Christian. Dosse, François. Garcia, Patrick .Offenstade, Nicolas, *Historiographies I, Concepts et d'bats, Folio histoire, éditions Gallimard* ,2010.
Historiographies II, Concepts et débats, Folio histoire, éditions Gallimard,2010
DELACROIX, Christian. Dosse, Franáois. Garcia, Patrick
Les courants historiques en France XIX-XXI, collection folio histoire, Edition revue et augmentée, Gallimard, 2005.
DOSSE, François, *L'histoire*, Armand colin, 2010.
Gilles Deleuze et Félix Guattari, *biographie croisée*, Paris. La découverte 2007.
Le Pari biographique. écrire une vie. Editions La Découverte (17 septembre 2004).
L'Histoire en miettes. Des «Annales» et la «nouvelle histoire», Paris, la découverte, 1987 (2e édition: Presses Pocket, «Agora», 1997).
La renaissance de l'événement-Un défi pour l'historien : entre Sphinx et Phénix. Presses Universitaires de France - PUF; édition: 2010.
GUENEE, Bernard, *Histoire et culture historique dans l'Occident médiéval*. Paris, Aubier Montaigne, 1980.
LE GOFF, Jacques, *Le Saint Louis*, Paris, Gallimard, 1996.
LE ROY LADURIE, Emmanuel, *Le Territoire de L'historien* .Gallimard, 1973.
NORA, Pierre, *Le retour de l'événement. Faire de l'histoire*. Nouveaux problèmes. Sous le directeur de jacques le Goff et Pierre Nora. Gallimard.
REVEL, Jacques, *L'histoire au ras du sol. Introduction* to G.Levi, le pouvoir au village (paris, 1989)
VEYNE, Paul
comment on écrit l'histoire: Essai d'épistémologie, l'univers historique (Paris: Editions du seul, 1971).

المجلات الأجنبية

BENSA Alban et FASSIN Eric
Les sciences sociales face à l'événement:Terrain. Revues.
BOURDIEU, Pierre
L'illusion biographique. Actes de la recherche en sciences sociales. Vol. 62-63, juin 1986.
CORBIN, Alain (Entretien)
les mondes retrouvés de l'historien (L'histoire aujourd'hui) coord. Jean-Claude Ruano-Borbalan, édition Sciences Humaines. Nouveaux objets de recherche .courants et débats .le métier d'historie.
DELACROIX, Christian, Ce que Ricœur fait des annales : méthodologie et épistémologie dans l'identité des annales. Paul Ric'ur et les sciences humaines. Sous la direction de Ch. Delacroix, F. Dosse, et Patrick Garcia. Armillaire, la Découverte, paris 2007.
DOSSE, François
La capabilité a l'épreuve des sciences humaines. Paul Ricœur et les sciences humaines. Sous la direction de Ch. Delacroix, F. Dosse, et Patrick Garcia. Armillaire, la Découverte, paris 2007.
FERRO, Marc, La biographie cette handicapée de l'histoire *Le Magazine littéraire*, avril.1979.
GINZBURG, Carlo et PONI, Carlo, La micro-histoire. *Le débat*. No 17.décembre .1981. pp133-136.
LE GOFF, Jacques, Comment écrire une biographie historique aujourd'hui *Le Débat*, 54, mars-avr. 1989.
LORIGA, Sabina, biographical and historicale writhing in the 19th and 20th Centuries Transitions to Modernity Colloquium.The MacMillan Center, Yal University, 02/18/2008.
PUDAL, Bernard, Du biographique entre science et fiction, quelques remarques programmatiques. *Poltixe* année 1994, volume 7 numéro.
Ricœur, Paul, le retoure de l'événement, In: *Mélanges* de l'Ecole française de Rome. Italie et Méditerranée T. 104, N'1. 1992.
VALENTI, Catherine, La biographie historique en France. Un essai d'historiographie.

فهرس